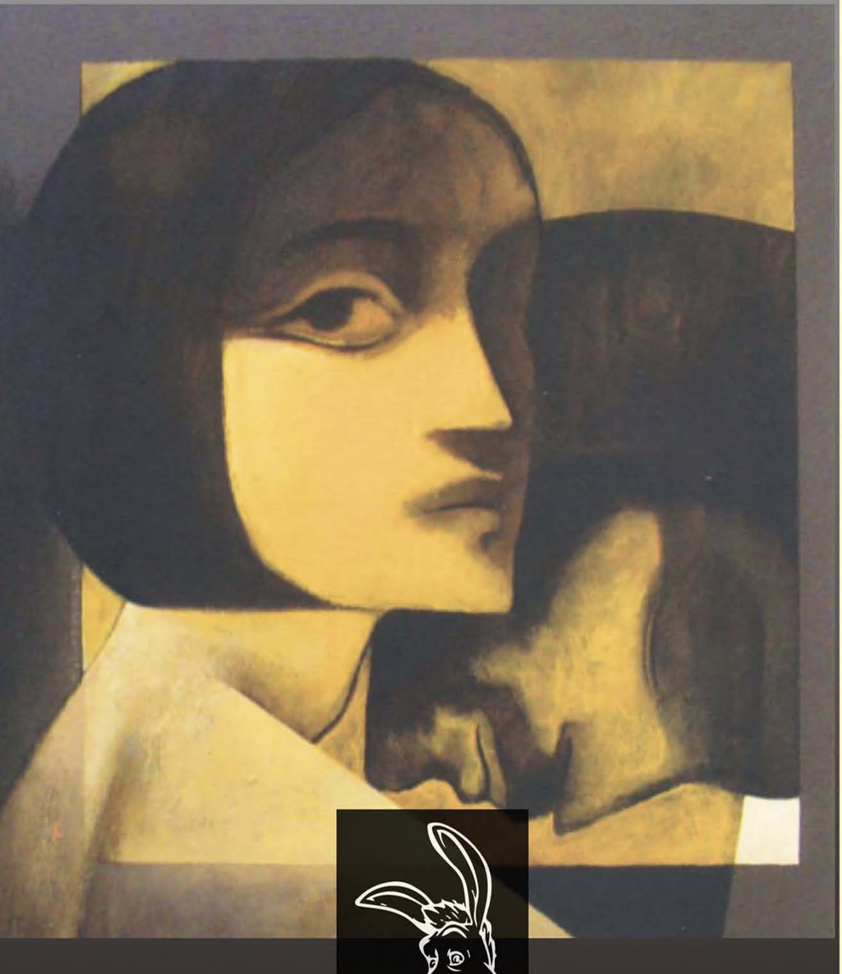
نيروز مالك

جبل السيّدة



رواية

جبـــل السـيدة

جبـــــل الســـــــــــيّدة
المـؤلــف: نيـروز مـــالك
الطبعـــة الأولـــى: آذار ٢٠٠٨
عـــدد النــــسخ: ١٠٠٠

تنضــــيد وإخــــراج: دار نـــون٤
لوحة الغلاف: الفنان صفوان داحول
من مجموعة عدنان الأحمد الخاصّة
الغـــلاف: الفنـــان رائـــد خليـــل

نـــون٤ للنشــر والطبــاعة والتوزيـــع
هاتف ٢١٢١٣٣٢ خليوي ٠٩٤٤٨٨٩٠٧٨
بريـــد إليكتروني :news@scs-net.org
المنشيـــة القديمـــة ــ حلــب ــ سوريـــة

نيـــروز مـــالك

جبـــــل الســــــيدة

روايـــــة

الإهداء

إلى حلب / 1

الكتاب الأول -1

الخزانة الحديدية

في منتصف الطريق، بعد أن خرج حامد من البيت، تذكر أنه نسيّ «السلفة» التي أخذها من آخر زبائن اليوم. نعم. لقد نسيها على الطاولة.. نسي أن يفــتح الخزانة الحديدية ويضعها فيها. لذا، عليه أن يعود إلى المكتب ليرفع «الســلفة» عن الطاولة، يجب أن يضعها في الخزانة ويقفل عليها. نعم يجب أن يكون المبلغ تحت القفل والمفتاح! يجب أن يكون داخل الخزانة وليس فوقها، يجب..

اللعنة! ها أنت تشرد من جديد، ويذهب عقلك إلى زينب! شــعر بلفحــة باردة تلف وجهه رغم حرارة شهر تموز، وتتسلل إلى نفسه وهو يرتل اســم زينب في أعماقه، فيرتعش قلبه لذلك ويخفق باضطراب..

وفجأة يخرجه زمور سيارة مسرعة على الطريق، من ذات نفسه فيلتفــت حوله ويتابع ما كان يتداعى في نفسه، أما التأخر عن سهرته نصــف ســاعة أو أكثر فليس بالأمر العظيم الذي لا يعوض.. المهم بالنسبة له الآن، هو أن يرفــع «السلفة» عن الطاولة ويضعها في الخزانة الحديدية، يؤمّن عليها حتى الصباح.

وقف حامد وتلتفت حوله، وهو على رصيف شــارع الطلعــة «للشــيخ مقصود» ما لبث أن عاد مرة أخرى يتلهى بالحوار مع نفسه حول «الســلفة» التي نسيها على الطاولة، فهو لا يعرف، ولا يتذكر كيف نسيها؟ جــلّ مــن لا ينسى. كان من المفروض أن يضعها مباشرة في الخزانة. لقد فكر أن يقــوم بذلك عندما تناولها من يد الزبون، ولكنه قال في نفسه، لو فعلت ذلــك، فقــد

يأخذ فكرة سيئة عنك، قد يقول: ما له خائفاً كل هذا الخوف، فهو لـــم ينتظـــر حتى كتابة عقد البيع ليضع «السلفة» بعد ذلك في خزانتـــه الحديديـــة؟ لـــذا وضعها حامد بلا مبالاة على الطاولة، كرجل عينه شبعى من المال. ثم امتـــد بينه وبين الزبون والشاهدين حديث حول البناء، والظـــروف القاســـية التـــي يعيشها الشاري وأصحاب العقارات، فالشراة جلّهم من الموظفين، أما أصحاب العقارات فيعانون في سبيل تدبير الحديد والأسمنت والخشـــب، وكلهـــا مـــن السوق السوداء، وبأسعار من نار! ثم اتفق الأربعة على أن يكـــون الله عـــز وجل في عون جميع الناس.. وهنا، قام وودّع الزبون والشـــاهدين والســـاعة تدور عقاربها في الثامنة، وهنا بالضبط كان قد نسي «السلفة».

شعر حامد براحة وهو يتقدم من مكتبه ويسأل نفسه: ماذا لو أنك فتحت باب المكتب وأشعلت الأضواء ونظرت إلى الطاولة فلم تجد «السلفة» فوق الطاولة؟

توقف عن خطوه بعد أن هبط قلبه من الخوف إلى ما بين ركبتيه! فلـــم يجب.. إنما اندفع إلى الباب وفتحه بحركة مضـــطربة تمامـــاً، وهـــو يحـــس بالاختناق. ثم رفع «الدرابية الصاجية» إلى الأعلى. وحـــاول أن يجـــد بـــين المفاتيح الكثيرة التي يضمها في قلادة واحدة، المفتاح الخاص بالباب الداخلي للمكتب فلم يجده إلا بصعوبة، دفع الباب الخشبي ومد يـــده يـــتلمس مفتـــاح الضوء على الحائط، ولاضطرابه نسي تماماً أين يقع المفتـــاح الكهربـــائي.. حاول أن يتذكر ذلك وهو يتلمس الحائط بكفه وأصابعه... وعندما عجز، اندفع إلى الطاولة التي انعكس على زجاجها بعض الأضواء مـــن الخـــارج فأخـــذت تتراقص عليه، بينما يده ترتطم بـــ «السلفة» التي سقطت على الأرض.

هدأت أعماق حامد، وتراخت عضـــلاته المتـــوترة، تمـــددت أعصـــابه المتشنجة وخفقات قلبه، ثم راح يسمع خرير الدم في شرايينه.

جلس على الكرسي، وراء المكتب، وهو يمد نظره باطمئنان إلى الخارج،

إلى الليل والأضواء ورؤوس الأشجار الساكنة في حر تموز في باحة كنيسة السيدة العذراء حيث تمتد المقابر المسيحية وراءها..

تسللت، بعد ذلك، عبر الباب المفتوح، أصوات النـاس باللغـة العربيـة والكردية والأرمنية، وحتى بعض الأصوات باللغة القرباطيـة. تسـللت إليـه أصوات مزامير السيارات والصراخ الرفيع لباعة الدخان المهرّب من الصبيان والأطفال والصغار..

قام بهدوء بعد ذلك وأشعل الأنوار، جميع الأنوار في المكتب، رغم حرصـه على الاقتصاد في النور أثناء عمله، ثم سار بتؤدة إلى «السلفة» النائمـة علـى أرض المكتب.. رفعها بحرص، نفض عنها الغبار، ثم سوّى أوراقها في تناسق، فتح باب الخزانة الحديدية ووضعها إلى جانب المبالغ الأخرى.

ظل يتأمل الأوراق التي غفت في ظلمة الخزانة التـي أغلقهـا بحركـة سريعة تشي بالخوف عندما تذكر أن باب المكتب مفتوح.. أغلق باب الخزانة وأطفأ أنوار المكتب، ثم أنزل «الدرابية» و(قرفص) ليغلقها.. وقبل أن يقـوم من جلسته «القرفصائية» وهو يطق المفتاح، قال: يجب أن أثبت قفـلاً آخـر للباب، للأمان والاطمئنان. ثم انتصب بقامته القصيرة المربوعة مرتاحاً تمـام الارتياح وهو يعود بذاكرته إلى زينب مرة ثانية.

خمارة الشباب

ألقى حامد بنفسه في تاكسي وطلب من السائق أن يذهب بـه إلـى مطعـم «الشباب» الواقع بجانب ملهى «الشهبندر» الليلي... ومع انسياب السيارة، وهي تمرق من بين أضواء مصابيح الشارع، ابتسم ساخراً من نفسه عندما تذكر كيف انقبض قلبه خوفاً لمّا فكر بأن لصاً ما قد يدخل عليه في المكتب ويسـرقه! أمـا الآن فقد شعر بارتياح، برغم اقتناعه بأن المال الحلال لا يُسـرق ولا يغـرق ولا يُحرق! إنه صاف كحليب الأم... وأكد لنفسه: إن المال الذي يُسرق هـو المـال

الحرام فقط! ثم أضاف: والمال الحرام هذا، الله يبعده عن أيدينا..

ظلت البسمة الهازئة مرسومة على وجهه حتى بعد أن قطعت به السيارة المقابر المسيحية، ومع استوائها على الطريق، تسلل وجه زينب من جديد إلى نفسه مخفياً وراءه القضايا الأخرى التي كانت تُشغل تفكيره. فعادت رغباتـــه تجنح به إلى هنا وهنالك وهو يفكر بالغد.

غداً سيستلمها من عبد الفتاح.. الذي قال له يوم أمس: أتعرف يا حامد؟ مازالت عيني فيها! ثم ابتسم وعلق: اللعنة عليها، فهي من النساء اللواتي لا يشبع المرء منهن أبداً.. ولكني رجل وعدتك أن أعاشرها مدة شهر، وعلي أن أنفذ وعدي وعهدي.. شهر، يعني شهر..

وانفجر بضحكة قوية اهتز لها كرشه الكبير اهتزازاً..

بلع حامد ريقه وهو يغمض عينيه، ولكنه، قبل أن يحلم بزينب من جديد، وقفت السيارة والسائق يقول له: مطعم الشباب..

في المطعم، الكل يعرف حامد باسم أبو عدنان.. الكل يعرف ماذا يريـــد؟ وكيف يجب أن تُرتب الطاولة التي سيجلس إليها؟ ومن من النُدّل يرتاح فـــي ترتيب طاولته؟ لذا عندما يجلس حامد لا يتقدم منه سوى أبو أحمـــد، وأبـــو صبحي.. يقفان بين يديه ويستمعان إليه وهو يملي عليهما طلباته.

كان النادلان يعرفان مسبقاً ماذا سيطلب، ولكنهما أيضاً يعرفـــان أنهمـــا سيخسران البخشيش المغري إنْ لم يقفا بين يديه، ليقوم أحدهما، وهـــو أبـــو صبحي، بتسجيل الطلبات. أما أبو أحمد فينحني فوق الطاولـــة بـــين لحظـــة وأخرى ليمسحها بتؤدة وإتقان، لأن حامد يقدم لهما في أول السهرة مبلغـــاً لا يستهان به. أما في نهايتها فيضاعف لهما المبلغ لهذا.

كانا يقفان بين يديه، ويستمعان إلى ما يمليـــه عليهمـــا.. وكـــان مـــن الطريف، أن النادل أبو صبحي.. لا يكتب ما يطلبه حامد، إنما يتظاهر بـــذلك،

فهو يعرف تماماً ماذا سيطلب من المشروب والمقبلات والأطعمة!

ومن الطرافات الأخرى، أن النادل أبو أحمد.. كان يأتي حاملاً الطلبـــات، بينما النادل أبو صبحي. ما يزال واقفاً بقرب الطاولة يسجل ما يطلبه حامد..

كان حامد يستاء لذلك، ولكن عندما تقع عيناه على ما يُقدم لـــه يرتـــاح ويبتسم ولا يتمالك نفسه من أن يقدم لهما بخشيشاً مجزياً... لذا كانت طاولته دائماً عامرة بالمازة واللحوم والمشروب والخبز المحمص، وإلى جانبه أركيلة خاصة به، والنادل أبو أحمد.. يلف ويدور حوله يلبي له طلباته.

كان حامد، بعد أن يتناول كأس العرق الأولـــى، ويأكـــل نصـــف صـــحن السلطة، ويبتلع بعض قطع اللحم المشوي، يخلد إلى الراحة والكسل والارتخاء وهو يدير نظره في أرجاء الخمارة.. يتأمل صاحبها «حنا» حيث يقبع كملـــك وراء الطاولة المعدنية، يراقب النُدّل في تحركهم، موزعاً عليهم «الفيش» لكل صحن مازة أو قطعة ليمون أو حبة بندورة أو بطحة عرق. يراقـــب بعينـــين ذابلتي الأهداب تحرك النُدّل وطلبات الزبن.

كان حامد واحداً من الذين يحييهم «حنا» بانحناءة صغيرة من رأسه، مع بسمة شاحبة يرسمها على وجهه مرحباً به. كان يعرف أن مثل هذه الانحناءة والبسمة من صاحب الخمارة لا يمكن أن تقدم لأي كان من الزبائن. كانت تقدم لأناس خاصين جداً. لأناس من أمثاله فقط.

وفي فضاء «خمارة الشباب»، بعد الكأس الثانية، أخـــذ حامـــد يســـتعيد ذكرياته حول زيارته الأولى للخمارة هذه، فيبتسم بانشراح وهو يمضغ حبات الفستق التي يلقيها إلى داخل فمه ويقول لنفسه: كم كنت غبياً؟! يتـــابع وهـــو مستمر في مضغ حبات الفستق: كم كنت جاهلاً غير عارف بمتـــع الحيـــاة؟! ويتذكر، كيف شعر بغربة فظيعة عندما جاء إلى المدينة مهاجراً مـــن قريتـــه، باحثاً عن حياة أفضل.. ولكنه ما لبث أن شعر أيضاً بضآلة ما بعـــدها ضـــآلة

عندما استقر في حلب.. كان يلتفت حوله، ينظر إلى المباني العالية والسيارات والأماكن، فيشعر برعب فيهرع إلى البيت يبحث عن الطمأنينة بين جدرانـــه، ويتأمل زوجه فاطمة التي لم تكن أقل منه رعباً من حياتهما الجديدة في حلب!

كان قد مر على عمله في المكتب العقاري ســتة أشـــهر عنـــدما شـــعر بانزياح الخوف، ولو قليلاً، عن صدره، ومن داخل نفسه، لأنه كان قد اهـــتم، بكل ما يملك من ملكات فطرية، بضرورة نجاحه في عمله الجديد. أخذ حامـــد يشعر بالثقة عندما بدأت الحركة تدب في جنبات مكتبـــه. طبعـــاً كـــان هـــذا بمساعدة المتعهد عبد الفتاح.. أخذ وارده المالي من عمله يزداد شـــهراً بعـــد شهر.. فأزال هذا الأمر تحفظه من المشاركة في الحياة العامة، لأنه كان قبـــل ذلك، ما إن يغلق باب المكتب حتى يهرع إلى البيت يقبع بـــين جدرانــــه مـــع زوجه حتى صباح اليوم التالي.. ولكن حامد قرر، ذات ليلة، أن يـــذهب إلـــى «خمارة الشباب» بعد أن خلق أحد معارفه فضولاً في نفسه، فاســـتعلم عـــن الخمارة، ثم تسلل إليها في أول الليل، ولكنه في تلك الليلة لم يطل من جلوسه فيها. قام وهرع إلى البيت قبل أن تبدأ الساعة التاسعة مقرراً ألا يذهب إليهـــا أو إلى مثيلاتها مرة ثانية.

كانت رائحة «العرق» النفّاذة، قد آذت خياشيمه في المرة الأولى لزيارته، صحيح أن الأكل كان طيباً واللحم طرياً، ولكن رائحة «العرق» اللعينة، هي التي دفعته إلى القيام والانصراف مبكراً إلى البيت... وفي الطريـــق شـــعر برغبـــات غامضة، شعر بتخلخل خلايا جسده وانزياح الرغبات الدفينة في أعماقه.

لم يكن الدخان قد انعقد بعد في سماء الخمارة عندما أتى حامـــد علـــى البطحة الأولى. لم يمل الضحك الصاخب والشتائم والصراخ النـــزق بعـــد، أو محاولات التصفيق اللجوج، وكأّن أصحابها يقولون للنادل: كن، فيكون!

كان حامد، مع سكب كأسه الأولى من البطحة الثانية يعزل ذاته عن جو

الخمارة، يخلو بنفسه مع الأكل اللذيذ والسلطة الطرية والمشاوي التي تــذوب في الفم... ثم، ومع الشبع، يشرد بذهنه إلى قضاياه الخاصة، يفكر في أحواله المعاشية والعائلية، يفكر بأحلامه التي تحققت، وتلك التي لم تتحقق بعد. كان يعزل نفسه عن جو الخمارة تماماً، حيث يتسلل الخدر إلى دماغه ببطء فيشعر بحرارة مجهولة تدب في جسده، ويحس بثقل في لسانه، وانزياح في رأســه! يشعر كأن رأسه قد كبر وخف حتى أصبح كالبالون، ما إن تدفعه حتى يحلــق طائراً في السماء، يعلو في طبقاتها السبع.. ولكن حامداً، رغم تسلطنه هــذا، كان يشعر بثقل في أجفانه. فيتلفت حوله وينظر إلى وجوه الزبائن المحيطــين به، وهم قابعون كالدمى وراء الطاولات، يشعر كأن شيئاً ما، غيــر إنســاني يبرز في عيونهم الدموية المرتخية الأجفان.

كان يرى وجوههم وهي تنقلب ــ إن ضحكوا ــ إلى وجوه ثيران هائجة أو بقرات ساكنة هادئة، تؤتى من الخلف.. فيضحك طويلاً للمنظر ذاك وهــو يتأمل وجوههم ويتابع حركات أياديهم!

كان حامد، في بعض الأحيان، يرى أيدي بعض منهم رفيعة طويلة، يمكن أن تصل إلى آخر طاولة في الخمارة، يمكن لها أن تدخل من النافذة إلى القسم الشتوي الفارغ الذي أُغلق منذ ثلاثة أشهر، يمكن لتلك الأيدي الرفيعة الطويلة أن ترفع سيخاً من اللحم المشوي عن النار المحمرة، أو أن تتنــاول بطحــة عرق من «الفيترين» الذي يحرسه «حنا»، أو تتناول بخفة قطعــة ليمــون أو حبة بندورة دون أن يحس بها أحد من أبناء «حنا» الذين يحيطون بــه وهــم يراقبون أمور الخمارة من دون تدخل مباشر منهم..

أمام هذه المشاهد يفتح حامد عينيه، يشــد جفنيــه ويهــز رأســه، أو بالأحرى ينفض رأسه كأنه يريد بذلك أن يستيقظ، أن يحــس أن الــذي رآه، ويراه الآن، هو مجرد رؤى أو حلم لا يمت بصلة إلى الواقع.. أما عندما كانت

تكثر أحلامه تلك ورؤاه المزعجة، المرعبة، كان يلعن «العرق» والساعة التي تناول فيها أول كأس منه! يلعن نفسه وإرادته الضعيفة التـــي لا تســـتطيع أن تبقى على قسمها الذي تكرر في الأيام الماضية عدة مرات، علـــى أنـــه لـــن يتناوله بعد الآن. ويزداد غضب حامد ازدياداً شديداً على زوجه عنـــدما كـــان يعود إلى البيت فتعلن عن غضبها وهي تلعن العرق وأبو الذي صنعه! كانـــت تقول له: يا عيني، لماذا لا تهتم بعملك عوضاً عن ذهابك إلى الخمارة؟ لمـــاذا لا تقضي أوقاتك بين أولادك؟

كان حامد يطأطئ، أحياناً، رأسه مذعناً وهو يقول: معك كامـــل الحـــق. اصفحي عني هذه المرة، فأنا لن أعود إلى شرب الـــ... ثانية، وفـــي أحيـــان أخرى، كان يصفعها وهو يصرخ: اخرسي..

وتخرس مدة تزيد عن اليومين، ثم ما يلبث أن يشعر بالندم لتصرفه ذاك فيقول لنفسه معاتباً: أنت وحش. وفي آخر الليل يبدأ زحفه إليها مـــن أســـفل قدميها حتى عنقها اللحيم الأبيض الطري، ولكنها كانت تظـــل جامـــدة رغـــم ملاعبته الطويلة لها..

شيخ مقصود «سابقاً: جبل السيدة»

عاد حامد إلى أحلامه بعد أن تناول الكأس الثالثة من البطحـــة الثانيـــة. كان يشعر بنعاس شديد حيث عجز عن التحرك من مكانه، فاسترخى في قعدته على الكرسي بعد أن أبعد وجـــوه الزبـــائن النحيلـــة الطويلـــة، أو الســـمينة المنفوخة، ثم راح يتأمل وجه زوجه الذي برز أمامه فجأة وهي تضـــحك لـــه وتقول: ألن يفرجها الله علينا يا أبو عدنان؟ لقد كبر الأولاد.. متى سنرحل عن حي «الشيخ مقصود»؟ نبتعد عن طينه ومياهه ذات الرائحة الكريهـــة؟ يـــرد عليها بعد تنهيدة طويلة: بسيطة.. يجب تطويل البال يا فاطمة.. ثـــم يـــردف بعتاب فيه شيء من النزق:يجب أن لا ننسى سكنتنا يوم جئنـــا إلـــى حلـــب..

تقاطعه فاطمة: وحياتك.. لم أنس، ولكن لماذا نبقى بين الطين والوحل إن كان باستطاعتنا الخروج منهما؟ ويجيبها حامد بضـيق: الرحيـل عـن «الشـيخ مقصود» ليس أمره بيدي... لقد قلت لك أكثر من مـرة، إن الأمـر مـرتبط بالمتعهد، وعمل المتعهد يتطلب مني أن أبقى هنا، فـي «الشـيخ مقصـود» وليس في مكان آخر.. لأن لديه كثرة من البيوت التي لم يبعها بعـد، وأيضـاً بعض الأراضي التي لم يبنها بعد!

تنفض فاطمة يديها اللتين كانتا، في تلك اللحظة تطـولان أمـام عينـي حامد، وتمتدان حتى تصبحا عصوين رفيعين، وتردف قائلة بفم معـوج كـأن فالجاً قد أصابه: هذا يعني أننا لن نخرج من «الشيخ مقصود» إلاّ على محفـة الموتى! ثم تهرع باستياء للخروج من الصالة إلى غرفة «المعيشـة» تاركـة زوجها في خمارة «الشباب» يتأمل كأس «العرق» الذي أمامه على الطاولـة، فيقطع أنفاسه عندما تخرج فاطمة من الصالة لأن عجيزتها الكبيـرة، هكـذا رآها، تأبى الخروج من الباب. كان حامد يقول لنفسه: الآن سـتقف بالبـاب، ستعلق فيه، لن تستطيع تخليص عجيزتها منه! ويحاول أن يقوم إليها ليساعد في دفعها بقوة عبر الباب وهو يقول لنفسه: غداً سأذهب إلى النجار من اجل أن يوّسع الباب قليلاً حتى تستطيع أم عدنان الخروج بعجيزتها منه!

ويكف حامد عن الكلام وهو مذهول، ينظر إلى انسياب زوجه من البـاب كانسياب الهرة من النوافذ الضيقة..

كان حامد يخرج من نفسه أحياناً بعد أن ينتفض علـى أصـوات الـذين أكثروا من الشرب، ويتلفت حوله فلا يجد شيئاً غير عادي، فيعود ويغرق من جديد في خموله الشارد وهو يقول لفاطمـة، بعـد أن تكـون قـد أغضـبته واستفزته بكثرة تساؤلاتها وأسئلتها التي بلا طعمة. كان يقول لها بنزق: لـم يمض على وجودنا في «حي الشيخ مقصود» سـوى خمـس سـنوات، أمـا

المتعهد، فلم يخرج منه إلا بعد عشر سنوات بالتمام والكمال.. فكيــف نحــن؟ تقاطعه. وكان صوتها الجهوري يأتيه من غرفة «المعيشة»، حيث تدور حول نفسها كبغل معصوب العينين، يأتيه صوتها فيهز كيانه: أنا أعــرف لمــاذا لا تريد الخروج من «الشيخ مقصود»؟

يبلع حامد ريقه، ثم يسألها وكيانه يهتز: هاتِ أتحفيني بالسبب؟ تجيبــه بغضب: لأنك لا تريد أن تبتعد عن أناسكَ الذين تفوح مــنهم رائحــة الــروث والقذارة و..

تنهد حامد للحظة، وتمطت أعماقه بعد أن كانت منكمشــة وهــو يقــول لنفسه: أنا الذي ظننت أنها عرفت شيئاً عما يربطني بزينب. رفع صــوته ورد على زوجه: الله يسامحك يا أم عدنان!

ويسكت. ولكن أم عدنان لا تسكت. تتابع: أنت دائماً هكذا، تجد لكل علة سبباً تبرر موقفك بكلمة، الله يسامحك..

يبتسم حامد وهو الذي أخذ جانب الهزل في حواره معها: وأيضاً لا تنسي أن مصلحتي تتطلب ذلك..

ردت عليه: طبعاً.. أنا لم أنس..

رد عليها بصوت فيه صفير، كأنه بذلك يحاول أن يغني: طبعاً لا يمكنني أن أفكر إلا بكِ ومصلحتي. ثم يردف: وهل نسيت أنني من أجل ذلك كدت أقتل عثمان رشيد، صاحب مكتب «الإخاء» العقاري بعد أن وصلت الأمور بيننا إلى الشيطان الرجيم! قولي، ماذا دفعني إلى حافة الجريمة لولا مصلحتي؟ ثم يتابع بصوت حازم كأنه ينطق بالحكم: لا أستطيع ترك حارة الشيخ.. لأن مصــلحتي مرتبطة بمصلحة المتعهد.. وهو سندي في نهاية المطاف... ويأخذ حامد قليلاً من الهواء كالسمكة التي تخرج من الماء لحظات ويتابع: أم أنك نسيت ذلك؟

أجابته: كلا لم أنسى، فأنا أعرف أنك كعادتك ستقول: لولا المتعهد لكــان

عثمان رشيد اليوم يقبض على كل الأمور العقارية في «الشيخ مقصود» أمـــا أنا «فأكش الدبان»، كأنك نسيت الله.. وأن الأرزاق أولاً وأخيراً بيده..

غضب حامد غضباً شديداً وأخذ وجهه يلمع بحبيبات العرق بين الـــدخان المعقود في فضاء الخمارة بالكامل، حتى إنه لم يعـــد يـــرى وجـــوه الزبـــائن بوضوح، لأن غلالة رمادية أخذت تحط على عينيه. قال لها باستياء، وبشيء من نرفزة حرضته من الداخل، ودفعت به إلى التحرك في كرســـيه، فزّقزقـــت أرجل الكرسي تحت ثقله: أراكِ تتكلمين كوَلي من أولياء الله.. اللعنة! ويقـــوم غاضباً، ويخرج من البيت يضرب في أزقة الحارة.

كان غاضباً حانقاً على زوجه رغم أنه أخذ منذ أكثر من سنة يتقـــزز مـــن الحارة وساكنيها، ولكن ماذا يفعل إنْ كان المتعهد عبد الفتاح.. قد طلب منه أن يبقى بالقرب من عقاراته التي بناها وتلك التي يزمع بناءها.. ورغم أن حامـــداً كان قد خرج من البيت. فإن صوت زوجه كان يطارده: لماذا لا تريد أن تخـــرج من الحارة؟ هل اشترانا، ــ تقصد عبد الفتاح ــ حتى يبقينا بين هذه القذارة؟

ويزفر حامد بأنفاس ملتهبة ويقول بلهجة ممطوطة: طبعاً هو لن يمـــانع في خروجنا لو أصرّينا، ولكن من يضمن أن تمر الأيام دون أن يجلب سمساراً غيري ليعتمده في أموره العقارية في الحارة؟ من يضمن ذلـــك يـــا فاطمـــة؟ ويتابع: فهو يريد وسيطاً يسكن في «الشيخ مقصود» يطمئن أهل الحارة إليه، لأنه ابن حارتهم، يركنون إليه.. والإنسان دائماً يركن للذي يعرفه أكثـــر مـــن الذي لا يعرفه. ويقطع حامد كلامه ليردفه بكلمة قاطعة: أفهمت لماذا؟

الهرولة والركض

رغم الدوار الخفيف الذي يشعر به حامد، وهو في الخمارة، نزل الـــدرج متقززاً وغاضباً للخراب الذي حل بالبلاط والدربزون الذي تساقط عنه الملاط الأبيض، والمياه والأوساخ المتجمعة هنا وهنالك أمام البناية التـــي يســـكنها،

وعلى الأرصفة في شوارع الحارة.. طبعاً هو لم ينس بعد، اليوم الـذي جـاء فيه إلى المدينة، وكيف اشترى قطعة أرض زراعية تقع خارج حدود العمران، مثله مثل آلاف المهاجرين من أبناء الريف إلى حلب، لأسباب كثيرة ومختلفة. خطط حامد قطعة الأرض بنفسه، وأقام حيطان داره، ثم سوّرها.. أما السـقف فعاونه على صبّ الاسمنت، معلم «بيتون» مقابل مئة ليرة..

وهكذا بنى لأولاده وزوجه بيتاً مؤلفاً من غرفة واحدة ومطبخ بلا سقف ومرحاض بلا باب.. أسدل عوضاً عنه ستارة من الخيش الغليظ..

لم ينس حامد بعد الحياة القاسية التي عاشها فـي البيـت ذي الغرفـة الوحيدة، ولم ينس بعد كيف كان عليه أن يستيقظ قبل موعد عمله بسـاعتين كي يستطيع الوصول إلى مقره في الوقت المحدد، من دون تأخير، وهو يتأمل وجوه أولاد صاحب الخمارة الشاحبة، الجامدة، الموزعة حول الطاولة التـي يقبع وراءها والدهم كملك. كانوا أشبه بالدمى التي فرغت لتوهـا مـن قـوة النابض الذي يحركها.. يبتسم بينه وبين نفسه، ثم يدير رأسه إلـى الواجهـة الزجاجية المملوءة بالليل. يحاول أن يميز أغصان الأشجار في القسم الشتوي المهجور عن أغصان الليل المتشابكة أمام الواجهة الزجاجية..

ويتذكر حامد كيف كان بعد انتهاء دوام وظيفته الرسمي، يهرع إلى محل «ممنون» لصنع الحلويات؟ كان يخلع عن نفسه الثياب ويرتدي رداء العمـل، ثم ينخرط مع العمال الذين كان جُلّهم، مثله، من الموظفين في دوائر الحكومة ومؤسساتها، يعملون حتى الساعة العاشرة من الليل... ويتذكر، كم كان يُرهق في الساعة الأخيرة من العمل، حتى إنه كان يصل إلى درجة العجز عن تحريك يديه من شدة التعب.. ولكن لم يكن أمامه سوى العمل. لـو لـم يعمـل تلـك الساعات الإضافية لما استطاع أن يحافظ على ماء وجهه أمام الناس، لأكلـه الفقر دون أن ينتظره حتى نهاية الشهر..

وذات يوم وهو يشكوا حاله المعاشية لأحد أصدقائه. سأله: لماذا لا تترك وظيفتك وتحصل على تعويضك من المؤسسة والتأمينات الاجتماعيــة لتفــتح حانوتاً أو ما شابه ذلك، تعمل فيه، لأن الموظف، أمــام هــذا الغــلاء الــذي يتصاعد ويتصاعد، مصيره الجوع الحتمي! ثم قال له بعد حــين: أنــا تركــت وظيفتي التي لم تعد تغنيني عن الجوع!

ابتسم حامد.. ولوى عنقه دلالة العجز، ولكن النصيحة تركت في نفســه أثراً أخذ يزداد ليؤكد له في نهاية المطاف صحة قول صــديقه..ثــم أصــبح اقتناعاً في نهاية الأمر، خاصة، بعد ازدهار الأعمال الحرة من حوله، وزيــادة مكاسب أصحابها بصورة لا تصدق..

وها هو اليوم الذي رمى فيه بكل شــيء وراءه وقــدم اســتقالته مــن الوظيفة وقبض كامل تعويضاته، وفي نفسه أن يفتح حانوتاً صغيراً، ولكن أحد الموظفين أقنعه أن يفتح مكتباً عقارياً للرهن والبيع والإيجار، بعــد أن وعــد بمساعدته لدى بعض معارفه الذين يعملون في التعهدات. أما عنــدما تعــرف حامد.. إلى عبد الفتاح.. أكبر المتعهدين لتجارة البناء في «الشيخ مقصــود» فقد وقف واجف القلب، مرتجف الأوصال أمامه، خاصــة عنــدما لاحــظ أن المتعهد يتأمله ملياً، كأنه يزنه بينه وبين نفسه متسائلاً: أيمكن لهــذا الرجــل الذي هو في بداية خبرته في سوق السمسرة أن يكون ناجحاً؟

ولما كان عبد الفتاح.. مغامراً، يلقي بنفسه كيفما اتفق، رغــم تربيتــه الحذرة التي تلقاها على يدي والده، قال لحامد: توكلنا على الله..

مع هذه الجملة تراخت عضلات حامد، وهدأت أعصابه وعاد قلبه يــدق بشكل طبيعي كأنه خرج من امتحان صعب... بعد ذلك أخــذ حامــد.. يبحــث ويستقصي أخبار المتعهد الذي يتعامل معه، دفعه الفضول إلى جمع المعلومات عنه. كان يريد أن يعرف مع أي صنف من الرجال يتعامــل. فتجمعــت لديــه

بعض المعلومات، صحيح أنها كانت قليلة وشحيحة ولكنها كافية حتى يعــرف صنف الرجال الذي جُبل منه عبد الفتاح.. عرف عنه: أنه ثعلب، ولكنه يحمل قلب أسد، قالوا له: لو تعاطى السياسة لكان أحد رجالاتها البارزين، لكنـــه لا يحب السياسة.كان عبد الفتاح..يقول عن نفسه هكذا خلقني الله، فأنا أفضـــل سماع حديث شجي على عشرات الكتب والخطب السياسية!

قالوا عنه: غامض! لا أحد يعرف أصدقاءه برغم أنه يبدو للوهلة الأولى للذين عرفوه، بعكس هذا تماماً. قالوا عنه أيضاً: يحب النساء، لا بل يمــوت فيهن.. وعندما تعجبه واحدة يحاول أن يحصل عليها حتى لو كلفه ذلك أمواله كلها،أو حتى حياته..

أما عن ثروته الطائلة التي لا تقدر فقالوا: عمرها أقل من عشر سنوات. أما بداياته فلا أحد لديه المعلومات الكافية عن ذلك. إنما الأمر الــذي يشــاع عنه، أنه بإيحاء من صديق له يعمل في البلدية، اشترى قســماً كبيــراً مــن الأراضي الزراعية الرخيصة الثمن، تبعد عن حدود العمران، ثم قام بالتعــاون (طبعاً، كل شيء بتمنه كما يقال) بإدخال تلك الأراضي في الحــدود المقــررة للعمران والتوسع في المستقبل.. وعلى ذمة الرواة، إن هذا المشروع الــذي قام به لم يكلفه إلا بضعة آلاف من الليرات.. أما حامد الذي أصــبح صــاحب مكتب عقاري، فقد ظهرت مواهبه في هذا المجال، مما أسعد ذلك عبد الفتاح.. فلم تمر سنة حتى كان حامد.. قد باع نصف البيوت التي بناها المتعهد لعمــال وموظفين اقترضوا أموالاً من البنك العقاري، أو دفعوا نصف المبلغ، والبــاقي أقساط شهرية..

وهكذا ازدهرت أحواله، وتراكم المال بين يديه، فأخذ ينفق على نفســه وزوجه وأولاده، وفي السنة التالية، اشترى بيتاً من المتعهد عبــد الفتــاح.. بسعر التكلفة تقريباً.. أما عندما نام ليلته الأولى في البيت الجديد فقد تنهــدت

زوجه فاطمة وقالت: الله! أحقاً يمكن أن نسمي تلك الزريبة التي سكناها أكثر من خمس سنوات بيتاً؟

نهرها حامد.. قائلاً: لا تتكبري على نعمة الله..

ردت فاطمة: قول الحقيقة لا يعني التكبر على نعم الله عز وجل.

وهنا اختفى وجه زوجه فاطمة في عتمة الليل التـــي تغطـــي الواجهـــة الزجاجية أمامه، بينما الأصوات ترتفع من حوله حيناً، وتنخفض حينـــاً وفـــي حين ثالث كانت تختفي تماماً ليحل الصمت المطبق..

ومع عودة الأصوات وانفجار القهقهات شعر حامد.. بصداع فطلب مـــن النادل أبو أحمد.. أن يأتيه بليمونة و...

الليمون والسكين

لم تمض دقائق حتى كانت الليمونة وسكين خاصة بالتقشير على صـــحن زجاجي يبرق لنظافته توضعان أمامه والنادل يقول له: تفضل..

تناول حامد.. الليمونة بيد وأخذ يقشرها بيده الأخرى بهـــدوء ورويـــة وهو ينظر إلى قشرتها الصفراء الشاحبة، التي أخذت تستطيل على حد السكين حتى أصبحت في النهاية أشبه بأفعى في طولها وتكورها على حلقات بعضـــها فوق بعض.. ومن بين حلقاتها راح وجه مصطفى وهو أحد الأصدقاء الـــذين يعملون معه في الوظيفة يظهر له برفقة شاب.

كان الشاب قصير القامة، نحيل الجسد، ذا وجه شاحب، حاد التقـــاطيع، بعينين غامضتين كأنه ينطوي في نفسه على أمر ما!

اضطربت أعماق حامد.. وهو ينظر إلى عيني الشاب الغـــريبتين غيـــر المريحتين، ثم قال لنفسه: من يملك هاتين العينين لا يمكن أن يكـــون خـــالي النفس والقلب.. وبرغم شعوره هذا ونفوره من الشاب بشـــكل عـــام، أحـــس بإشفاق تجاهه، هز رأسه بعد أن كان قد طلب منهما أن يستريحا، ثم قال لهما

بعد أن قدم لهما كوبين من الشاي: نعم.. أنا تحت أمرك يا أبو النور..

ابتسم الصديق وقال: العفو يا أبو عدنان..

ثم تابع: لقد جئتك في موضوع أرجو أن لا تردني خائباً؟

قال حامد: تفضل، إن كان باستطاعتي فلن أبخل عليك؟

قال الصديق: الله يزيد فضلك. جئتك من أجل بيت لابن عم لي.. والتفت إلى الشاب الجامد الوجه والغامض العينين وتابع: أريد أن تساعده على شراء بيت له..

ثم أخذ الصديق يشرح له وضع الشاب: لقد سُرح من الجيش بعد أن أعفته اللجنة الطبية من خدمته الإلزامية، وذلك بسبب إصابته في أحد الكمائن منذ ستة شهور، أصبح غير صالح للخدمة، فأعطوه تعويضاً عن ذلك مع راتب تقاعدي يتناسب والعجز الذي أصيب به.. وهو اليوم يعمل عامل «كهربجي» في شركة الأعمال الإنشائية..

سأله حامد: كم معه؟

أجابه الصديق: عشرة آلاف..

لوى حامد فمه بامتعاض، وقبل أن يفتح فمه ويتكلم. قال الصديق: أعرف أن المبلغ قليل.. ولهذا الأمر جئتك قاصداً، وأنا أقول لنفسي، لن يحل المشكلة سوى صديقك أبو عدنان.. فأرجو أن لا تردني خائباً، لأن الشخص علاوة على أنه ابن عمي فهو..

قاطعه حامد.. وقال: فهمت.. ما تريد قوله..

ثم ارتد إلى الوراء وقال يؤكد له: كما تقول، إن المبلغ قليل.. قليل جداً. ولكن سأسعى من أجل أن أؤمن له بيتاً بشروط مقبولة، ولكن على شرط..

ولم يدع حامد صديقه يسأله عن الشرط، فتابع: أن يعمل ابن عمك بنصائحي، لذا أرجو أن يأتيني بعد أسبوع..

وجد حامد على وجه صديقه مصطفى تعبيراً عن الخيبة كأنه يقول لــه: أسبوع.. إنها مدة طويلة من الزمن. لذا تابع حامد: خير.. ليكن بعد يومين.. نعم، مر علي بعد يومين..

تم الاتفاق الأولي على أن يدفع الشاب الآلاف العشرة كـ «سـلفة» ثـم باقي الآلاف الثلاثين على أقساط لمدة أربعين شهراً.واليوم وحامد فـي هـذه اللحظة التي يرتشف فيها «العرق» من الكأس الأولى مـن البطحـة الثالثـة، ويضع شطيرة رقيقة من الليمون في فمه، يعود إلى تساؤله من جديـد عـن الشاب: من كان يعلم أن هذا الأجدب يملك زوجة مثل زينب؟.

زينب! كان الاسم في تلك اللحظة يسكره أكثر بكثير من كؤوس «العرق» التي ارتشفها، كان اسمها العذب يلقي الهناءة في نفسه، ويثلج صدره، ويدفئ له قلبه الذي عاد إلى شبابه ثانية!

زينب!.. ومر أمامه طيف امرأة طويلة، نحيلة، ناهدة الصـدر، مـدورة الردفين.

زينب!.. وينسكب عصير مر من شطائر الليمون فـي فمـه، فيمـتص شفتيه، ويغمض عينيه وهو يحس بحرقة حريفة في صدره. متى ستعود زينب إليه؟

ويجيب: في الغد.. لم يبق أمامك إلا بقايا هذه الليلة من الساعات! لقـد اكتفى عبد الفتاح.. منها.

واهتز حامد.. انتشاءً وهو يضم فخذيه، ويشد بعضهما إلى بعض بقوة، كأنه بذلك يريد سحق زينب، ليسمع منها تأوهاً أو احتجاجـاً مغناجـاً علـى ضغطه القاسي..

وفجأة، ومن بين الدخان المنعقد فوق رأسه، وفي جو الخمـارة، وبـين ضحك الزبائن وقهقهاتهم، ورد النُدّل عليهم، أن نعم.. سآتي.. كانـت زينـب

ملكة، أميرة، حورية تخطو باتجاهه عارية بشعر أسود طويل، نحيلة القــد.. رآها، أو هكذا خيِّل له، تمر من أمامه، تلف حوله.. ويمد يده إليها، يريــد أن يمسك بها.. ولكن يد عبد الفتاح.. تمتد بكل هــدوء وثقــة، تنتزعهــا منــه، وصاحبها يقول له: مازالت لي هذه الليلة.. أما في الصباح، صباح يــوم غــد فقد تعود إليك..! ويدير حامد.. نظره عن عيني عبد الفتاح.. إلى عيني زينب فيجد فيهما التوسل والضراعة لأن ينقذها.. فيتحرك شيء في نفسه، شــيء أشبه بفروسية أيام زمان، أيام النخوة والمروءة التي كان يتصف بهمــا ذات يوم..

شعر حامد.. بنار تنسكب في جوفه، وتتسلل صرخة كسيخ النــار إلــى أذنيه، فيقف فجأة ويصرخ ملبياً دعوة زينب.. إنه آت إليها.. وبحركــة مــن يديه يقلب الطاولة، محطماً الكؤوس والزجاجات والصحون، يقف على قدميــه وهو يترنح من آثار الخمرة التي كانت قد لعبت برأسه تماماً.

لف الخمارة الصمت لدقائق، فانتبه.. حامد لذلك. شعر بالخجل مما قــام به فاطرق ثم عاد وجلس بحركة غير متزنة على كرسيه وهو يدير وجهه إلى الواجهة الزجاجية المطلة على القسم الشتوي المهجور، ما لبــث أن صــرخ على النادل أبو أحمد الذي هرع إليه بين صمت الزبائن وتحــديقهم إلــى مــا جرى، ونظرات صاحب الخمارة الحيادية! «فحنا» يعرف أن حامداً سيدفع لــه ثمن ما تكسر من صحون وكؤوس حتى آخر قرش وزيادة، ويعرف الزبــائن أن حامداً سيجلس ثانية وهو ينظر إليهم بنظرات تنم عن الاعتذار ويقول: أنا آسف يا شباب.. لقد أخذتني الحالة! آسف جداً..

كان النادل أبو أحمد.. الذي وقف أمام حامد.. رهــن إشــارته، يعــرف أيضاً، أن حامداً سيطلب منه أن يعيد ترتيب الطاولة من جديد يعرف تماماً أن حامداً لن يذوق من الأكل لقمة، أو يتناول من السلطة ملعقة، وكــان يعــرف

أيضاً أن حامداً لن يتناول إلاّ كأساً واحداً من البطحة الرابعة، وكان أبو أحمد.. يعرف جيداً، أنه سيرتشف الكأس بهدوء و تبلد تامين.. وفي الساعة الواحدة كان أبو أحمد.. يعرف أن حامداً سيقوم ليدفع الحساب وفوقه البخشيش، ثـــم يذهب إلى «حنا» يعتذر منه وهو يدفع ثمن ما كسره من صحون وكــؤوس، وكل واحد منهما ينظر إلى الآخر بتسامح، كأنه يقول له: ليس عيباً ما حدث.. ويضيف أحدهما للآخر: وما حدث يحدث كثيراً للرجال من أمثالنا.. ثم يلتفــت حامد.. مرة أخرى إلى الزبائن الذين أحنوا رؤوسهم له، يودعونه، حتـــى أن بعضاً منهم يقف مترنحاً وهو يلوح بيده مودعاً... . ويخــرج حامــد.. مــن الخمارة وهو يضع بُضع ليرات في يد الشيخ القابع على الباب يستقبل القــادم بانحناءة من رأسه، ويودع الذاهب أيضاً بالانحناءة نفسها..

الكتاب الثاني -1

عودة الأولاد

منذ الصباح وشيء ما يدور في نفس فاطمة، تحاول أن تعرف ما هــو؟ ما معنى كلام زينب؟ على ماذا تدل تصرفاتها؟ لقد حاولت أكثر مــن مــرة أن تهمل الأمر، كانت تقوم لتشغل نفسها بأعمال البيت حتى تنســى الموضــوع برمته. ولكنها ما أن تجلس لترتاح قليلاً من عناء التعب حتى تعود تلك الأفكار والتساؤلات تزحف ثانية إلى رأسها لتشغل تفكيرها بالكامل..

واليوم ها هو الأمر يعود من جديد ويطرح نفسه بقوة عليهــا.. قامــت ثانية تلف وتدور في داخل البيت وهي تعيد ترتيب ما كانت قــد رتبتــه مــرة أخرى، تغير وضع الأثاث وأماكنه، فمرة تدفع بهذه الكنبة إلى جدار الذي فيه النافذة الكبيرة، وأخرى تجرها إلى الحائط القريب من الباب، ثم تــذهب إلــى المطبخ لتعيد الكرة في تنظيف الخزائن وزجاجها.. ولكنها، وفي هذا الصباح، رغم قيامها بكل ما قامت به لم تستطع إبعاد كلام زينب عن عقلها!

فجأة وقع نظرها على الساعة، كانت تشير إلى الحادية عشــرة والربــع، قفزت من مكانها كأن عقرباً قد لدغها وهي تلعن زينب! فقــد نســيت بســببها تجهيز طعام الغداء للأولاد.. ولن تمر ربع ساعة حتى يعودوا مــن مدارســهم واحداً بعد الآخر إلى البيت.. لذا عضت شفتها السفلى بقسوة ولعنت زينب مرة أخرى في سرها، ثم هرعت إلى المطبخ لتباشر بتحضير الطعام وهــي تحــادث نفسها: ها أنت تظهرين على أنك امرأة لا تثق بنفسها، لأن امرأة مثــل زينــب

يمكن لها أن تشغلك أياماً بطولها فتنسيك حتى تحضير طعام الغداء للأولاد!

ثم تردف: وها أنت منذ الصباح دائخة ولا تحسنين التصرف!! لقد نسيت أن لا طعام لديك منذ ليلة أمس، فبعد زيارة أولاد عم حامد لك لم يبــق لــديك لقمة من الأكل، فقد لحسوا البيت لحساً كما يقولون، ولم يتركــوا شــيئاً مــن الطعام.. تركوا البرّاد فارغاً، حتى إنك قلت مازحة لزوج عم حامد، من ينظــر إلى داخل البرّاد سيظن أن جراداً قد حل به!

وضحك الجميع..

نظرت فاطمة إلى الساعة كانت تقترب من الحادية عشــرة والأربعــين دقيقة، ولن تمر دقائق عشرة حتى يبدأ الأولاد بقرع الباب. سيأتون واحداً بعد الآخر بحيث يكون الخمسة في الساعة الثانية عشرة والربع في البيت..

سيأتي القرد، عدنان، أولاً، لأنه أسرعهم، ثم إن مدرسته أقرب من بقية مدارس الأولاد.

ظلت دائخة لا تحسن التصرف، لا تعرف أن عليها في مثل هذا الوضع، الهروع إلى المطبخ والابتداء في تحضير الطعام. ظلت واقفة في وسط الصالة واضعة راحة يدها اليسر على اليمنى.. ولكنها انتفضت في وقفتها وانــدفعت بطريقة هوجاء إلى المطبخ.. ثم ما لبثت أن عادت تدور حول نفســها وهــي تلعن زينب التي شغلتها منذ الصباح عن تحضير طعام الغداء..

عندما قرع الباب بإلحاح قفزت فاطمة من مكانهــا متوجســة، خائفــة، صارخة، أيّوا.. أيّوا.. حاضر. ثم تابعت بصوت خافت: ابن الكلب ما دهاك؟

عادت لترفع صوتها من جديد: حاضر. قلت حاضر..

وفتحت الباب بحركة مضطربة كأنها ستستقبل نبأ سيئاً!

اندفع عدنان، وهو في الثانية عشرة إلى الداخل دفعة واحــدة، يصــرخ معاتباً: ما بك.. هل يلزمني يوم كامل لأدق الباب حتى تفتحيه لي؟

كان خلال كلامه قد ألقى حقيبته كعادته فاستقرت فوق الكنبــة، وتوجــه إلى المرحاض، فدخله بحركة عاصفة، ثم أخذ يصرخ من وراء الباب المغلــق هاتفاً، إن كانت قد جهزت الطعام فهو جائع.. وإنه لم يذق الأكل منذ الصباح، وتابع: جوعان والله العظيم جوعان..

ثم قاطع أمه، رغم أنهــا لــم تنــبس بكلمـــة بعــد: لا تحــدثيني عــن الصندويشات.. لقد أكلت واحدة فقط، بينما أكل شــاكر ومصــطفى البقيــة.. ويتابع: لا تسأليني لماذا؟ ويعاود الصراخ وهو يعصر بطنه لإخراج الفضــلات منها قائلاً: ماما.. يقول شاكر ومصطفى عن طعامنا إنه طيب. ويقــول عنــك إنك طباخة ماهرة.. ويضج بالضحك رغم أنه كان ما يزال يعصر بطنه: ماما.. لماذا طعامهم غير طيب؟

هدأ صوته وزايله الاحتقان بعد أن خرج من المرحاض وهو مستمر في حديثه: ماما..؟ جوعان..

ويُقرع الباب ثانية، فيكون محمود في الباب هذه المرة، وهو في العاشرة من العمر، ثم يأتي أحمد، وما تلبث أن تأتي وداد وعائشة مترافقتين..

وجدت فاطمة نفسها محاصرة بالأولاد العائدين من المــدارس، تســللوا الواحد بعد الآخر إلى المطبخ ينظرون إلى أمهم، حيث كانت تحضّر لهم طعاماً سريعاً، لأنها لم تستطع أن تجهز طعام الغداء لكل هذه الجراء، لم يعد لــديها الوقت الكافي.. لذا مدت لحماً نيئاً على «صينية» لتضعها في الفرن مدة دقائق لا غير كإجراء سريع تسكت به جوعهم، ثم تذهب لتفكر بالطعام الذي عليهــا أن تجهزه قبل مجيء زوجها حامد..

تصاعد صوت عدنان وهو يهتف بها: ماما، ماذا بك لا تردين، لقد سألتك كذا سؤالاً ولم تجيبي عن أي واحد منها؟

غضبت فاطمة منه وقالت له: يا بن الـــ... ألا ترى أنني أجهز لكم طعام

الغداء؟ وعندما التفتت إليه مهددة، هرب إلى أخته عائشة وسرق ضاحكاً عن رأسها شريطتها البيضاء العريضة.. فزعقت عائشة وبدأ الشجار بينهما..

اشتد غضب فاطمة وقالت في نفسها: أولاد الكلب لن يلهيهم عن العبث والصراخ سوى الأكل، لأنهم كالجراء الجائعة، لن يكفوا عن الركض والقفز إن لم نلق إليهم ببعض الطعام.. وهذا ما قامت به، ثم انسحبت إلى الصالة تاركة إياهم وراءها في المطبخ يأكلون، وهي تعاود التفكير بما قالته زينب لها.. ولكنها لم تصل إلى نتيجة محددة، فظلت تفكر وتفكر حتى مجيء الليل.

أمام التلفاز

بعد أن ينام الأولاد ويذهب زوجها إلى سهرته اليومية، كانت فاطمة تشرد بذهنها عن التفكير بزينب، فتذهب بخيالها بعيداً، تستعيد ذكريات معينة من مراحل حياتها، تقف عند بعض منها، وتعبر إلى أخرى دون تلكؤ أمام تفاصيلها.. تسرح في عالم طفولتها، تلك الطفولة التي لم تعد تتذكر منها الشيء الكثير.. وإن تذكرت بعضاً منها، فإنها تعبر ذاكرتها كخيالات وأطياف، فينبع الحنين في ذاتها ويتدفق إلى صدرها ليستقر في القلب فتحس بحرارة الماضي الذي أصبح بعيداً. كانت توّد في تلك اللحظات لو مدت يدها وأمسكت بتلك اللحظات الهاربة، وشدتها إلى صدرها، تطلب منها أن تبقى بين الحنايا، لا تغادر القلب وطياته الخافقة.. ولكنها ما أن تفتح عينيها حتى تجد نفسها أمام التلفاز فترى وجوهاً وحيوانات وأشجاراً وعالماً مؤلفاً من الصور مثل العالم الذي كانت تعيش فيه قبل لحظات في ذكرياتها.

كانت تتحسر وتقول لو عدت صغيرة، من أجل أن أركض في أزقة القرية الطينية، أركض وراء هذا الحيوان وذاك الطير، أو.. ولكن فاطمة تقطع خيالاتها وتعود إلى الواقع لتعيش فيه، تلامسه بأصابعها العشرة، فها هي في بيت دافئ في الشتاء، وبارد منعش بفعل المكيف في الصيف، بيتها المؤلف

من أربع غرف وصالة، جميعهـا ممتلئــة بالأســرة والخــزائن والكراســي والمفروشات والسجاجيد والستائر.. بيت تحسدها عليه النسوة اللواتي يزرنها بين حين وآخر. بيتها الذي يثار فيه الصخب من خمسة أولاد، ثلاثة صـبيان وابنتين، وزوج يعمل بجد من أجل أن لا ترى الفقر المتمثل بـالبرد والجـوع والمرض والثياب المهلهلة التي إن نسل منها خيط تساقطت منهـا عشـرات الرقع.. بيت لا يعرف الفقر منذ سنوات، ولم يبق فيه من الفقـر إلا ذكريـات محزنة لا تسر الخاطر.

وتفكر فاطمة بأيام استقالة زوجها حامد من الوظيفة، تتذكر رعبها الذي أعقب استقالته، خوفها من أن ينفد التعويض المالي الذي حصل عليـه كمـا ينفد الماء من الغربال. ظلت خائفة حتى بعد أن اشترى زوجهـا ــ المكتـب العقاري ــ من أن لا يقدر على أن يكون «شاطراً» في عمله الجديد فيفلس ثم يغلق المكتب..

أمام التلفاز كانت تتذكر، كانت تخاف، كانت تحلم، أمـام التلفـاز كانـت ترتاح وتطمئن إلى الأيام القادمة وهي تشاهد البرامج بكسل، ثـم مـا يلبـث ذهنها أن يشرد ثانية إلى زينب فتتأمل قامتها، عينيها، شعرها. تسأل نفسها، هل هي وقحة أم تعتبر نفسها واحدة من أهل البيت؟.. صحيح هـي جارتهـا، تقطنان في مبنى واحد..

مرة أخرى تكف فاطمة عن التفكير بزينب، مرة أخـرى تهـرب منهـا، وتحاول أن تتذكر يوم عاد زوجها حامد إلى القرية، في ذلك اليوم لـم يكـن متزوجاً منها... صحيح أنه خرج من القرية قبل سنوات، ولكنه عندما تحـدث إليها شعرت بلكنة قروية في حديثه..

يوم جاء إلى القرية من أجل أن يخطبها لنفسه، مر بها ولم يعرفها! لـو أنها لم تنادهِ لما عرفها.. وقف حامد، في ذلك اليوم البعيد، وقف ملتفتاً إليهـا

وسأل: نعم يا أخت؟ ولكنه ما لبث أن شهق بعد أن أمعن نظره فيهـــا، شـــهق وغطى وجهه بيديه وهو لا يصدق: من؟ أنت!.ثم ضحك وقال شاتماً كعادتـــه: يلعن أبوكِ! أبهذه السرعة شببت ونضجت؟ أنا الذي ظننت أني لن أرى أمامي بعد هذه السنوات سوى فاطمة العجفاء المحمرة الأنف الممسوحة الصدر..

ويضحك منها ويتابع: أيعقل أن تكوني أنت فاطمة التي كنـــت أخـــوض معها في ماء النهر دون أن..

ويقطع على نفسه الكلام، ثم يتابع في اتجاه آخر: كم كانت أمي على حق عندما كانت تقول، يا بني البنت مثـــل الفطـــر لا تراهـــا إلا وقـــد اســـتطالت واستنهضت مثل..

أمام التلفاز تلوي فاطمة رأسها باتجاه النافذة المملوءة بالليل الممـــزق بأضواء مصابيح الشارع وهي تبتسم بأسى: يا الله.. كم مـــن الأيـــام مـــرت؟ وتردف: نعم.. جاء سريعاً، خطبني، وفي عودته إلى حلب قال لي: سأعود بعد أسبوع لآخذك معي.. فقد اشتريت قطعة ارض واتفقت مع حجار ليبنـــي لنـــا غرفة ومطبخاً.. هذه ستكون البداية يا فاطمة، أما فيما بعد فســـنبني الســـور حول البيت ثم نبني غرفة أخرى، ثم نمد الماء والكهرباء إليه..

ويطرق حامد وهو ما بين أسيان وفرح ويقول: لن يمر وقت حتى تكون أمورنا على أحسن حال..

يرفع رأسه ويسأل فاطمة: ما رأيكِ؟

أجابته في ذلك اليوم البعيد: الرأي رأيك. ثم أردفت وهي تطرق: لا تتعب نفسك..

ضحك حامد وأجابها: إن لم أتعب الآن وأنا شاب، فمتى أتعب؟ أعنـــدما أشيخ؟ ويتابع مبتسماً: عندما أشيخ لن تساوي عظامي قرشاً واحداً! فأنا اليوم حريص على أن تكون لعظامي، عندما أشيخ قيمة تساوي المال الذي أملكه!

في ذلك اليوم لم تحبذ فاطمة أقوال حامد، في ذلك اليوم البعيد كانت تظن

بان الأمور ستكون حسنة وممكنة العيش حتى من دون المال، لأنها في القرية لم تشعر في يوم من الأيام بأن والديها بحاجة إلى المال..

أمام التلفاز تتذكر فاطمة يوم رحلتها مع زوجها حامـــد الموظـــف فـــي المدينة، تتذكر كلام زوجها وهما في طريقهما إلى حلب: المرء في المدينة لا يساوي إلا مقدار ما يملك!

وفجأة.. نعم فجأة تساءلت فاطمة: لماذا تذكرت كل هذا وهي التي كانت مشغولة الفكر بزينب؟ لماذا شرّقت وغرّبت في ذكرياتها؟ وما الغاية مـــن أن تتذكر هذا أمام التلفاز وهي تتابع المسلسل اليومي حتى أنها في نهاية الحلقة لم تفهم من أحداثها شيئاً فقامت غاضبة وهي تلعن زينب التي دفعتهـــا إلـــى الشرود من جديد هذه الليلة!

المدينـة

تخيلت فاطمة المدينة، مثلها مثل بقية فتيات القرية، حلماً ومرتجى. لـــم تكن تعرف من المدينة إلا الجانب النظيف، الجميل منها! أما عنـــدما أخـــذها زوجها حامد معه إلى حلب، وتم اللقاء بينهما، فقد ارتدت إلى الـــوراء كمـــن صُفع بقوة على وجهه.. ولكنها، برغم هذا، ظلت تنظر إلى ما يحيط بها مـــن نظرات غريبة! ثم ما لبث الخوف أن تسلل إلى نفسها رويداً رويداً..

كانت تخاف السيارات، تخاف الشوارع العريضة التي لا يمكن للإنســـان أن يعبرها إلا عبر ممرات مرسومة على الإسفلت، وبإيعاز من إشارات المرور الخضر القائمة في كل منعطف من منعطفات الشوارع، ورغم الأمـــان الـــذي كانت تمثله تلك الإشارات للمارة، فقد كانت فاطمة تخـــاف عبـــور الشـــوارع وحدها! وهي اليوم تتذكر تماماً، أنها لم تعبر أي شارع إلا برفقـــة زوجهـــا! كانت تخاف العمارات العالية! تخاف شرفاتها التي لا تفصـــلها عـــن المبـــاني الشاهقة تلك سوى قضبان حديدية، كانت تتساءل وهي تنظر إلى الشـــرفات:

ماذا لو أن القضبان هذه انخلعت من أماكنها؟ كانت، وهـــي برفقـــة زوجهـــا، تتلفت بخوف وتتساءل: من أين يأتي كل هؤلاء النـــاس؟ فالشـــوارع مليئـــة بالنساء والرجال والشباب والأطفال! وأيضاً الشيوخ والعجائز! من أين يتدفق هذا العدد الكبير من البشر؟

وذات يوم جمعة، وكان الوقت صباحاً، سألت زوجها: كيف يمكنك أن تـــذهب إلى عملك وتعود منه؟ ألا تخاف من أن تضيع! أقصد أن تخطئ الطريق إلى البيت.

ضحك حامد حتى دمعت عيناه. ثم أجابها مازحاً: طبعاً.. لـــو أننـــي لـــم أستأجر شخصاً من المدينة يرافقني كل يوم إلى مقر عملي ويعيدني منه، لمـــا عرفت الطرق في ذهابي إلى العمل وإيابي إلى البيت! وهنا ارتسم الذعر فـــي عيني فاطمة فسألت، ولكن لنفرض أن الرجل بعد أن أوصلك إلى مقر عملـــك، لنفرض أنه مرض فجأة، أو وقع له حادث ما، أو مشكلة فلم يستطع أن يـــأتي إليك.. فماذا ستفعل من أجل عودتك إلى البيت؟

لوى حامد عنقه وأجاب عن سؤالها وهو يتصنع الخيبة: لقد حدث معي مثل هذا الأمر أكثر من مرة فاضطررت إلى النوم في مقر عملي حتى صباح اليوم التالي!

كان ذعر فاطمة قد اشتد فقالت له: يعني أن الأمر هذا قد يحدث الآن أيضاً؟

أجابها حامد وهو يدير وجهه عنها مبتسماً بسخرية: نعم.. قد يحـــدث! صرخت فاطمة والخوف يأكل من عينيها: ولكن.. ماذا سأفعل أنا إن حدث هذا الأمر؟ ثم أردفت: سأموت إن جاء الليل ولم تأت أنت إلى البيت! سأجن، حتماً سيلتم كل الجان وإخوانهم الشياطين حولي.. سأموت..

وتضحك اليوم فاطمة وهي جالسة أمام التلفزيون، ساخرة مـــن خوفهـــا هذا الذي كان في أيامها الأولى في المدينة.. فتلقي برأسها إلى الوراء كلمـــا تذكرت هذه الأوهام وهي تسأل: كم كنت جاهلة! كم كنت حمقاء! ثـــم تتـــأوه وهي تسخر من سخف تفكيرها وخوفها من المدينة، هذا من جهة، ومن جهة

أخرى، عرفت أن الحياة في المدينة ليست بأفضل منها في القرية، حتى إنها، في لحظة من لحظات خيبتها اليائسة، طلبت من زوجها أن يعـود بهـا إلـى القرية قائلة: على الأقل.. سنشبع هناك من اللبن والبيض والحليب... أما هنا فنحن نموت من الخوف وأيضاً نكاد نموت من قلة الشـبع.. أجابهـا حامـد: طولي بالك يا فاطمة. ما هي إلا شهور حتى تتحسن أحوالنا..

ولكن الأحوال لم تتحسن، إنما العكس قد حدث. فقد ساءت بهمـا أمـور المعيشة أكثر فأكثر، ولا سيما عندما ولدت ابنهما البكر «عدنان» أما عنـدما ولدت الثاني مصطفى فقد كانت أحوالهما قد ساءت إلى أبعد حدود...

كان الغلاء مستمراً في ارتفاعه، ومصاريف الحياة لها أول وليس لهـا آخر.. لذا كانت تذهب إلى بيت أهلها في القرية لتوفر تكاليف المعيشـة فـي الصيف، وتجلب مؤونة البيت الشتوية.

كانت تنظر بحزن إلى زوجها المرهق المتعب الذي يعمل ليل نهـار دون توقف، من الصباح حتى بعد الظهر في الوظيفة، وبعد الظهـر إلـى سـاعة متأخرة من الليل، في مصنع للحلويات. أما عندما يبدأ الليل وتخـيم الظلمـة فتعيش الرعب بكل أشكاله وألوانه وأبعاده..

كانت تغلق الباب على نفسها وتحكم رتاج النافذة. كان جل ما تخافه هو النافذة، لأنها كانت تتساءل: ماذا لو كسر أحدهم زجاجها وتسلل عبرها إليها؟

كان حامد يشجعها ويقول: يا فاطمة، ما هذه الأفكار السود التي تدور في رأسك؟ أيّ حرامي سيخاطر ويأتي إلى هذه البرية التي نقطن ليسـرقنا؟ ثـم يردف: إن الحرامية في المدينة لا يأتون إلى بيت ما من بيوتنا هـذه، إنهـم يعرفون، أننا لو كنا نملك من الدنيا أشياء تستحق السرقة لما سكنا في هـذه البرية؟ فكفاك قلقاً وخوفاً لا طعم له!

كانت فاطمة تهدأ بعد كلام زوجها يوماً أو اثنين، ثم ما تلبث الأمـور أن

تعود إلى اضطرابها في نفسها من جديد. وتعود إلى تساؤلاتها: ماذا لو جـاء الجن أو.. بسم الله الرحمن الرحيم، أناس من الذين يقطنون تحت الأرض؟

وتلتفت حولها، تنظر من النافذة المغلقة بإحكام، ثم إلى الباب المغلق بارتياح، ثم تنقل نظرها إلى السقف، أيمكن أن يتدلى منه أحد ما، جنياً كان أم إنسياً؟

وتتذكر فاطمة الرجل الذي تدلى، في القرية، من سـقف عبـد الجـواد وجلس مع زوجته زليخة فأكل وشرب، ثم حمد ربه قبل أن تتنبه زليخة إليه..

غريب! قالت زليخة وهي تنظر إلى الرجل الذي كان يشبه زوجها أشـد الشبه، فسألته: عبد الجواد متى عدت؟ لم أرك لحظة دخولك! لم ينظر إليهـا الرجل. كان ظهره إليها.. ولم ينبس بكلمة. سألته: عبد الجواد، لم تقـل لـي متى عدت؟ كيف دخلت إلى البيت؟

ظل الرجل صامتاً مديراً ظهره لها.. وهنا شعرت زليخة بخوف فسـألت نفسها: لماذا لا يرد علي؟ ومدت يدها إليه محاولة أن تلكزه فحطت يدها على فراغ حيث كان يجلس.. اختفى الرجل!

اقشعر بدن زليخة، وما لبثت أن صرخت بأعلى صوتها.. ومنذ ذلك اليوم فقدت عقلها رغم أنها، والشهادة لله، كانت من أذكى النساء، حتى أن بعـض الرجال كانوا يتمنون لو يملكون عقلها.. أما اليوم، فهي تلـف وتـدور فـي القرية، وتطرق أبواب بيوتها وتسأل: أرأيتم عبد الجواد؟ لم يأت حتى اليوم!

كانت فاطمة كلما تتذكر هذه الحكاية ترتعش خوفاً. كان حامد يهـدئ مـن روعها ويقول لها: يا امرأة هنا في المدينة لا يوجد جن وشـياطين أو عفاريـت الزرق، هنا لا يوجد سوى البشر، افهمي، كفاك أوهاماً! ويخرج من البيت غاضباً.

كابوس

لم تنس فاطمة الخوف من الجن والشياطين والعفاريت الذين يمكـن أن ينزلقوا إليها من السقف، أو تتخيل الحرامية وهم يقتحمون عليها البيت وهي

وحيدة في هذا الحي البعيد عن العمران والناس. يهددونها سائلين: أين أخفيت مصوغاتك الذهبية؟ هيا أخرجيها وإلا سنذبحك.. فتبكي بين أيديهم وهي تقسم أن لا ذهب لديها ولا فضة..

وتتخيل فاطمة أيضاً، كيف يهجمون عليها والسكاكين في أيـــديهم يريـــدون ذبحها وهم يصرخون: قلنا لك هيا.. اخرجي مصوغاتك الذهبية، أين أخفيتها؟ ثم يهددونها، إياك أن تصرخي.. لو فعلت ذلك لذبحناك كنعجـــة لا غيـــر.. هـــس.. هس.. هس.. ولا كلمة أو شهقة.. ويضغطون حد السكين على عنقهـــا، هكـــذا تتخيل، بينما يأخذ أحدهم يفتش البيت فيقلبون عاليه سافله.. يمزقون لها اللحاف والفراش والوسائد، ثم يحطمون خزانة الثياب الخشبية الجوزية اللون. ويخرجون محتويات صندوق ملابسها الداخلية.. يلقون بسراويلها وحمالات صـــدرها وهـــم يضحكون وينظرون إليها بعيون جائعة قاسية كأنهم يريدون اغتصابها.. لو حدث هذا، فكرت فاطمة، لتمنت الموت، نعم لتمنت الموت لنفسها، لأنهم ثلاثة رجـــال. وكل واحد منهم يعبث بحاجاتها الخاصة بطريقة ماجنة تختلف عن الآخر، تمنـــت لو تذوب في الأرض كما يذوب الملح في الماء..

واستمرت في التخيّل..

وهكذا بعثروا لها كل شيء في البيت لم يتركوا شيئا إلا وخربـــوه، لـــم يتركوا قطعة من الأثاث إلا وقلبوها.. أما فاطمة فلم تكف في تلك اللحظة عن التفكير بالعار الذي لحقها وهي تعض شفتيها بقوة، وتضغط بأســـنانها حتـــى تسمع صوت تمزق لحم شفتها السفلى، وتشعر بطعم مالح ينسرب إلى فمها.. إنه الدم المالح.. لا يهم، قالت: فقط لو تستطيع أن تلـــم حاجاتهـــا الداخليـــة المكشوفة أمام الرجال الثلاثة، فقط لو تستطيع أن تلتقط سراويلها وقمصـــان نومها، فقط لو تستطيع أن تخفي حاجاتها عن عيون الرجال الثلاثة.. يجب أن تسعى إلى حاجاتها مهما كلفها الأمر.. حتى لو ذبحوها.. لا يهم.. المهـــم أن

تخفيها عن أعين الحرامية الثلاثة..

عندما سعت إلى فعل ذلك، هكذا تخيلت فاطمة، شعرت بيد قاسـية خشـنة تقبض على نقرتها وتشدها إلى الخلف، وسؤال كمطرقة يدق أذنيها، إلـى أيـن؟ وتسمع آخر يقول لصاحبه، دعها لقد أصـبحت امـرأة عاقلـة، سـتخرج لنـا مصوغاتها الذهبية من المكان الذي خبأتها فيه.. دعها.. تراخت الأصابع الخشنة عن رقبتها، ولكنها لم تتركها، إنما سمعت صاحب الأصابع يـرد علـى الآخـر: ولكنها قد تصرخ لتلم الناس علينا. قال الثالث: لا.. لا.. إنها امرأة عاقلة، كما قال عنها أبو أحمد.. دعها، ستخرج لنا مصوغاتها من دون إكراه. تراخت أصابع اليد الخشنة على رقبتها وصاحبها يقول: سأتركها.. ولكن على كفالتكم..

ضحك الاثنان الآخران وقالا: نعم.. على كفالتنا. ثم التفتا إليها وتابعا: لو لم نكفلك لكان الآن يقوم بذبحك.. هيا.. هاتي الذهب الذي في حوزتك..

لم تجبه فاطمة، كانت تزحف على أربع متوجهة إلى حاجاتها الداخليـة، وهي تشعر بانقصاف في قصبات ساقيها، لا تستطيع الوقوف.

جلس أحدهم على الأرض، أما الآخر فكان واقفاً في وسط الغرفة بعد أن فتش البيت كله.. أما الثالث فصرخ بها: هيه.. منذ متـى وأنـت متزوجـة؟ أجابته: منذ خمسة شهور.. ورفعت سروالها الداخلي عن أرض الغرفة..

سألها الثاني: أحقاً ليس لديك ذهب؟

صرخ الثالث: إنها كاذبة.. اذبحها..

ظلت فاطمة تلم حاجاتها بيد مرتجفة من شدة الفزع وعينـين لا تريـان بوضوح، ثم أخذ الثلاثة يضحكون.. لماذا لم تعرف؟ سمعت أحدهم يقول: يجب أن نذهب.. إننا أخطأنا الطريق هذه الليلة..

ويعلو صوت آخر بملاحظة: انظر..

وينظر الثلاثة إلى فاطمة.. كانت مستمرة في جمع حاجاتهـا الداخليـة،

يعلو صوت أحدهم: ما رأيكم؟

ويتابع: علينا أن لا نرحل خاوي الأيدي..

يجيب أحدهم: معك حق.. ثم يردف: فأنا منذ شهر لم أقرب امرأة..

صرخ أحدهم وعوى: أنسيتم أن الفجر يكاد ينبثق.. وقد يأتي زوجها في أية لحظة..

يجيب أحدهم: نعرف. ولكن علينا أن لا نخرج من المولد بلا حمص..

كانت فاطمة تجمع حاجاتها الداخلية، وتضعها في الصندوق الذي نسيت أن تغلقه، عندما سمعت بأنهم يودون أن...

التفتت إليهم بشراسة، واستعدت للدفاع عن شرفها حتى الموت.. أتاهـا صوت من بعيد، صوت ينادي: ماما.. ماما.. صوت لا تعرف من أين يأتيهـا. ولكنه يقترب منها، ثم بيد تمسك كتفها، ماما..

وتنتفض فاطمة بذعر.. ماذا؟

تجد أمام وجهها ابنها مصطفى وهو يفرك براحة يده الصغيرة عينيـه، ماما.. ماما.. أريد أن أشرب..

استيقظت فاطمة تماماً وقلبها يدق بعنف، فأخذت تبسمل ما بينها وبـين نفسها وهي تلتفت إلى ما حولها.. كل شيء في مكانه والساعة تشـير إلـى الثانية عشرة والنصف ووشيش التلفزيون يعلو في فضاء الغرفة.

كانت البرامج قد انتهت لهذه الليلة، وابنها مصطفى يطلب المـاء منهـا بإلحاح: أريد أن أشرب..

أمسكت بيده وذهبت معه إلى المطبخ، سقته وقالت له: هيا إلى سريرك.. أما هي فظلت واقفة تحاول أن تستعيد تفاصيل الكـابوس الـذي جـثم علـى صدرها منذ حين.. كان صدرها قد خف من اضطرابه فتهالكت على الكرسـي تعبة، أي كابوس هذا؟ أي حرامية.. لقد نسيت أمرهم وأمر الجن والعفاريـت

منذ زمن بعيد، فأي أمر دفع هذا إليها مرة أخرى؟ لقد نسيت أيــام مصــاعب المعيشة والجن والشياطين والعفاريت والحرامية. فقالت: اللهم اجعله خيــراً، اللهم احمنا من عين الحاسدين الأشرار..

النـوم

كان حامد عندما يعود إلى البيت بعد أن يقضي ثماني ساعات في مكــان وظيفته، ثم بعد ذلك ست ساعات في محلات «ممنون» لصنع الحلويات، كــان لا يعرف كيف يلقي بنفسه فوق الفراش وينام دون أن يخلع ثيابه مــن شــدة تعبه، كانت فاطمة تحاول أن تبقيه يقظاً ولو لنصف ساعة، لتقدم له العشــاء، وتخلع عنه الثياب وتعطيه منامته.. كانت خلال هذا الوقت تؤمن لــه الراحــة بقدر المستطاع، ولكن زوجها كان ينهد فوق الفراش، ويغرق في النوم مــن دون هز كما يقول المثل..

ذات ليلة استيقظت فاطمة على رائحة دخان فرأت زوجها جالســاً فــي الفراش، مسنداً رأسه إلى الحائط.. اختلط عليها الأمــر! هــل تــأخرت فــي الاستيقاظ؟ كان من عادتها أن تفيق في الساعة السادســة صــباحاً.. تجهــز الإفطار لزوجها وأطفالها، ثم تعود إلى نومها ثانية بعد ذهابهم، الــزوج إلــى عمله والأطفال إلى مدارسهم...

نظرت إلى النافذة فرأت الليل يملؤها، ليس هناك أثر لضوء الصباح. ولم يحن، على ما يبدو وقت طلوع الفجر بعد..

عادت والتفتت إلى زوجها الجالس في فراشه وهو ينظر أمامــه نظــرة عمياء ويدخن..

دَاخلَ الخوف نفسها، ما به يا ترى؟

رفعت صوتها تسأله: أبو عدنان.. ألم تنم بعد؟

لم يجبها. ظل يدخن بصمت..

نادته: أبو عدنان؟

التفت إليها ونظر إلى وجهها ملياً ثم ما لبث أن قال: تعبان..

وأردف بصوت فيه رنة شكوى: أنا تعبان يا فاطمة.!

أجابته: استلق للنوم، سترتاح..

أجابها: لا أقصد تعب البدن، إنما تعب الرأس والفكر.. فأنا أفكر بـــأحوال معيشتنا وأحوال أولادنا.. وها أنا رغم عملي المتصل ليل نهـــار لا أســـتطيع تأمين لقمة طيبة، هنية لهم..

وزفر زفرة طويلة وهو يتابع بصوت ممطوط: لا أعرف إلى متى ستدوم هذه الحال؟

ردت عليه: إن شاء الله ستنفرج.. فقط عليك أن تطول بالك..

هز رأسه وقال وهو يسحق عقب السيجارة على بلاط الأرض: لقد يئست من تطويل البال وانتظار الفرج! يئست من عمري وحياتي..

شعرت فاطمة بالخوف يعصف في كيانها عندما سمعت ما قاله حامـــد.. حاولت أن تخفف عنه، ولكنها لم تستطع أن تفعل ذلك، شعرت بالعجز تماماً.. ثم، ها هو يندس في الفراش ويقول: يجب أن نخرج مما نحـــن فيـــه.. هـــذه ليست عيشة! ليست... .

واختفت بقية الكلمات مع اختفاء رأسه تحت اللحاف الذي شده مغطياً به كامل جسده..

ظلت فاطمة عاجزة عن الإتيان بأية حركة. كانت ذاهلة ثم ما لبثـــت أن تسللت إلى جانبه وهي تفكر بما قاله حتى ساعة الفجر الأولى...

كان الخوف والقلق قد عقلا لسانها فلم تستطع أن تقول له: دعك من هذا الأمر! لا تفكر بأمور معيشتنا.. الحمد لله حالتنا مستورة لو قارنتها بأحوال الآخرين...

ظلت فاطمة في ذلك اليوم كالملطوشة لا تعرف كيف تتحرك وتتصـــرف، ظلت تدور حول نفسها باضطراب.. وفي ساعة الظهيرة، جلست إلى النافـــذة ونظرت إلى البرية التي تمتد أمامها... ثم شيئاً فشيئاً أخذت تفكـــر بالقريـــة،

تفكر بالحياة فيها.. كم كانت بسيطة ووادعة.. وها هـي الـذكريات تجرفها أمامها، وتسوقها الرغبات، وخاصة رغبة العودة.. نعم، يجب أن تعـود إلـى القرية، يجب أن تفاتح زوجها بأمر عودة أسرتها بالكامل. ستقول له: هنـاك في القرية لا أحد يفكر بطريقة المعيشة التي يفكرون بها، هنا، في المدينـة.. نعم يجب أن تفاتح زوجها بأمر عودتهم إلى القرية..

هدأت فاطمة لقرارها هذا، وفي ذلك اليوم البعيد، عندما فاتحت حامـداً بالأمر، نظر إليها طويلاً، ثم ما لبث أن نهرها بعنف وقسـوة، صـارخاً فـي وجهها، لا تكوني حمقاء! وبعد وقت عاد وصرخ في وجهها كأنـه يتشـاجر معها: لن أعود إلى القرية ولو ميتاً! ثم دار حول نفسه وتابع بصوت صارخ: سأوصي أن أدفن هنا.. وضرب بقدمه الأرض، في المدينة..

خافت فاطمة منه أشد الخوف، وقررت أن لا تفاتحه بالأمر بعـد الآن، فهـو رجل، وعليه أن يتصرف بحياتها وحياة أولادهما كما يريد. فهو المسؤول عنهم.!

وذات يوم تقدم منها وقال: لن أذهب إلى العمل غداً!

نظرت إليه، لم تفهم ما قاله، فسألته بلهجة ممطوطة: ما..ذ..ا..!؟

أجابها: غداً، لن أذهب إلى العمل. لقد قدمت استقالتي، وخـلال أسـبوع سأحصل على براءة الذمة..ثم أسعى من أجل أن أحصل على تأميناتي بسرعة لأفتح مكتباً لبيع العقارات...

كانت فاطمة تنظر إلى زوجها حامد وهي تحاول أن تفهم ما يقوله لهـا، ثم أخذت الصورة تتوضح لها شيئاً فشيئاً..

هذا يعني أن زوجها سيصبح بلا راتب، يعني أنه لن يستطيع الحصـول في نهاية كل شهر على مبلغ معين محدد، اسمه الراتب.. أي لن يسـتطيع أن يجلب إلى البيت الخبز، لن يستطيع شراء الخضار، وبذلك لن يستطيع الأولاد، إتمام دراستهم في المدارس..

هذه الحالة التي وجدت فاطمة نفسها فيها كانـــت مـــن أقســـى لحظـــات حياتها. لقد شعرت بوهن لم تستطع الوقوف فجلست وهي شاحبة، ثم ما لبثت أن شعرت بالدوار، كان دواراً أشبه بدوار المرأة الحامـــل.. ولكنهـــا ليســـت حاملاً، فهي ما زالت تنز دماً من أثر العادة الشـــهرية التـــي عاودتهـــا منـــذ يومين..إنه دوار أشبه.. سألها حامد: ماذا بك؟

لمست في صوته رنة الغضب أكثر من الاستفســـار. كـــان يعلـــم أنهـــا ستغضب، ستبكي، ستقول له: ها نحن الآن سنموت عن «حق وحقيق» مـــن الجوع. سابقاً كان يمكننا أن نستدين على راتبك من الفران والخضرجي، أمـــا اليوم فمن سيعطينا قرشاً واحداً؟

اقترب منها حامد، امسكها من تحت إبطيها ورفعها إلى الأعلـــى وهـــو يقول: قفي على قدميك..قفي..

وقفت وهي تشعر برجفة غير طبيعية في ساقيها. كرجفة القصب تحـــت ضربات الريح العاصفة به. وقفت، قال لها: كوني عاقلة.. يجب أن تقفي إلـــى جانبي وإلى جانب ما سأقوم به، لا تحبطي همتي قبل أن أبدأ. ثم ما لبـــث أن تابع وهو يضحك: سأدعك تلعبين ليس بالمال، وإنما بالذهب.. ولكـــن، فقـــط، عليك أن تنتظري شهراً أو شهرين.. ستلمسين نتائج عملي بعد ذلك..

هدّأ هذا من اضطراب نفسها إلى حد ما. ولكن رجفة الخوف ظلت تعبث في ساقيها.. فتمنت في تلك اللحظة، لو لم يخبرها بتركه العمل، تمنت لو جاء إليها بعد أن تزدهر أعماله، وقال لها: فاطمة.. تعالي إلي، لدي أخبار لك! ثـــم يصمت وهو يبتسم بخبث، ويردف: لقد تركت العمل منذ شـــهرين، وأنـــا الآن صاحب مكتب لبيع العقارات.. وقد كسبت خلال هذين الشهرين مبلغاً يضـــاهي ما أكسبه من الوظيفة سنة كاملة..

ظل حامد ينظر إلى فاطمة، وفي عينيه ضعف وشعور بالذنب، فتنهد ثـــم

دار حول نفسه وخرج.. لقد عجز عن إقناع فاطمة بأن ما قام به خطوة أولى للخروج من الوضع اليائس الذي يعيشون فيه مع الفقر والجوع، لذا لم يعـد يطرح معها أي شيء يتعلق بعمله، رغم أن فاطمة كانت تـرى فـي عينيـه الرغبة في التحدث إليها مرة ثانية، ولكن العناد الذي هو من طبعه، دفعه إلى أن يلتزم الصمت..

وللحقيقة، تقول فاطمة، خلال تركه العمل، ولمدة ستة أشهر لـم يتـرك أفراد أسرته، ولو ليوم واحد بغير طعام، إنما العكس قد حدث، فكـان دائمـاً يترك بين يديها مبالغ، صحيح لم تكن كبيرة، لكنها أيضاً لم تكن صغيرة.. كان ذلك يترك في نفسها الراحة والاطمئنان على مستقبلها ومستقبل أولادها.

ظلت فاطمة رغم ذلك، حذرة، خائفة من أن يأتيها ذات يوم ويقول لهـا: لقد انتهت الأموال – أموال التأمينات – كذا. أخذت تراقب تصرفات زوجها. إن كانت طبيعية أم لا. تتأمل تقاطيع وجهه، تنظر إلى أصابعه ـ في أثناء أكله ـ إن كانت ترتجف أم لا؟ ولم يهنأ لها بال إلا بعد ثلاثة أشهر من عمله..

أخذ نشاطه يمحو خطوط الخوف نفس فاطمة، خاصة عندما كان يـأتي إليها وهو محمل بالفواكه واللحوم والخضار، فما أن يصل إلى البيـت حتـى يضحك ويداعب أطفاله، ثم يحدثها عن كثير من الأشياء قبل أن يتجـرأ مـرة ثانية ويعلن لها عن ظروف عمله الجديد.

وقد قال عن ذلك: إنه مرتاح، عمله هين.. ليس فيه تعقيدات! تصوري، يقول حامد لها، بعت اليوم شقة على المستريح فأخذت نسبة مئوية مـن البـائع ومـن الشاري أيضاً، لأنه، أي البائع اشترى بيتاً عن طريقي أكبر من بيته الذي باعه..

ولم تمض السنة الأولى حتى نسيت فاطمة كل ما يتعلق بالكوابيس والجـن والعفاريت.. جاءها حامد ذات يوم وهو يكاد أن يطير من الفرح. جاء إلى البيـت وأخذ يناديها وهو مازال في الباب: فاطمة.. فاطمة.. لقد فتحها الله علينا.. وأخذ

يشرح لها، كيف أن أحد المتعهدين قد اتفق معه على تسليمه مفاتيح الشقق التي بحوزته، وهي المنطقة الأكثر مبيعاً في الشيخ مقصود، إنها المنطقة المنتشرة من حدود المدرسة حتى الكنيسة القديمة شرقاً والجامع غرباً..

يضحك ويتابع: لقد أصبحت البائع الوحيد لما يملكه من عقارات سكنية، لقد سلمني عبد الفتاح.. كل أعمال البيع والشراء.. تحدث حامد عن كثير من القضايا والأمور حيث لم تفهم منه شيئاً، طبعاً لفرحها..

هنا فقط ارتاحت، نفضت عن صدرها كل المخاوف إلا من خوف واحـــد، وهو سهره الليلي الذي أصبح عادة لديه... في البداية غضبت منه بشدة، ثـــم تشكت وبكت بين يديه، هددته، لكنه لم يتراجع عن أمر سهره... أقنعهـــا ذات يوم بأنه لا ضرر من سهره.. وهكذا طأطأت رأسها أمام إصراره وعناده..

أخذت تراودها فكرة جديدة: كيف يمكن لنا أن نخرج من الطين والوحـــل الذي نغرق فيه شتاء، ومن الغبار والمياه الآسنة صيفاً؟

عندما فاتحت زوجها بالأمر ضحك وقال: على مهلك يا امرأة.. ضحكت له وقالت معلقة: أنا لا أمازحك..

أجابها: وأنا أيضاً لا أمازحك.. ولكن كل شيء بأوانه..

الكتاب الثالث -1

حلم

عندما تزوجت زينب للمرة الأولى شعرت أنها حققت الحلم الذي راودها طويلاً! أما في المرة الثانية فشعرت أن رغبة أهلها هي التي تحققت..

في المرة الأولى ودّعت حلماً، كان يطل عليها وهي نائمة في فراشـــها، على شكل فرس بيضاء مجنحة بعرف طويل غزير الشـــعر، يمتطيـــه فـــارس بثياب لا شكل لها أو لون. ثياب غريبة لم تر مثلها أبداً..

كان الفارس يأتيها علناً، في وضح النهار والشمس تسطع بقوة، ترمـــي بأشعتها فوق الأشجار، وأسطح البيوت والأزقة كوشاح نوراني. كان الفارس يتهادى بفرسه كريح خفيفة منعشة أمام بيتها فيطل الجيـــران مـــن البيـــوت مندهشين، ثم ما يلبثون أن يلتفتوا إلى بعض متسائلين: الـــذي يريـــده هـــذا الفارس؟ لماذا جاء إلى حينا؟ تخرج زينب إليه بخطوات واثقة دون أن تلتفت إلى ما حولها، ترفع جبينها عالياً والإشراق يطل منه.. فيمـــد الفـــارس يـــده إليها، يرفعها برفق وحب إلى الأعلى، ثم يردفها وراءه، فوق ظهـــر الفـــرس البيضاء ويمضي بها بعيداً..

هذا الحلم راودها أيضاً وهي مستيقظة، جالسة فـــي فراشـــها.. فجـــأة يتناهى إلى سمعها صوت حوافر على حجارة الزقاق أمام بيتها، تلتفـــت إلـــى النافذة الممتلئة بالليل وتنصت السمع.. تنصت طويلاً قبل أن تقوم إلى النافذة وتفتح إحدى ردفتيها لتتأمل الضياء الشاحب الذي يغمر الزقاق، حيث فـــرس بيضاء مشبعة بنور المصباح المعلق على العمود في نهاية الزقاق، وفوقهـــا

فارس يبتسم لها ابتسامة مشعة تدعوها إليه فهو قد ملّ الانتظـــار.. تلفتــت تشمل البيت من الداخل بنظرة سريعة من نظراتها كأنها تودع الغرفـــة إلـــى الأبد، ثم تلم ذيل ثوبها الأبيض الطويل وتطير إلى عنق فارسها لتطير معه في الفضاء.. ولكنها ما تلبث أن تستيقظ من حلمها اليقظان، فتتنهد والحسرة تأكل قلبها، ثم تقوم متكاسلة إلى مفتاح الضوء الكهربائي، وتـــديره دورة واحـــدة لينطفئ وتعم الظلمة تماماً، فتعود إلى فراشها بخطوات حذرة، ونفس كســيرة وتتمدد لتنام قبل أن ينبلج الصباح بساعة أو أكثر بقليل..

حلم الفارس والفرس البيضاء بدأ يراود زينب منذ أن رأت قطرات الــدم الأولى في سروالها الداخلي. قبل ذلك أحست بمغص حاد في أســفل بطنهـــا، مغص قص لها ظهرها ــ حسبما أخبرت أمها فيما بعد ـــ فخافــت، لا، بــل شعرت برعب هائل، ارتجفت وارتعشت لها قصبتا ساقيها النحيلتين، فركضت إلى أمها تبكي..

لم تعرف أسباب المغص الذي تسلل كسيف حاد إلى ظهرهـــا، والســائل الحار الذي انزلق من أسفل بطنها ليستقر في ســـروالها الـــداخلي، أطبقــت فخذيها أحدهما إلى الآخر بشدة وهي ترتجف... عندما عرفت أمهـــا أســـباب بكائها سألتها: إن كان المغص مازال أم انتهى؟

أجابت وهي ترتعش: لقد خف..

ارتاحت الأم وشعرت بفرحة غامضة وهي تقول في نفسها: هاهي ابنتها تدخل دنيا البالغات الناضجات.. ضحكت وهي تنظر إلى وجـــه ابنتهـــا زينـــب الجميل، وخصلة شعرها الملتصقة بجبينها، هذه الخصلة التي قالت عنها أكثر من مرة: حرام أن تبقى طليقة يا ابنتي.. يجب إخفاؤها تحت غطاء الرأس، ثم علقت بعد ذلك: ها قد حان أوان زواجك!

كانت زينب لا تتوقع أن تسمع ما سمعته من أمها، كانت تتوقــع منهـــا

توبيخاً لأنها آذت نفسها وهي ما تنفك تقفز كغزال بري هنـــا وهنالـــك علـــى أرض الدار العربية..

استغربت زينب بشدة وهي تسمع مـــن أمهـــا، أنـــه آن أوان زواجهـــا! الزواج؟!

عادت إلى التساؤل: ماذا يعني الزواج؟ لم تجد جواباً واضحاً علـــى مـــا طرحته على نفسها، لم تجد فيه إلا أكثر الصور غموضاً. لقد بدا لها أنه مـــن الأمور المجهولة! ولم تعرف الزواج إلاّ عندما تزوجت أول مرة، عرفـــت أن الزواج يعني أن يعيش رجل وامرأة في بيت واحد، وينتج عن ذلـــك أن تلـــد المرأة في كل سنة ولداً مثل والدتها التي أنجبت أربعة عشر ولداً وبنتاً، دفـــن أبوها سبعة منهم وعاش البقية تحت سقف هذا البيت الذي تعيش فيه الآن.

كانت زينب ترى إخوتها، أطفالاً ومراهقين وشباباً، ينـــامون ويـــأكلون ويشربون ويلبسون تحت سقف هذا البيت المؤلف من غرفة وحيدة ســـكنوها طوال حياتهم، قبل أن يتزوج بعض منهم ويخرج مع عروسه إلى بيت جديـــد، مستقلاً بذلك عن أبويه..

وهاهي زينب تخرج أيضاً مع رجل من تحت سقف ذلك البيـــت لتعـــيش تحت سقف بيت رجل اسمه حمود..

جاء حمود لخطبة زينب فلم تعارض، ليس لأنها تعرفه وتحبه، لأن هذه رغبة والدتها.. كان بالنسبة لزينب، وهي في تلك السن، أن أفضل ما تقوم به من عمل يرضي والديها، هو أن لا ترفض أمراً وجداه صحيحاً بشأنها..

هكذا دوت الزغاريد في البيت، ثم قامت خالتها بمشاركة أمها في غسلها في حمام السوق، فسكبوا عليها زجاجات العطر، ثم ألبســـوها ثيابـــاً جديـــدة، وغطوا وجهها بنقاب ابيض، ثم غنوا من حولها ورقصوا حتى جـــاء حمـــود معطراً بدوره يرتدي ثياباً فاخرة، يصافحها، ثم يقف إلى جانبها..

استرقت زينب في تلك اللحظة نظرة إلى وجه حمود، أرادت أن تعـرف أيشبه الفارس الذي أتاها في الحلم أم لا..

سارا وحشد من النساء يغنين ويزغـردن إلـى بـاب الحـوش الـذي سيخرجان منه إلى بيتهما، وعندما فتحوا الباب لهما أرادت أن تسـأله: أيـن الفرس البيضاء؟

كان الطريق ما بين بيت أهلها والبيت الذي تنتقل إليه قصـيراً جـداً لا يحتاج إلى فرس، لهذا مشياه معاً على القدمين.. وأخيراً قالت لنفسها: هذا هو زوجك، رجلك الذي ستقضين معه حياتك. فكرت: رغم هذا يبقى الزواج لغـزاً مجهولاً، فقد تذكرت أنها عندما كانت طفلة، ابنة السنوات العشر، كيف كـان والدها يستيقظ في الليل ويتسلل بصمت وحذر إلى فراش أمها، ثم يأخـذ فـي الحديث معها...

كانت زينب تسمع بين الحين والآخر فرقعة من فم والدها، ثم تسـمع تأوهات والدتها، كان والدها يخور ويفح بصوت أشبه بصوت الثور. كانت فـي تلك اللحظات تخاف أشد الخوف فتبكي فيما بينها وبين نفسها... أما في النهـار فتنظر إلى أمها نظرتها إلى كائن مجهول.. لذا عنـدما كبـرت سـنة أخـرى، عرفت،أو هكذا خمنت، أن الزواج يعني ما كان يحدث بين أمها وأبيها فقط؟

حمود

في الليلة التي سبقت زواج زينب انفردت أمها بها وأخذت تحدثها عـن أمور احمرت لها وجنتاها.. فقد شعرت برعشات تهز كيانها فتعجز عن رفـع عينيها إلى أمها التي حدثتها من دون حياء أو خجل، مستغربة جرأة أمها في طرح ما طرحته عليها! أخذت زينب تتساءل بعد أن عادت مع أمها للجلـوس في المكان المخصص لها ريثما تتم «تلبيسة» حمود ليـأتي إليهـا ويردفهـا وراءه على فرس بيضاء ويطير بها في السماء المخملية العالية..

فكرت زينب بكلام والدتها، ماذا يعني أن لا تعارض اقتراب حمود منها؟ وأن لا تمانع في أن يخلع الثياب عنها، وأن تسمح له بـــالنوم معهـــا؟ هـــزت زينب رأسها بعد أن عرفت أنها مُقدمة على أمور غامضة، فلـــيس الـــزواج، أمراً بسيطاً كما كانت تعتقد! وهذا سبّب لها خوفاً منه.. ولكن الخوف ما لبث أن زال بعد عدة ساعات من انفرادها بحمود..

عادت إلى ذهنها تلك الصورة التي رســـمتها والـــدتها لهـــا، وخاصـــة التفاصيل الدقيقة للوقائع والأعمال التي سيقوم بها حمود قبل أن يخرج إلـــى والديه وهو يحمل المنديل الملطخ بالدم، معلناً عن فرحه في أولى لياليه مـــع التي أصبحت زوجته على سنة الله ورسوله.

تلك الصورة التي رسمتها زينب، اضطربت في نفسها واهتـــزت عنـــدما دخل حمود عليها. اضطربت أكثر عندما تقدم منها متردداً، ثم ما لبث أن وقف في منتصف الغرفة وهو يرتجف!

كان وجهه شاحباً كليمونة معصورة، انتبهت إلى ســـاقيه اللتـــين كانتـــا تتقوسان تحته، كأنهما لا تقدران على حمل جثمانه رغم نحافته.

كان في نحافة صبي في الثالثة عشرة وليس شاباً تخطى العشرين مـــن العمر. كان ذا شارب رفيع أشبه بخيط قنب ينتهيان بشعيرات متهدلة بانكسار على زاويتي فمه الرقيق المزرق الشفتين. تذكرت زينب، أنـــه لـــولا العيـــب لهرعت إليه وسألته إن كان يشكو مرضاً؟ لقد شعرت تجاهـــه بشـــفقة، ثـــم تساءلت وهي تتهدل في جلستها بحركة حذرة على طرف السرير المغطى بشر شف أبيض خاص بالعروسان، أهو خجل يا ترى؟ أم أنه يشكو من أمر ما؟

رفعت زينب وجهها إليه. كان ما يزال واقفاً في مكانه شـــاحب الوجـــه، مزرق الشفتين، مرتعش البدن، مرتجف الساقين.. وبدون إرادة منها عـــادت لتقف مرة ثانية وهي تقول لنفسها: من المعيب أن أجلس بينما هو واقف!

سمعت، أو هكذا خيّل لها كأنه ناداها..

رفعت نظرها إليه تنتظر أن يكمل..

زينب..

لقد وصل اسمها إلى أذنيها برنة كسيرة، مرتجفة من فمه كأنــه طفــل يحاول أن يتمرن على لفظ الاسم. ظلت تنظر إليه. كان ما يــزال مطرقــاً، لا يجرؤ على رفع نظره إليها..

جلس حمود على حافة السرير كصبي ارتكب ذنباً كبيراً ينتظر عقابه من والدته. تهدلت زينب مرة ثانية، وجلست على طرف السرير بحــذر. وأخــذت تفرك أصابعها بقلق واضطراب. سمعته يقول: سأطفئ النور..

ظلت مطرقة منتظرة أن يقوم ليطفئ النور، وهي تشــعر بــأن الســلام والراحة أخذا يزحفان إلى نفسها.. والغبطة بدأت تنمو في أعماقها، وها هــي اللعبة قد بدأت..

كانت زينب قد استعدت لتلعب دورها كما علمتها أمها تماماً، ولكن حمود بعد أن أطفأ النور تمدد إلى جانبها بكامل ثيابه.. أخذ التاج يضغط على جبينها ضغطاً موجعاً مما اضطرها إلى أن تمد يدها إليه وتنزعه عن رأسها بحركــة تدل على خيبتها..

لم يتحرك حمود بجانبها. ظل ساكناً، حتى إنه لم يحاول أن يرفع يده إلى الأعلى، أو يقوم بأية حركة تدل على أنه على قيد الحياة!

سمعت زينب والد حمود، الذي كان ينتظر خــروج ابنــه إليــه، يشــتم قائلاً:ابن الكلب دخل منذ ساعة ولم يخرج بعد!

وعلى صوت والد حمود وشتيمته تحرك حمود فخلع ثيابه، ثــم التفــت إليها وراح يخلع عنها الثياب بيدين مرتجفتين متعبتين غير ماهرتين.

ساعدته زينب في خلع ثيابها، كما علمتها والدتها بالضبط، ثم ما لبــث

حمود أن أخذ يجوس لاهثاً بشرة زينب. كانت تحس به يتوغل تحت ساعدها، وحيناً آخر تحت ساقها، أو يقوم ليضع رأسه فوق صدرها، يضغط بفمه على حلمتها مخرجاً نشيجاً قوياً كأنه بكاء رجل فقد شيئاً عزيزاً عليه، وحيناً آخــر يتمدد فوقها، ثم يقوم ويدور في الغرفة المظلمة إلا من أنوار شاحبة تــنعكس من الخارج إلى داخل الغرفة.. يعود ليقبلها على شفتيها بحرقة وهي تحــس بدمعة من دموعه تسقط على خدها فتستغرب بكاءه! وتتعجب لأمره تمامــاً.. كانت تشعر في تعامله معها تعامل المنتقم! تشعر كأنه يحــاول أن يعــذبها.. خافت منه تماماً. كان يحاول أن يقوم بالأمر الذي أخبرتها عنه والدتها، لــذا استكانت إليه وتراخت بين يديه وهي تعض على شفتها مسبقاً، تكــز عليهــا ريثما تتسلل إليها تلك الرعشة العذبة التي أخبرتها عنها أمها.

انتظرت طويلاً، ولكن حمود ظل عاجزا، غير قادر على ولوجها فأخــذت تتساءل عن السبب، ألا يعرف ذلك يا ترى؟ ألم يعلمــه والــده كمــا علمتهــا والدتها؟ ابن الكلب ماذا ينتظر؟

سمعت زينب شتيمة والد حمود كما سمعها هو أيضاً، ثم أخذا يســمعان معاً طرقاً على الباب: ماذا يا بن الــ... هل نمت؟ وهنا، لن تنسى زينب هــذه اللحظة ما عاشت، سمعت بكاء حمود بوضوح، ثم رجاءه وهو يقــول لهــا: أرجوك.. اقبّل يديك.. لا بل قدميك أن لا تفضحيني.. سنتفق.. ولكــن اليــوم يجب أن يمر..ارحميني..

استغربت زينب ما قاله حمود تماماً، ولم تفهم ما يقول! وتساءلت، لماذا أفضحه؟

وفجأة شعرت بتلك القرصة، ثم سمعت بكاء حمود الذي كــان مقرفصــاً بين ساقيها. لم يكن ممدداً فوقها، كان بعيداً عنها بجسده، فقط يده أو راحــة يده، أو بصورة أدق، كانت أصابعه... ولم تمر لحظات بعد أن حمل المنــديل الملطخ بالدم إلى والده حتى عاد إليها، ووضع رأسه فوق صدرها، ثم أجهــش

بالبكاء وهو يتحدث حديثاً غامضاً، لم تفهم ما به. كانـــت لا تـــدري إن كـــان حمود يتحدث إليها أم إلى نفسه. كان يقول: نعم.. لقـــد ذهـــب ذاك الحـــادث برجولتي.. الآن تأكد لي ذلك.. لم أكن أعرف أنني سأفشل. كنت أظـــن بـــأن الأمر مؤقت.. سيزول بمجرد أن أتزوج، بمجرد أن أكشـــف عـــن عروســـتي سأكون حصاناً.. ولكن، على ما يبدو، قد ذهب بفحولتي.. ويبكي حمود متابعاً حديثه من بين دموعه التي كانت تنهل على وجنتيه، ثم تتساقط علـــى صـــدر زينب: لو كنت أعرف حقيقة علتي لما تزوجت، لبقيت أعيش عجـــزي بينـــي وبين نفسي، ووفرت على نفسي العذاب والفضيحة وعليكِ القهر يا حبيبتي..

ويرفع حمود وجهاً دامع العينين إلى وجه زينب، يقول لها: ارحميني، لا تفضحيني.. سيكون الأمر بيننا، سنتفق. لن نختلف يا زينب.. سأعوضك..

ويستمر حمود في نشيجه: أنا أعرف الحماقة التي ارتكبتها، ولكن أبـــي هو الذي كان السبب! لولاه لما فعلت ما فعلته، كان سيقتلني لو لم أخرج إليه، لو لم أحمل له المنديل، كان سيذبحني لو لم أثبت له أني رجل.. ولكـــن أنـــت زوجتي، وأنا زوجك، اعتقد يحق لي ما قمت به.. برغم.. أن..

ويسكت حمود، يبكي بصمت..

كانت زينب لا تفهم ما يقول! ولماذا يقول ما يقوله؟ ما معنى أنه رجـــل وله الحق في فعل.. أي فعل يقصد، من يعاتبه على أفعاله.. يا إلهي! قالـــت، لماذا يبكي كطفل ارتكب ذنباً؟ كطفل يبكي مسبقاً لكي لا ينال عقابه؟ ماذا يريد أن يقول لها؟ عن ماذا يريد أن يُفصح؟

وفي هذا الجو المشحون بالتساؤلات والحيرة والعجـــز شـــعرت زينـــب بالجوع، أو بالأحرى كانت جائعة، ولكنها لم تجد الوقت والظرف المناســـبين للإعلان عن جوعها..

رفع حمود رأسه وسألها: أقلت إنك جائعة؟

هزت رأسها بالإيجاب. ضحك ضحكة من ارتفع عن كاهله عـبء ثقيـل وقال لها: حاضر.. سأجلب لك ما تشتهين..

ولم تمر دقائق حتى جهز طاولة طعام غنية وشهية وممتلئـة بأصـناف الأطعمة. ثم دعاها قائلاً: تفضلي..

راح حمود يطعمها بيده، يزقها كعصفور دوري صغير. أحسـت زينـب بالإحراج. كانت لا تعرف كيف تتصرف. أمها لم تخبرها ماذا تفعل فـي مثـل هذه الحال.. وقررت أن تسأل أمها في أول لقاء معها.

كان حمود يضحك، ثم يعود إلى وجومه، ينتبه إلى أنها مضغت لقمتهـا وبلعتها عن آخرها، فيقول: أنا آسف.. لقد شردت..

ويهرع إلى تحضير اللقمة التالية. يقول لها: افتحي فمك. ويقـول لهـا: كلا.. لن أعطيك اللقمة.. دعيني أضعها في فمك..

يضحك وهو يضع اللقمة بحركة فخمة في فمها. كانـت تقـول، وهـي تحاول أن تتناول بأصابعها اللقمة من بين أصابعه: دعني آكل بنفسـي.. ثـم تردف: إنك لم تأكل لقمة واحدة.. ألست جائعاً؟ لا بد أنك جائع..

يقاطعها: لا يهمك.. سآكل، ولكن يجب أن تشبعي أنت أولاً..

يضحك وهو يناولها لقمة مغموسة بالعسل: كلي.. إنه عسل صاف.. لقد جلبه والدي خصيصاً لنا..

وتشرد زينب وهي تمضغ اللقمة. كانت والدتها خلال الشـهور الثلاثـة الأولى من زواجها تسألها وهي تضحك: ماذا؟ ألم تحملي بعد؟ في البداية، لم تفهم زينب ما تشير إليه أمها.

أما عندما عرفت ماذا تقصد فقد صارت تطرق ولا تتكلم، ومع تكرار هذا الإطراق من زينب أخذت الأم تقلق لوضع ابنتها، فراحت تسـألها: مـاذا يـا ابنتي.. أراك على غير ما يرام؟

ترفع زينب رأسها محاولة أن تضحك وتقول: أبداً.. أنا على ما يرام.. ولكن الأم ظلت تلّح وتصرّ حتى عرفت الحقيقة، عرفت كيف افتض حمود بكارة ابنتها..

ضربت الأم صدرها بقبضة يدها غير مصدقة ما أخبرتها به ابنتها، ثم أمسكت بشعر زينب ولفته على يدها، وأخذت تجرها وراءها وهي تصرخ بها: لماذا لم تقولي لي يا بنت الكلب منذ الليلة الأولى؟ لماذا تركته يفعل بك ذلك؟ سألعن أجداد أجداده ابن الكلب نسل النساء!

وتتذكر زينب الأمور بعد ذلك بكثير من الأسى. لقد تكشفت الحقائق لأهلها وأهل حمود فعُرض زوجها على الطبيب مرة وأخرى، وبعد أن تأكد أن حمود لا خير فيه كزوج وافق والده أن يتم الطلاق بعد أن تفاهم مع والديّ زينب فاستحقت كامل الجهاز والذهب ومفروشات البيت دون معارضة... وتم الطلاق بصمت..

العودة

عادت زينب إلى والديها تحمل في نفسها الخيبة والقهر والأسى، عادت إلى صراخ والديها وخلافاتهما التافهة، عادت لتنام مع أخوتها وأخواتها في غرفة واحدة لا غير..

قبعت، كعادتها، في أيام زمان أمام النافذة، تراقب ما يجري في الزقاق، تتأمل الرائح والغادي، تشرد بين حين وآخر فتذهب بعيداً.. اليوم، بعد طلاقها كان عقلها لا يشرد بقدر ما كان يقيّم الأمور التي مرت بها، يقيّم أيام الشهور الثلاثة الماضية التي عاشتها وهي على ذمة رجل.. ابتسمت ساخرة وقالت: إي والله.. رجل!

بعد عودتها بثلاثة أيام شعرت بقرف تجاه كل الرجال. كلهم من دون استثناء، ولم تجد النعت المناسب على لسانها حتى تنطقه بحقهم، إنما اكتفت

بأن بصقت بحنق عبر النافذة المفتوحة على الشارع المرصـوف بالأحجـار السوداء... ثم ما لبثت أن عادت وبصقت مرة ثانية بحدّة أكبر على الحيـاة، وكطفل صغير مشاكس قالت: اللعنة! ثم راحت تعاتب الحياة بلهجة حزينة: ألم تجدي سواي حتى لتسكبي بلواك عليها؟ لماذا لم يكن رجلاً؟ لماذا فقد الشيء الوحيد الذي يصنفه في خانة الرجال؟ لماذا لم يفقد ساقه، يده، أو إحـدى عينيه؟ لماذا لم يفقد لسانه أو أي شيء آخر لا يبعده عن دنيا الرجال؟ ليظـل رجلاً رغم العاهة التي لحقت به... تفو..

بصقت زينب للمرة الثانية على الحياة، ثم قامت لتدير ظهرها إلى النافذة المطلـة علـى الشـارع لتواجـه الحـائط وجهـاً لوجـه كأنهـا تحـاول ــ كصبي صغيرــ أن تدير ظهرها للحياة التي تدور وتتحرك في الزقاق، مـن ناس يعبرون وحيوانات تتراكض، وأطفال يلعبون أمام أبواب البيوت، وسماء ضيقة أشبه بشريط أزرق يتوج سطوح البيوت العربية القديمة... ولكن زينب، في زعلها وحردها وكل لعناتها التي صبتها على الحياة لم تسـتطع أن تمنـع الحياة من التسلل مع مر الأيام إلى نفسها من جديد.. فهي لأول مرة لا تُبعـد من قبل والدتها عندما تجلس في حضرة نساء لديهن عدد كبير مـن الأولاد، حتى أن بعضهن أصبحن جدات..

أخذت زينب تجلس إليهن وتستمع إلى أحـاديثهن، وتعلـم برغبـاتهن وتنكشف أمامها أسرارهن.. لقد أصبحت امرأة مثلهن، رغـم أن عمرهـا لا يتجاوز الخامسة عشرة.. رغم هذه السن لم تعد والدتها تطلب منها أن تقـوم من مجلسهن كما كانت تفعل سابقاً يوم كانت فتاة عذراء، لأن فتاة صـغيرة، مثل زينب لم تكشف سترها بعد، كان يجب أن لا تسمع كلاماً تتداوله النسـوة فيما بينهن.

أخذت أحاديث النسوة، خاصة تلك المتعلقة بالأمور التـي يشـترك فيهـا

الرجال والنساء تفتح ذهن زينب وتثير الفضول في نفسها.. كانـــت لا تعــرف، رغم أنها ظلت ثلاثة أشهر زوجة، تعيش تحت سقف واحد مع رجل، ماذا يعني أن يخور الرجل بين فخذي زوجه كما كانت تتحدث أم عصام، وأيضاً ماذا يعني قول أم عدنان: الجارة التي يقع بيتها في آخر الزقاق الذي يفضي إلـــى ميـــدان الزيزفون: في كل مرة تنسل روحي ــ أقسم ــ تنسل من رؤوس أصابعي!

كانت زينب لا تعرف هذه الأحاجي والألغاز التي تتحدث عنهـــا النســـوة، وفي فراشها كانت تعيد كلام كل واحدة منهن على حدة، تحاول أن تفسره...

تظل لذلك سهرانة حتى مطلع الفجر دون أن تجد أجوبة شـــافية لـــديها. كانت تحاول أن تستعيد أيام الشهور الثلاثة من حياتها مع حمود كزوجة، فقد تجد جواباً على ما تفكر به، ولكنها لم تجد سوى الحـــزن والقهـــر والأســـى والإشفاق والصراع بين رغبات والديها، في أن يطلقها حمود إن عجز الأطباء عن إعادة الفحولة التي فقدها له، وبين رجاء حمـــود أن تبقـــى لديـــه، أن لا تسمع كلام والديها، أن... وينكتم صوت حمود فيقوم يدور في الغرفـــة وهـــو يدخن سيجارة وراء أخرى، وعلبة تبغ وراء علبة، ثم مـــا يلبـــث أن يركـــع أمامها ويجهش بالبكاء ويهدد، إن تركته سينتحر، إنه يحبها. أما.. أما.. مـــا يعاني منه فلا بد أن يتغلب عليه عاجلاً أم آجلاً.. لذا عليهـــا أن تنتظـــره، أن تمنحه فرصة زمنية.. ولكن والديها لم يعطيانها أكثر من ثلاثة شهور..

وفي النهار كانت زينب تفكر بأسباب تعلق الرجل بالمرأة، وهـــذا الأمـــر اكتشفته من تعلق حمود بها.. فقد أذل نفسه كثيراً أمامها، كـــان يرجوهـــا أن تبقى، كان يبكي.. وها هي بعد أن دخلت عالم المرأة، وبعد أن ســـمحت لهـــا أمها أن تجالس النساء اللواتي يأتينها إلى البيت، تعرف أمراً آخر، و تعلّـــق النساء بدورهن بالرجال..

لم تعرف زينب أسباب ذلك رغم تساؤلاتها عبر أيام الشهور الثلاثة التي

كانت فيها زوجة لحمود... ولم تلبث الأيام أن طرحت عليها بعض الأسـئلة: لماذا لا تحاول أن تعرف ذلك بنفسها؟ لماذا تنتظر أن تجد الأجوبة عند النساء الأخريات؟ إنها امرأة مثل بقية النساء؟

هزت رأسها بعد أن اقتنعت بما فكرت به، ألا وهو أن تبحث بنفسـها عـن الأجوبة المعلقة التي تسأل عنها، لذا أخذت تنتظر الفرصة المواتية لمعرفة ذلك..

وها هو اليوم قد جاء بعد أربعة شهور أخرى من طلاقها.. أما كيف تـم ذلك، فهذا ما تتذكره زينب.

كان والد زينب يعمل حارساً ليلياً، وكان لديه سبعة أولاد مـا بـين ذكـر وأنثى، والراتب لا يكفي إلا بضعة أيام من الشهر فتراكمت عليه الديون، وأخـذ الشجار يتوسع ويمتد بين أمها وأبيها يوماً بعد يوم، ولما كانت والـدتها تملـك حنكة أكبر من والدها، راحت تعمل خياطة في البيت لتساعده في تذليل مصاعب المعيشة اليومية القاسية، خفت حدة الشجار بين والديها، ثم ما لبثت أن تحسنت أوضاع الأسرة المعاشية، وساد جو من الوئام والتفاهم إلى حد ما..

كان صاحب العمل يأتي بالقماش لوالدتها، وكان على والدتها أن تخيطه كفساتين ولادية جاهزة تلقي بها جانباً، وكان علـى زينـب أن ترتبهـا فـي دزينات. كل عشر فساتين في حزمة، تربطها بشريطة من فضلات القمـاش.. وكان الشاب الوسيط الذي يعمل بين والدتها وبين صاحب العمل في الخامسة والعشرين من العمر، يأتي بالقماش في سيارة بيضاء صغيرة، نظيفة وأنيقة، يجلس لدى الأم والابنة خمس دقائق لا أكثر، وهي المدة التي تسـتغرق عـدّ ربطات الفساتين الجاهزة..

في البداية كانت الأم تُبعد زينب من الغرفة عندما يأتي الشاب، تحاول أن تخفيها عن أنظاره، ولكنها مع مر الأيام وتشابك علاقة العمـل بينهـا وبـين الشاب، أخذت تغيّر من نظرتها المرتابة إلى الشاب، سألته عن أسـرته، وإن

كان متزوجاً أم لا؟ وعن أهله ووالديه..

كان الشاب يجيب عن تساؤلات الأم بأريحية، لأنه بدوره كان يريد أن يعرف أوضاع الأسرة، لاحظت زينب أن أمها، لم تعد تطلب منها أن تقوم وتختفي عندما تسمع هدير محرك السيارة ينطفئ أمام البيت، ليطرق الشاب بعـد ذلـك البـاب ويدخل.. كما لاحظت أن أمها طلبت منها عندما حاولت أن تقوم لتختفي عن أنظار الشاب، أن تبقى، لتعد ربطات الفساتين، فهي متعبة اليوم. كما قالت.

ولم تمر أيام الأسبوع الأول على ذلك حتى تعودت زينب البقاء جالسة إن جاء الشاب أو غيره إلى البيت.. أما ما لاحظته زينب علـى الشـاب، فهـو الجرأة، فقد أخذ ينظر إليها كلما سنحت له الفرصة لذلك، لا بل أخـذ يتقصـد النظر إليها مطولاً كأنه يبحث في عينيها عن شيء ما، ثم ما لبثت أن أخذتـه الجرأة التي اقتربت من الوقاحة، إلى أن ينقل نظره من وجهها إلى صدرها..

أحست زينب بالخوف منه، لكنها ما لبثت أن أخذتها الرغبة إلى أن تـرد على نظراته الوقحة بنظرات أخرى لا تقل وقاحة نظرات تحفـر فـي نفسـها حفراً، أخذت تفكر به، ماذا يريد منها بتلك النظرات النارية؟ طبعـاً كانـت لا تستطيع الجزم بأنه يريد منها كذا وكذا... فظلت تعيش حيرة تساؤلاتها طويلاً.

ولم تمر أسابيع قليلة حتى أخذ الشاب عليها تفكيرها كلـه! فلـم تعـد تستطيع أن تساعد والدتها كالسابق لكثرة شرودها. وقد أخـذ سـؤال وحيـد يراودها ليلاً ونهاراً: ماذا يريد هذا الشاب منها؟ ومع مضي الأيام أخذت زينب تشعر بتقارب مشاربهما ....

كانت والدتها قد أخذت تطمح في تزويجه من ابنتها بعد أن عرفت عنـه كل شيء، ورأت فيه الزوج المثالي لزينب.

عندما استشف الشاب ذلك أخذ يستغل الفرصة في لمـس يـد زينـب، أو التقرب منها أو الالتصاق بها، لم يعد الجواب مجهولاً عن سؤالها الـذي كانـت

تطرحه على نفسها باستمرار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أخذت النار تشب في أعماقها كلما لمس يدها متظاهراً بالبراءة، وأن اللمسة جــاءت هكــذا عفــو الخاطر، عفو العمل المشترك الذي يقومان به في توضيب الفساتين، كانت تلــك النار تلهب فراشها في الليل من دون رحمة، فراحت تحاول أن تطفأها بنفسها...

أخذت صورة الشاب تستقر في ذهنها أكثر فأكثر، وأخذت تقاسيم وجهه تحفر في أعماقها أموراً وأموراً.. أخذت كل حركة من حركاته، وكل كلمة من كلماته تترك في نفسها إحساسا بأنه الرجل الذي ترغب فيــه، الرجــل الــذي سيساعدها على الإجابة عن كل الأسئلة التي تطرحها على نفسها.

وفي يوم غابت فيه أمها عن البيت، كما أن أخوتها وأخواتهــا خرجــوا أيضاً من البيت، تمنت لو خرجت بدورها، ولكن رغبة مجهولة أمرتها بالبقاء، وقائلاً قال لها: ابقي في البيت.. اليوم سيأتي، اليوم ســتكونين أنــت وهــو وحدكما. اليوم ستشعرين بأنك امرأة..

قامت إلى المرآة، تزينت ووضعت عطراً قديماً وجدته في خزانة أمهــا، أسدلت خصلة من الشعر على عينيها، كما أنها وضعت أحمر الشفاه وكــان ذا لون فاقع.. وجلست تنتظر الشاب..

نعم جلست تنتظر الشاب الذي كانت تعرف أنه سيأتي اليوم.. نعم سيأتي اليوم.. وها هو يطرق الباب..

قامت وقلبها يدق بعنف، أخذتها رجفة قوية فلم تقــدر أن تقــف علــى قدميها. مدت يدها وفتحت له الباب بيد مرتجفة.

دخل الشاب وهو يلقي التحية، ثم ما لبث أن سألها عن والدتها ووالدها وبقية أخوتها؟

أجابت: جميعهم خرجوا..

سألها، إن كانت وحدها في البيت؟

أجابته: نعم..

نظرت إليه. حاولت أن تعرف إن كان سيقوم إليها أم لا..

ولم تمر دقائق حتى مددها فوق كومة الأقمشة، وراح يلهث فوق صدرها..

في البداية خافت من لهاثه، حتى إنها كادت تصرخ.. ولكن الشاب كـان سريعاً في كتمان صرختها بشفتيه، ثم دفع وسطه الأسفل ما بـين سـاقيها.. وفي تلك اللحظة بالذات غابت عن وعيها.. وعندما عاد إليها الوعي استمرت في هدوئها، لا بل كتمت بقوة وإصرار تلك الرغبة التي تولدت في نفسها قبل أن تغيب عن الوعي...

استمرت في هدوئها وهي تسمع من الشاب بالضبط ما كانت تسمعه من والديها عندما كانت في العاشرة من العمر..

الزوج الثاني

عندما تعطل المفتاح الكهربائي في بيت والد زينب دخل مراد العامل فـي شركة الأعمال الإنشائية، والكهربائي الذي كان، بعـد انتهـاء دوامـه مـن الشركة، يلف ويدور على البيوت وهو يحمل حقيبة جلدية قديمة ورثها عـن أبيه الذي كان قد ورثها بدوره عن جده، لتصليح الأعطال الكهربائية..

وعندما خرج مراد، خرجت معه زينب كزوجة..

كانت أمها قد «عملت» حجاباً للكهربجي، لكي «يعلـق»! وفعـلاً علـق الكهربجي بحب زينب. لقد أعجبته. أما زينب فكانت لا ترغب فـي الـزواج، ليس من مراد فقط، إنما من كل الرجال! كانت تتمنى لـو تبقـى فـي منـزل والديها ولا تبرحه إلا ببراح روحها، تظل تحلم بالفارس والفـرس البيضـاء، تحلم بقدومه ليلاً، وفي النهار ترفع يديها إلى السـماء وتبتهـل إلـى الله أن يحقق لها هذه الرغبة، ولو ليوم واحد فقط، ومن ثم تموت!

أما بعد أن دخل مراد إلى منزلهم فقد ضحكت ساخرة وقالت لنفسها: ها

قد استجاب الله دعائك! وأرسل لك الفارس الذي تحلمين به.. ولكن مــن دون حصان، جاءك ماشياً على قدميه..

كانت زينب قد عانت الأمرين من والديها ومن أخوتها، ليس من الــذين يكبرونها في السن فقط، إنما حتى من الذين يصغرونها بعدة ســنوات.. لقــد أحاطوا بها جميعاً ــ كل واحد منهم من جهة، وكل بطريقته ــ إحاطة الطوق بالعنق، يراقبون تحركها.. متى خرجت من البيت؟ ومتى تعود؟ أيــن كانــت؟ وإلى أين تريد الذهاب؟ لماذا ترتدي هذا الثوب وليس ثوباً آخر عند خروجها؟

أخذوا يحصون عليها كل حركة صغيرة كانــت أم كبيــرة فــي حياتهــا اليومية! لذا عندما تقدم مراد يطلب يدها وافقت من دون نقاش، وذلك لتخرج من دائرة جحيم المراقبة هذه لا غير، رغم أنها، في قرارة نفسها، لــم تكــن تحلم برجل على صورة مراد أبداً، إنما بشاب آخر. لن يوجد على مــا يبــدو على هذه الأرض مطلقاً.

زينب لم تنكر إعجابها بهذا الشاب أو ذاك، في بعض مراحــل عمرهــا الذي لم يتخط الثامنة عشرة، ولكنها لم تكن في يوم من الأيام، تحلــم بمثــل مراد.. تزوجته لكي تنقذ نفسها من الجحيم الذي وجدت نفسها فيــه.. ولــم يمض على زواجها سوى شهر حتى بدأت المشاكل فيما بينها وبــين والــدة زوجها السليطة اللسان، ثم ما لبثت أن استفحلت، ولم تعد تجد لهــا حــلاً إلا باستقلالها مع زوجها عن بيت حميها..

انطوت زينب على نفسها بعد أن شعرت بالخيبة والانكسار، كانت تظن أن زواجها الثاني سينقذها من الوضع غير المستقر والمضــطرب الــذي وجــدت نفسها فيه، في منزل والديها.. وكانت تعتقد أيضاً بأن زوجهــا مــراد ســيأخذ الموقف المناسب لحل المشاكل التي استفحلت بينها وبين حماتها، ولكنــه كــان مجرد لعبة، هكذا شعرت، في يد والدته، لأنه كان عاجزاً عــن فعــل شــيء...

لاحظت أنه يتهرب من المشكلة، وأحياناً يحاول أن يرضي والدته على حسابها.

أما عندما استفحل الخلاف وأخذ جانبه الحاد قالت زينب له: علينا بالخروج من بيت أهلك وإلا سأضطر إلى العودة إلى بيت أهلي..

كان هذا القرار هو الذي لوحت باتخاذه قبل شهور طويلة، اعترفت زينب بأن علاقتها بحماتها لم تكن بهذا السوء، إنما كان هناك أمر آخر ألا وهو الخيبة التي وجدت نفسها فيها بعد ضياع أحلامها واحداً بعد الآخر.. كانت تحلم بأن تنقذ نفسها من الفقر ففشلت، تحلم أن يأتي فارس على فرس بيضاء يردفها وراءه ويذهب بها إلى عالم بعيد غير هذا العالم، تحلم بحياة غير هذه الحياة التي رماها مراد بين أحضانها؟ لذا كانت الخيبة والقهر والأسى حصادها..

خاف مراد أن تعود زينب إلى بيت أهلها لذا سعى إلى تأمين مسكن مستقل لهما.. استأجر غرفة في «بوابة القصب»، في الليلة الأولى لهما تنهد مراد مطولاً، وكان الفصل صيفاً، ثم ما لبث أن قام وهو فرح أشد الفرح، وتعرى من ثيابه ومشى في الغرفة جيئة وذهاباً... التفتت إليه زينب وعلى وجهها علامات الخوف والقلق!

توقف مراد عن الضحك، ثم التفت إلى زينب وقال لها: أتدرين.. لقد أقسمت بالله.. ما إن استقل عن والديّ حتى أتعرى ثم أتجول في البيت.. لأشعر بحريتي التامة! ثم تابع بأسى: لقد اختنقت أكثر منك في منزل والدي.. فلا تلوميني..

ضحكت زينب لكلام زوجها وتنهدت مرتاحة، ولكن هذه الراحة لم تستمر سوى ليلة واحدة، ففي نهار اليوم الثاني، عرفت وهي تدور في أرجاء الغرفة، وتطل منها على المطبخ، ثم ما تلبث أن تخطو إلى ارض الحمام،: أي فقر تعيش فيه مع زوجها..؟!

غرفة عارية إلا من سرير حديدي، خزانة ثياب بازارية رخيصة، كنبة، بضعة كراسي لا غير.. راحت تتساءل وهي تحصي حاجيات البيت بعينيها،

أحقاً ليس لدي سوى بتوغاز وخزانة لحفظ بعض صحون وكؤوس وملاعــق في المطبخ؟ أحقاً ليس لدي براد أو غسالة أو..

أطرقت زينب، ثم راحت تبكي من القهر..

ولكن زينب، كانت في بعض الأحيان تحاول أن تخــدع نفســها، فــرغم الأسى والخيبة اللذين لحقا بها، لأنها وافقت على الزواج مــن مــراد، كانــت تحاول أن تخدع نفسها وهي تردد كلام والدتها: يا ابنتي، المرأة ملكــة فــي بيتها مهما كان البيت متواضعاً!

وتدير زينب رأسها داخل الغرفة وهي تمسح بنظرها ما حولها، ثــم مــا تلبث أن تضحك من نفسها وتقول بسخرية: وأية ملكة أنتِ؟ ثم تهدأ وترمــي رأسها إلى الوراء، وتعاود حلمها الذي كانت قد نسيته منذ زمن بعيد.. ملكة! نعم ملكة تنتظر الفارس العائد على فرس بيضاء من وراء الغيوم، من أحضان الشمس، سيأتي إليها محملاً بالأزهار والأقمار ليردفهــا وراءه فــوق ظهــر الفرس، ويطير بها إلى بلده البعيد الذي يقع في أرض وراء الضباب لا يصــل إليها سوى الفرسان الأبطال..

عندما استيقظت زينب لم تعرف كم أغفت على ما كانت تحلم به فهــزت رأسها، وقالت معلقة: أما اليوم فلم تعودي تحلمين لا في النوم ولا في اليقظة!

تلفتت حولها لتتأمل جدران البيت الذي انتقلت إليــه واســتأجراه بــأجر شهري أكثر من (٥٠٠) ليرة سورية، أي بثلث راتب زوجها..

وذات يوم جاءها مراد وهو فرح وقال لها: لقد اشتريت بيتاً في حــارة الشيخ مقصود!

رفعت نظرها إليه كأنها لم تفهم ما قاله، وانتظرت أن يعيد عليها مــرة ثانية ما أخبرها به.

شعر مراد بالارتباك لنظرتها الغامضة التي رمتــه بهــا! فابتســم لهــا

باقتضاب وهو يداري ارتباكه ثم أكمل موضحا: لقد اشتريت من أحد السماسرة بيتاً في حي الشيخ مقصود..

وتقدم منها خطوة وهو يتابع كلامه: صحيح هو بيت صـــغير، وداخلـــي ولكن أفضل من أن نظل بالآجار.. إننا ندفع كل شهر (٥٠٠) ليرة كأننا نرمي نقودنا في البالوعة..

ظلت زينب صامتة، تنظر إلى زوجها كأنها بنظرتها تلـــك، وصـــمتها ذاك، تطلب منه أن يستمر في حديثه... وعندما لم يجد مراد ما يتكلم به، فقد أخبرها بالأمر الهام الذي توقع منها أن تزغرد له، وتطير إلى عنقه وتقبله ســـائلة: إن كان ما قاله صحيحاً وليس مزاحاً يحاول أن يداعبها به، ليكون أسلوبا للصـــلح فقد تخاصما في ليلة أمس حتى أن كل واحد منهما قد نام على حدة..

وعندما لم تعلق على خبر شراء البيت، تنهد بعد أن شعر بانكسار فـــي داخل نفسه، ثم قام إلى حقيبته الجلدية حيث يحمل بين طياتهـــا عـــدّة عملـــه كعامل كهر بجي، ومضى خارجاً من البيت ليتجول بين البيوت فـــي الحـــارات بحثاً عن عمل يدر عليه بعض المال..

شيخ مقصود

أفاقت زينب بعد خروج زوجها من شرودها وهـــي تحـــاول أن تســـتعيد الكلام الذي قاله مراد في نفسها ثانية، ولكنها لم تستطع، لأنها راحت تبحـــث عن جواب للسؤال التالي: من أين له المال حتى يستطيع شراء البيت؟ وعندما لم تجد الجواب، أهملت الموضوع بعد أن وصلت إلى قناعة بأنه، أي زوجها، رجل، ومن مسؤوليته أن يشتري بيتاً لأسرته، وها هو قد فعل ذلك. أما كيف؟ فهذا من شأنه وليس من شأنها.. ثم زاد من تجاهلها للأمـــر أكثـــر، عنـــدما، انتقلت إلى البيت فطافت في «أرجائه» ثم ما لبثت أن ابتسمت ساخرة وقالـــت بشيء من الغضب المقهور: هذا هو البيت الذي اشتريته؟

أجابها وهو ينظر إليها، باستغراب: نعم..

هزت زينب رأسها ولم تعلق. استمرت في تطوافها في الغرفـة والصـالة الصغيرة الملحقة بها، وهي أشبه بموزع، لا تدخله الشمس، وآثار رطوبة قويـة ظاهرة على جدرانه، لا يطل على الخارج إلا بنافذة واحدة صغيرة...

كانت في الصيف تشعر بالاختناق من الحرارة، وفي الشتاء من الرطوبـة.. وذات يوم قالت لزوجها مراد: أتمنى اليوم لو بقينا مستأجرين علـى أن نكـون مالكين لهذا..لهذا لا أعرف ماذا أقول عنه البيت، أم القبر، أم المغارة!

كان مراد أيضاً يشعر بالخيبة. فقال لها محاولاً أن يشد من أزرها ويخلق في نفسها الأمل والمقدرة على التحمل: هذا البيت ما هو إلا خطوة أولى لنـا، نحو البيت الذي أحلم بشرائه قبل أن تحلمي أنت به... . إنها الخطوة الأولـى يا زينب... ها نحن اليوم نملك بيتاً وإن كان.. ولم يكمـل، لأن نظـرة منهـا أجبرته أن يكف عن المتابعة.. ما لبث أن ابتسم مشجعاً وقال: المهم..علينـا أن نفكر بالخطوة الثانية في تحسين الوضع.. ثم تابع بعد صمت: أعتقـد، أن هذا سيحتاج إلى بعض الوقت..

ظلت زينب صامتة غير مقتنعة بالذي قاله زوجها، فتابع: كثّر الله خيـر (أبو عدنان).. لولاه لما استطعت الحصول حتى علـى هـذا البيـت الـذي لا يعجبك.. ولكن، أعتقد بأنه في الوقت الحاضر.. ثم تطرق مراد إلى الموضوع من زاوية أخرى: يجب علينا يا زينب، على الأقل في الوقت الحاضر ألا ننظر إلى مستوى أعلى منا... ولكي يبرر ما يقوله تابع مقدماً معلومة جديدة تسند كلامه السابق: نعم.. يجب أن تعرفي أن (أبو عدنان)، السمسار المعروف في كل الشيخ مقصود يسكن بنفسه مع أسرته في البناية التي نسكن فيها..صحيح هو يسكن في بيت واجهته تطل على الشارع العام. ولكن المثـل يقـول: مـد رجليك على قد لحافك..

ظلت زينب صامتة، مقررة بصمتها ذاك، أن كل الكلام الذي يقوله، لـــن يفيد ولن يغيّر من رأيها، وهو أنها تسكن في مغارة وليس في بيـــت.. تـــابع مراد قائلاً: إنه، أقصد (أبو عدنان) رغم أنه يلعب بالمال فهو يسكن في الشيخ مقصود.. أي حارة الفقراء من أمثالنا.. أيّ أنه لا ينظر إلى مستوى أعلـــى، رغم أنه يستطيع أن ينتقل إلى حارة أخرى يقطنها الأغنياء من أمثاله..

كانت زينب تستمع إلى كلام زوجها وهي في دخيلـــة نفســـها تقـــول: لا يهمني من يسكن في البناية، ومن يكون جاري! المهم بالنسبة لي هو أننـــي أسكن في بيت لا تدخله الشمس، يخنقني في الصيف من شدة الحـــر ويُغـــرق عظامي في الشتاء في رطوبته..

توقف مراد عن الكلام ولم يعد إلى الموضوع مرة ثانية أبداً. وهكذا أخذت الأيام تكر على زينب. ولكن زينب كانت في بعض حـــالات يأســـها وإحساســـها بالحيف الذي أصابها توقف كر الأيام، ثم ترجعها يوماً بعد يـــوم إلـــى الـــوراء، فتلهو في ذكريات تلك الأيام الماضية البعيدة التي أصبحت أحلاماً ضائعة..

في بعض تلك الأيام، ومنذ أن بلغت الثانية عشرة مـــن عمرهـــا كـــانوا يقولون لها: كم أنت جميلة؟ أنت أشبه بأميرة من أميرات بلاد الثلج البعيـــدة! ما يلزمك يا زينب هو أمير! أمير بعينه ليوفيك حقك في الحياة! ثم يذهبون في وصفها والتغزل فيما يصفون: هذا الشَعر الحريري الطويل لا يعـــرف قيمتـــه سوى أمير! هذا الفم الصغير الذي يشبه خاتماً مسحوراً لا يمكـــن أن يغازلـــه سوى أمير! لا يستطيع أن يطبع عليه قبلة سوى أمير..

هذا الوجه الذي هو كالقمر لا يمكن لرجل أن ينام فـــي ضـــوئه ســـوى أمير.. وتضحك زينب بأسى وتقول لنفسها: ها هو الأمير قد جاء.. نعم جـــاء في صورة مراد، زوجها.. وتبتسم ساخرة وهي تصفه: صلعة، مع قصر فـــي القامة، وعين حولاء..

تضحك زينب وهي تنظر إلى ساقيه المعوجتين أثناء سيره. تضحك أثناء غضبه وصراخه وإلقاء شتائمه في وجه الحيطان. تضحك لكل ما كان يقوم به زوجها مراد. تضحك عندما يسألها: لماذا تضحكين؟ لا ترد عليه، إنما تنظـر إليه طويلاً ثم ما تلبث أن تنفجر بالضحك في وجهه من جديد.. وتكف فجـأة عن الضحك شفقة عليه وهي تنظر إليه ثم تطرق وتفكر، أهو المسؤول عـن الفقر المدقع الذي يعيشان فيه؟ عندما كانت في بيت والديها، فتاة عذراء حيث عاشت مع الفقر خطوة خطوة دون أن تفارقه لحظة واحدة. لقد نامـت فـي أحضان الفقر في سرير واحد سنوات! سألت نفسها: هل والدها هو السبب؟ لا تجيب، إنما تلتفت إلى والدتها وتستمر في تساؤلاتها: أليس لها علاقة بحالـة الفقر التي تعيشها؟ وتغمض عينيها علامة أن لا جواب لديها..

لقد انتقلت من فقر أهلها، إلى جوار فقر زوجها.. والملاحظة التي تريـد أن تبديها هي أنها، لم تكن تفكر بالفقر عندما كانت مع أهلها قبل الزواج، ولم تفكر به أيضاً بعد زواجها الأخير من مراد، لم يكشف لها عـن الفقـر الـذي تعيش فيه سابقاً ولاحقاً سوى مراد بالذات.. ومن هنا أخذت تفكر وتتسـاءل: أيعقل أن يكون للمال هذا السلطان؟ أيمكن أن يكون له قدرة إنقاذها من الفقر؟ كيف؟ وتسأل زينب نفسها وهي تغمض عينيها وترفع رأسها إلـى الأعلـى، كيف؟ كيف؟ كيف؟

تخاطب نفسها بعد ذلك: لو أنها تملك مالاً لاشترت كل ما تريد وترغـب فيه. تشتري بيتاً لا تخرج الشمس منه سوى في ساعات الليل. تشتري.. ماذا تشتري؟ تسكت. ثم ما تلبث أن تتابع: لو أن المرء يمكنه أن يشتري بالمـال كل شيء لاشترى حمود، زوجها الأول الـ..

تسكت ثانية، ثم تدير وجهها إلى النافذة الصغيرة الوحيدة التي تطل على الشارع الفرعي وتقول: لماذا لم يشتر زوجها الأول ما فقده؟ ثم تلوي عنقهـا

متحسرة وتقول، لو كان رجلاً، وليس غنياً؟ وتسأل نفسها: لماذا لم تنفذ ما طلبه منها؟ لماذا أباحت بالسر لوالدتها؟ لقد قال لها والدمع في عينيه: اقبلي بي زوجاً واستمري على العيش معي فأنفذ لك ما تريدين.. أنت تعرفين أن والدي غني. وعندما يموت فانا وريثه الوحيد، سأجعل منك أميرة تلعب بالذهب. أما الأولاد فيمكننا أن نتبنى احدهم، نربيه كابن لنا، نجلبه من بيت اللقطاء صغيراً فيشب ولا يعرف شيئاً سوى أننا والداه.. لم تكن زينب تفهم ماذا يريد أن يقول لها زوجها حمود بالضبط؟ هي لم تكن تطلب منه أن يطلقها إلا بناءً على رغبة والدتها التي عرفت بعاهة صهرها.. زينب هي التي أخبرتها بذلك، هي التي قالت أن زوجها لم يقم بما شرحته لها، فقد عجز عن فعل ما أخبرتها به، لم يستطع أن يقوم بدوره كرجل، إنما..

تدور زينب مع دورة الأيام وتقول: أما الذي اقتحمها، ثم رفض الزواج منها فكانت تفكر فيه حتى قبل اقتحامه لها. كانت تقول عنه: هذا هو أميري! بفرسه البيضاء، خاصة عندما كان يأتي بسيارته البيضاء الصغيرة. كان غنياً ورجلاً، يملك ما يملكه كل الرجال. لقد أحست برجولته وهي حتى هذه اللحظة لم تنس فعله.. ولكنه، ابن كلب، رفض الزواج منها، تهرّب، قدم عشرات التبريرات والحجج فانكسرت زينب أمامه.. أما زوجها مراد الذي يأكل الفقر من كتفيه فقد فقدت على يديه كل الآمال التي كانت تطمح أن تنقذ نفسها بها من الفقر.. ابن الكلب!

الكتاب الرابع -1

النوم في النهار

خيم الصمت على مراد بعد أن توقف الوشيش و الهسهسة في أذنيه. لم يبق إلا السكون المطبق.ماذا، هل انتهى الدوام؟ لم يجب عن تساؤله لأن ثقل أجفانه وتخدر لسانه أجبراه على ألا يجيب! ولكن ما يحيط به، وهذا ما بدا له، ليس عادياً! لا بد أن يكون هناك أمر ما!

رفع رأسه عن فردتي حذائه. أحس بألم مخدر في قفا رأسه. فتح عينيه بصعوبة وأنصت.. كل شيء ساكن، غارق في الصمت. قام وجلس وهو يتلفت حوله..

كانت الورشة فارغة، لا أحد فيها. ماذا، هل انصرف العمال؟ هبّ واقفاً بشيء من الخوف! إي وحق الله انصرف العمال! كيف؟ ألم يروه نائماً؟ لماذا لم يوقظوه أثناء انصرافهم؟

نظر إلى الساعة المعلقة بمعصمه. عقاربها تشير إلى الثالثة والربع. أي ياي.. لقد مضى على انصرافهم أكثر من ربع ساعة!

وهرع إلى باب الورشة فوجده مقفلاً من الخارج. أمسك به بكلتي يديه وراح يهزه بعنف، والقهر يتفاعل مع الغضب في نفسه. كان الباب مقفلاً بإحكام. راح يصرخ وهو مستمر في هز الباب:أبو أحمد..أبو أحمد..

ظل مراد يصرخ رغم قناعته بأن (أبو أحمد) قد انصرف مثل بقية العمال، ولكنه لم يجد لديه سوى الصراخ.. وكم كانت المفاجأة كبيرة عندما خرج إليه أبو أحمد، رئيس الورشة، من خارج بابها المغلق مستغرباً متسائلاً، من يناديه؟

توقف مراد عن الصراخ وهو ينظر بدهشة غير مصدق ما يراه..

كان أبو احمد بدوره ينظر بدهشة إلى مراد الواقف وراء باب الورشـــة كالمحكوم عليه..

تقدم من الباب وعالجه بالمفتاح وهو يسأل: ماذا؟

خرج مراد إلى خارج الورشة. تابع أبو احمد: ألم تنصرف؟ كيف أقفلوا عليك.. أين كنت؟

أطرق مراد خجلاً وقال مجيباً على تساؤلات أبو أحمد: أتدري.. لو لم تتأخر في انصرافك، ولم أستيقظ في اللحظة المناسبة لقضيت ليلتي هنا، في الورشـــة.. ثم حاول مراد أن يضحك، لم يستطع. لقد خرجت ضحكته مرسومة بغير إتقـــان، فزاغ نظره عن يديّ (أبو أحمد) الذي عاد يعالج إغلاق باب الورشة من جديـــد.. صعد الدرجات الثلاث إلى الممر الإسفلتي الذي يؤدي إلى خارج الشركة. سأله أبو أحمد: أخبرني..لماذا لم تنصرف مع بقية العمال؟ حاول مراد مرة ثانية أن يضحك ففشل أيضاً، بلع ريقه وقال: لقد غفوت قبل موعد الانصـــراف بنصـــف ســـاعة، وعندما استيقظت كان الوقت قد تأخر بي كما لاحظت..

ضحك مراد باقتضاب وقال معلقاً: لقد فزعت!

هز أبو احمد رأسه ثم سأل بعد أن خرج من الشركة: لقد لاحظت عليـــك منذ الصباح أنك لست على ما يرام.. قل لي، ماذا بك؟

كان مراد يبحث في نفسه عن السؤال ذاته، ولكنه لم يجد جواباً عليـــه، فرفع رأسه إلى الأعلى وقال بأسى: ليس بي من شيء! ابتسم أبو احمد وقال: لا تحاول أن تنكر. أنت لم تكن على ما يرام اليوم..

ظل مراد ملتزماً الصمت، ثم ما لبث أن قال: دعك من أمري، فأنا لا أريد أن أشغل الناس بمشاكلي.. لأن لكل إنسان مشاكله الخاصة به..

قال أبو أحمد: كلامك صحيح، ولكن عندما يتحدث المرء عـــن مشـــاكله

لإنسان آخر لا يقصد بذلك أن يضيف إلى مشاكل الآخرين، إنمــا يحــاول أن يجلو ما بنفسه من هموم، ومن جهة أخرى، إن وجد لدى الآخر حلاً أو رأيــاً في حل فلا بأس.. فعلى الإنسان أن يساعد أخاه الإنسان إن أمكنه ذلك.. ثــم تابع أبو أحمد سائلاً: أم أن لديك رأياً آخر يا مراد؟

ارتبك مراد للسؤال فأجاب: أبداً يا معلمي، ولكن.. وسكت دون أن يتم كلامه..

ظلا سائرين على الطريق الإسفلتي الذي يصل الشركة بالطريق العام. كان أبو احمد ينتظر من مراد أن يتم حديثه، ولكن مــراد كــان فــي ذات اللحظــة يتساءل: هل يطرح ما بنفسه من هموم ومشاكل على (أبو أحمــد).. أم يتــرك الأمر مجهولاً؟ هل يقول له يا معلمي، زوجتي زينب منذ عدة ليال لا تسمح لــي بالاقتراب منها.. لو قال هذا (لأبو أحمد) فماذا يمكن أن يفيده؟ لو قال له: إنــه منذ الصباح يفتش ما بينه وبين نفسه عن أسباب المحنة التي وجد نفسه فيها، فماذا يمكن لأبو أحمد أن يجيب؟ هز مراد رأسه وهو ينظر إلى وجه أبو أحمــد وقال: والله يا معلمي لا أعرف ماذا أقول لك؟ ثم تابع موضــحاً: أنــت تعــرف مشاكل الحياة.. خذ مثلاً مشكلة تأمين المواد التموينية، إنها وحدها كافية لكــي تلقيك في دوامة لا تعرف فيها رأسك من قدميك فكيف بالمشاكل الأخرى؟

هز أبو احمد رأسه وقال: معك حق. ولكن رغم هذا، يجب أن لا يعــيش الإنسان في داخل نفسه فقط. عليه أن يخرج منها.. أعتقد بأن الحل لكثير مما نعانيه هو في هذا الأمر.. الخروج من النفس إلى الآخرين، ومعرفة مشــاكل الناس من أجل أن يساعد المرء نفسه في حل مشــاكله الخاصــة.. وخاصــة أمثالنا من الناس الذين لا مشكلة رئيسية لهم سوى تدبير لقمة الخبز.. أليس كذلك يا مراد؟

هز مراد رأسه وأجاب بصوت خافت مشوب بالحسرة: صحيح يا معلمي..

كان الاثنان قد وصلا إلى مفرق الطريق، حيث يسلك كل واحــد منهمــا

جهة تعاكس جهة الثاني، فشد كل منهما على يد الآخر وأبو أحمد يقول: إن أردت أية مساعدة فمر علي ولا تخجل..

أجابه مراد: حاضر معلمي..

ظل مراد واقفاً ينظر إلى ظهر معلمه وهو يبتعد، ثم ما لبث أن تابع سيره وهو يعاود استذكار لحظة استيقاظه وخوفه من أن يكون الجميع قد انصرف.. ضحك ساخراً من نفسه وقال: لقضيت ليلتك في الورشة؟ وراح يتصور نفسه وحيداً، يتجول طوال الليل في مساحة لا تتعدى الأمتار الخمسة، يقضي ليلة بين الأدوات والآلات حتى الصباح. ويضحك ثانية، المشكلة ليست لديه، وإنما لدى زوجه. طبعاً يمكن لها أن تظن بأنه، بعد انصرافه من الشركة دَرَجَ مباشرة إلى مقر عمله في ورشة الكهرباء لدى المتعهد عبد الفتاح.. وما أن تبلغ الساعة الثامنة حتى تأخذ زينب في التساؤلات: لماذا تأخر في عودته؟ ثم قال: ما إن تمضي ساعة أخرى حتى تذهب إلى بيت حامد وتسألهم عن أسباب التأخير، فيقوم حامد، هذا ما يتصوره مراد، ويتصل بالهاتف بالورشة، فيكون الجواب: لم يأت اليوم إلى العمل.. يتصل ببيت أهل مراد فيعلن له والده، لم يزرهم منذ شهر.. وهكذا تبدأ رحلة بحثهم عن مراد في المستشفيات وفي المخافر.. أي تقوم الدنيا لدى أهله ولا تقعد..

ويضحك مراد بأسى: هم يعيشون القلق والخوف والتساؤل، عما حل بي؟ وأنا أعيش وحدتي في الورشة في شركة الأعمال الإنشائية جائعاً لا أستطيع النوم.

هز مراد رأسه، ولكن هذه المرة بشيء من الأسى والحزن حتى طفرت الدمعة من عينيه: أعتقد بأنك تبالغ. لو حدث ما تخيلته لما اهتم أحد بأمرك، حتى زوجك زينب!

وصل مراد إلى الطريق العام، توقف للحظة ينتظر سيارة أجرة لنقله إلى

المدينة. ولكنه ما لبث أن شعر برغبة في المشي.. من أجل أن يبحث أسـباب محنته فيما بينه وبين نفسه.

طريق

ها هو مراد، مرة أخرى، أصبح وحيداً، لا أحد يشاركه المسير.. علـى طريق تبدو طويلة.. لو كانت حاله على غير الحالة التي فيها لبـدت قصـيرة جداً.. مجرد دقائق ويصل إلى بيته.. وها هـو يتـرك البريـة التـي تحـيط بالطريق، ويلوذ إلى داخل نفسه، يطرح من جديد السؤال الذي يذبحـه منـذ الليلة الماضية، منذ اللحظة التي قالت له زينب، عندما اقتـرب منهـا: إنهـا تعبانة، فالرغبة تحرقه وتكوي عظامه، ولكن علاقتهما كزوجين كانت تبعـده عن الاقتراب منها. كان لا يريد أن يقربها وهما على زعـل. كـان يريـد أن يأتيها وهما على انسجام، لكي يشعر بطوفان المتعة في أثناء اللقاء، لا مجرد واجب ثقيل يقوم كل واحد منهما به.. ففي الليلة الماضية جلـب معـه، بعـد عودته من عمله المسائي لدى المتعهد عبد الفتاح.. جلب معه «بوظـة» أراد بها أن تكون فاتحة للحظات انسجام وتودد، لكي يقدر أن يقترب منها وهمـا على اتفاق وانسجام، وهذا ما كان «فرح لذلك جداً» ومنّـى نفسـه بـأحلام جميلة، وقال لذاته، أخيراً فرجت»فقام إلى المطبخ، حلق ذقنه وغسـل شـعر صدره وتحت إبطيه، ثم فرك قدميه بالماء والصابون، وفي لحظة الفرح هـذه رغب في الغناء فانداح صوته بأغنية لأم كلثوم: هو صحيح الهوى غلاب.. ثم صفّر بهدوء وهو يلبس منامته.

نظر إلى ظهر زينب الذي يواجهه.. ظهر دقيق، شفاف، تحت ثوب النـوم الوردي الباهت اللون.. شعر للحظة لا غير بقرصة فـي قلبـه، لـديك امـرأة جميلة.. ولكن اللعنة على الفقر! لولاه لألبستها أجمل ثياب الدنيا!

التفت مراد إلى المصباح، ومد يده إلى المفتاح، وأطفأ الضوء بحركة ثقيلة

من يده متنهداً وهو يتقدم من السرير ثم يتسلل إلى جانب زوجه. ظل للحظة لا يتحرك، خاف من أن يوقظها. ثم ما لبث أن ألقى ساعده فوق كتفها ودفع بيده الثانية تحت رأسها، حاول أن يلتصق بظهرها ليقترب بوجهه من خدها الذي يغطيه شعرها الطويل، قالت له بلهجة احتجاجية: دعني..أنا تعبانه...

صُفع مراد على وجهه، لذا تجمد في وضعه، كانت رأسه مرفوعة إلى الأعلى تكاد أن تميل بحركة حانية فوق خدها، وتجمد ساعده الذي تحت رأسها عندما حاول أن يأخذ نهدها بين أصابعه... حتى أنفاسه شعر كأنها انقطعت قبل أن تعود إلى الشهيق والزفير مرة ثانية وهو لا يعرف كيف يتصرف بعد الذي سمعه منها، بماذا يرد عليها؟

هذه هي الليلة العاشرة التي يسمع منها: دعني.. أنا تعبانه..

انهد مراد على الفراش بعد أن سحب يده من تحت رأسها، وتمدد على ظهره، وراح يحدق بنظرة زائغة في السقف.

ماذا يعني أن تكون تعبة لليلة العاشرة على التوالي؟ هل هي حقاً تعبة؟ أم أنها غير راغبة فيه؟

لو أنها تعبة كما تدعي لاستراحت في الليلة الثانية أو الثالثة. أما أن تكون غير راغبة فيه! فلماذا؟ أليس زوجها؟ ثم يتابع: حتى لو كانت غير راغبة، فهذا يمكن أن يحدث للمرأة في ليلة واحدة أو ليلتين.. أما هكذا.. بشكل متواصل، ولمدة عشر ليال، فهذا يدعو إلى السؤال والاستفسار..

ظل مراد طوال ساعات أمس يحدق في السقف وهو يدخن سيكارة وراء أخرى، ويطرح على نفسه السؤال وراء السؤال دون أن يصل إلى جواب مقنع.. وفي ساعة الصباح الأولى، عندما دق الجرس ينبئه بموعد قيامه من النوم والاستعداد لملاقاة السيارة التي تنقله مع بقية العمال إلى الشركة، في هذه الساعة ومع الدقة الأولى لمنبه الساعة عرف، أن محنة ما قد بدأت في حياته..

انسل مراد من جانب زوجه التي ظلت طوال الليـل مـن دون حـراك، ظهرها إليه ووجها إلى الحائط، كانت بدورها يقظة، لا تريد الحراك وتسـوية وضعها. عرف مراد أنها أيضاً تعيش محنة..

لبس ثياب العمل بحركة من يدين ثقيلتين، باردتين كأيدي الموتى.. ولـم تمر دقائق حتى خرج من البيت إلى الشارع، ينتظر السيارة التي اقترب موعد مجيئها وهو يدخن آخر سيكارة من علبة التبغ.. كيف بدأت المحنة يا مـراد؟ أقصد محنتك..

هذا السؤال السهل الذي طرحه على نفسه وجـد صـعوبة كبيـرة فـي الجواب عنه، لأنه لم يعرف بالضبط في أية ساعة بدأت محنته، حتماً لم تبـدأ في ليلة أمس؟ إنما اكتملت فيها وتم الإعلان عنها، نعم لقد اكتملت محنتك يـا مراد في ليلة أمس.. ولكن متى بدأت؟ وكيف؟ هل بـدأت فـي يـوم قبولـك بالزواج من زينب؟ أم بدأت في يوم من الأيام التي سبقت زواجك منها؟ أم في يوم لاحق لذلك؟ لا يعرف مراد كيف يجيب، أنت لا تستطيع أن تجزم أنها بدأت في اليوم الذي قالت فيه والدتك لوالدك: يجب أن نزوجه لنفرح بأولاده.

كان والدك في تلك اللحظة متكئاً على وسادة يستمع إلى اقتراح والـدتك فأجابها دون أن يلتفت إليها: ليس لدي مانع من زواجه، ولكن هلا أخبرتنـي، من أين لنا المال يا حنونة؟

تساءلت أمه: المال؟

أجاب الأب: نعم المال..

كان مراد يحاول أن يظهر أمام والديه بأنه غير مهتم بالـذي يتحـدثان عنه. ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يبلع ريقه ويحاول أن يلتقط كـل كلمـة يتفوها بها.

تابع والده: أنت تعرفين أن الزواج أصبح مُكلفاً في هذه الأيام.. قولي يا

حنونة، من أين لنا المال؟ كان سؤال والده وجيهاً..

في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة تساءل مراد حقاً.. من أين لنـــا المـــال؟ ويتذكر مراد: عندما أتأمل وأفكر بالظروف التي أحاطت بنا كأسرة، أشـــعر أن زواجي، كما تقترح والدتي، سابق لأوانه.. ولهذا – يقول مراد – لا بد لي أن أتذكر ما عانت أسرتي من الفقر – خاصة عندما كان والدي شاباً طائشاً! كان في تلك الأيام، كما تقول أمي، لا يهمه أمر أولاده.. وعنـــدما انقضـــت تلـــك المرحلة من حياته.. راح يسعى بكل جهده من أجـــل أن يضـــمن لنـــا حيـــاة كريمة.. ولكن الظروف لم تعد تعينه، فقد استحكم الفقر في مفاصـــل الأســـرة وأخذ يرافقها في حلها وترحالها.. فراح والدي يقطع على أولاده، وأنـــا مـــن ضمنهم دراستهم ومطامحهم في إتمام علومهم. كان ما إن ينال ولد من أولاده الشهادة الابتدائية حتى يخرجه من المدرسة ويرسله إلى العمل. كان في بعض الأحيان يختار العمل الذي يجب أن يعمل فيه أحد أبنائه، وفي أحيـــان أخـــرى يترك لنا حرية الاختيار كان يقول جملته الخالدة لكل ولد من أولاده، بعـــد أن يُخرجه من المدرسة: اسعَ من أجل لقمة عيشك يا بني مثلما سعيت أنا حتـــى من دون الشهادة الابتدائية!.

يقف مراد عند هذه النقطة، لأنها برأيه واحدة من أهم محطات حياتـــه.. لذا عليه أن يفكر بها مطولاً، يسأل نفسه السؤال الـــذي يذبحـــه منـــذ الليلـــة الماضية: هل كانت هذه المحطة بداية محنته؟

قطع مراد تساؤله هذا بتساؤل آخر، هل ابتدأت محنته في تلك الســـنة؟ السنة التي ترك فيها المدرسة؟ هو الذي كان يطمـــح إلـــى إتمـــام دراســـته والحصول على أعلى درجات العلم.. أم أن تلك الوقفة التي يعتبرهـــا إحـــدى المحطات الفاصلة في حياته ليست لها علاقة بما يعيشه اليوم؟

وبعد طول تفكير، كان قد وصل إلى مدخل المدينة، قريبـــاً مـــن ســـوق

الجمعة الجديد، تأكد له، أن تلك السنة – المحطة لا علاقة لها بمحنته اليوم.. لأنه، وهذا يتذكره جيداً، عندما ترك الدراسة كان لا يستطيع أن يسأل والـــده: لماذا تريد أن أترك المدرسة؟ وذلك لسبب بسيط هو إن إرادة والده هكذا! إذن عليه، مثله مثل بقية إخوته، أن يخضع لرأي والده ورغبته. لذا ترك المدرسة وذهب يبحث لنفسه عن عمل يمكن أن يعينه في الأيام القادمة على الحياة.

واليوم، عندما يحاول مراد أن يفكر: لماذا لم يقل لوالده: أريد أن أكمل دراستي؟ يضحك.. نعم يضحك ويقول لنفسه: وهل كان بمقـــدورك أن تقـــول هذا؟ لو قلت له مثل هذا الكلام في تلك السنة لحدث أمر بسيط لا تحبذه. لقال والدك باختصار شديد: ماذا؟ أتريد يا بن الكلب أن تكمل دراستك؟ ثـــم يقـــوم وينهال عليك بالضرب المبرح لا يشفع لديه شافع مـــا... إلاّ شـــفاعة اللـــون الأزرق النيلي الذي سيصبغ جلدك..

ويعود مراد يسأل نفسه: هل ابتدأت محنتي يا ترى، في تلك الأيام التي كنت لا أستطيع فيها أن ارفع وجهي إلى والدي وأعبـــر لـــه عـــن رأيـــي؟ لا أستطيع إلاّ أن أقول له: حاضر.. كما تريد يا أبي..

لم يجد مراد الجواب فعاد إلى تساؤله من جديد: كم كانت حياتك معقـــدة وغامضة ومشوشة حتى إنك لا تعرف شيئاً عنها!

ورغم هذا كان قد صمم على أن يعرف كيف بدأت؟ ومن أيـــة حادثـــة أو موقف أو وضع بدأت محنته التي يحصد اليوم نتائجها.. ولكنه قبل أن ينتقل إلى البحث عن حادثة ما، يرى فيها بداية الخيط لتوصله إلى أســـباب محنتـــه، أراد استعراض موقف والدته من زواجه. كانت والدته تؤكد لوالده، إن المال لم يكن في يوم من الأيام عقبة أمام الزواج.. لذلك لن يكون اليوم أيضـــاً عقبـــة أمـــام زواج مراد؟ غضب والده، ثم ما لبث أن شتم شيئاً ما في نفســـه. كـــان مـــراد يعرف أن والده قد شتم والدته. وقال موضحاً: يا بنت الكلب.. ثم تابع بصـــوت

عال: أعرف ذلك. ولكن هذا الأمر يعني أن نذهب إلى هذا أو ذاك نطلب منه أن يقرضنا بعض المال. طبعاً أي شخص أذهب إليه سيلبي لـــي الطلـــب، خاصـــة عندما سيعلم أنني أرغب في تزويج مراد.. ولكن يا امرأة.. هذا لا يعني أنني لن أرد للناس أموالهم.. سنعيده حتى آخر قرش.. أم لديك رأي آخر؟

كانت والدة مراد (تزعل) من والده وتقول لـــه: لا بـــأس.. أنـــت بعـــدم حماسك هذا لتزويجه تريد أن ندعه للرذيلة والفجور.. انه شاب.. ثم إن شئنا أم أبينا سيسلك طريق الـــ.. ثم تضيف: هنالك بعض الأسر لا تسأل عن المال، إنما تسأل أول ما تسأل عن الشاب المقتدر الذي سيستر ابنتهم...

كان والد مراد يقول سائلاً بضيق: ماذا.. هل سنقضي يومنا بالبحث في زواج ابن الكلب هذا؟ ثم يتابع ناهراً: خلص.. عندما أستطيع أن أزوجه لـــن أتأخر عن ذلك ساعة واحدة..

هذا كان موقف والدته. موقف يتسم بالخوف على ابنها من السقوط في أحضان الرذيلة والفجور...

مدام زوزو

سمع مراد والده يقول لوالدته، وهو متكىء على أريكة يشـــرب كـــأس شايه: أعتقد بأن قضية زواج مراد ستحل عما قريب؟

سألت الأم بعد أن فاجأها الخبر: كيف؟

أجابها والده: لقد اخبرني جميل السالك: بأن له صديقاً له ابنة مثل قطعة السكر، وإن تدّخل في أمر الزواج فلن يُرد خائباً.. ثم قدم لي معلومـــات عـــن أسرتها، وعن ابنتهم.. فالأسرة مثال الشرف. أما البنت واسمها زينب فهـــي صغيرة لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها. ولكن...

عند هذه النقطة التفت مراد إلى والده، لأن كلمة «ولكن» شدته للالتفات، وتساءل: ماذا سيقول والده بعد هذه الكلمة؟

تابع الأب: أخبرني جميل السالك، إنها رغم صغر سنها مطلقــة.. نــدت عن الأم صيحة فزع: ماذا؟ مطلقة!

هز الوالد رأسه و أجاب: نعم..

لوت الأم رأسها علامة الاستياء وقالت: لم يبق إلا أن نزوج ابننـــا مــن مطلقة؟ ثم تابعت باستنكار: لو أنها فتاة جيدة لما طلقها زوجها؟

علا صوت والده في وجه والدته قائلاً: يا امــرأة لا تتعجلـــي الأمــور.. اسألي أولاً عن أسباب طلاقها.. ثم أطيلي لسانك بحقها بقــدر مـــا تريـــدين..

أجابت والدته بحدة: مهما يكن.. فأنا لن أزوج ابني من مطلقة!

تابع الوالد كلامه كأنه لم يسمع ما صرخت به زوجه: لولا دناءة مطلقها لبقيت اليوم بكراً.. ولكن خسته هي التي جعلت الفتاة الصغيرة امرأة مطلقة..!

ثم أخذ والد مراد يسرد على زوجه أخبار البنت المطلقة: أولاً لــم تبــق عند زوجها سوى ثلاثة شهور. طلّقها والدها منه لأنه لم يكــن رجــلاً.. لــم يستطع أن يقوم بما يقوم به كل رجل.. وعندما رفضت البنت أن تبقى لديـــه: رغم الإغراءات المالية، فضها بإصبعه.. ولولا الاعتبـــارات لكانـــت بينهمـــا المحاكم حتى اليوم.. وقد عوّض مطلقها العنين عن الضرر الذي ألحقه بها.. ثم عادت إلى بيت أهلها..

سكت والد مراد، ثم ما لبث أن تابع: هل عرفت سبب طلاقها الآن؟

نظرت والدته إلى زوجها كأنها لا تصدق الحكاية، فقالت: ماذا لو كـــان أصل هذه الحكاية كذباً بكذب؟ وكان طلاقها لأمر آخر؟

أجاب زوجها: خافي من الله يا امرأة.. لقد انتحر مطلقها بعد ثلاثة أشهر من طلاقها..

هزت والدة مراد رأسها وقالت: لا أدري.. أنا لا أرتاح لامــرأة كشــف عنها رجل.. ثم إنه ابنك.. اسأله أن كان يرضى الزواج من امرأة مطلقة؟

كان مراد قد وصل إلى مركز الانطلاق الشرقي للسيارات، وقبل أن يعبره

سأل نفسه: هل بدأت محنته من ساعة قبوله الزواج من زينب المطلقة؟

كان مراد مثل أمه لا يريد أن يتزوج من فتاة كشف عليها رجـل قبلـه. كان يرغب في الزواج من فتاة عذراء.. ولكن أوضاع والده الماليـة وخوفـه الشديد منه، أرغماه على الزواج من زينب. فهل بدأت محنته من هذا الخوف؟

يتذكر مراد أيام زواجه الأولى، كانت جميلة وهنيئة، وقد نسي ذلك الأمر المزعج المتعلق بفض البكارة. ها هو يجد نفسه سعيداً لأنه تزوج من زينـب بالذات. كانت جميلة أو أن جمالها كان من النوع الملفت للنظر! والأمر الآخر الذي سعد من أجله هو علاقة زينب الطيبة بأمه. أما الأمر الثالث فهو صمتها وسكونها. كانت لا تنطق إلا بما هو ضروري للنطق به. كـان بطبعـه يكـره المرأة الثرثارة ذات اللسان الطويل.. وكان قبل زواجه يخاف أن يكون نصيبه واحدة منهن..

بعد مضي الأيام السعيدة الجميلة الهنيئة.. أخذت تنكشف له المفاجـآت واحدة تلو الأخرى.. كانت أولى المفاجآت وقاحة زينب في أثنـاء ممارسـتها الجنس! لأن زينب كانت لا تعرف الحياء والخجل، والأمر الذي تتصف به كـل امرأة مقبلة على الزواج.. كان مراد ينظر إليها فيراها تخلع عن نفسها الثياب الداخلية بطريقة متقنة كأنها امرأة متزوجة منذ سنوات طويلة... أما المفاجأة الثانية فأوضاعها في الفراش. كانت تستجيب له كامرأة تملك خبرة قديمـة.. وهكذا أخذت الأيام الهنيئة تنقضي وتحل مكانها أخرى كلها قلق وتساؤل. كان مراد يبدأ يومه بتساؤل وينتهي بتوليد عشرات التساؤلات الأخرى. كان يسأل نفسه: لقد قال والدي أنها مطلقة من دون إيلاج..إذن من أين هذه الخبرة التي لا تملكها سوى امرأة متزوجة منذ سنوات؟ وفي ذات يوم وهـو فـي حالـة غضب وضيق أراد أن يسألها عن ذلك بعد أن فشل هو فـي الجـواب عـن تساؤلاته، ولكنه عجز في آخر لحظة عن النطق فبلع ريقه وهو ينظـر إلـى

وجهها. ثم ما لبث أن أطرق والقهر يأكل من أطراف كبده. سألته والدته ذات يوم: ماذا يا بني.. أراك حزيناً حزناً شديداً.. ما بك؟

أجابها ليس بي من شيء يا أماه..

كان يعاني من الحزن الذي يشق صدره ويرمي حياته ما بين التســاؤل المر والقلق المدمر، ثم جاء شجار والدته مع زينب ليكمل له تعاسته تمامــاً.. عندما علم مراد بأول شجار بينها وبين أمه قال: هو الشجار الأول وســيكون الأخير! ولكن الشجار تكرر في الأسبوع الذي تلا الأسبوع الأول.. ثــم أخــذ يتكرر إلى أن أصبح يومياً..

في البداية أهمل الموضوع ولم يأخذه على محمل الجد، كان قد قــرر ألا يتدخل في شجارهما، فهما امرأتان ستتوصلان إلى صلح فيما بينهما.. ولكــن الأم ما لبثت أن أخذت تشكو إليه أمر زوجه زينــب.. فهــي، حســب أقــوال والدته، لا تفرق بين كبير وصغير، ولا تقيم أي وزن لها..

أجابها: طيب يا أماه..

هذه الجملة قالها لزينب أيضاً عندما حدثته عن أنانية أمه، ولكن الجملة هذه لم تحل له المشكلة. إنما زادتها تعقيداً، لأن أمه قالت لــه والــدمع فــي عينيها: أنا أمك.. التي حملتك في بطنها تسعة أشهر وكابدت العذاب والســهر على تربيتك حتى أصبحت شاباً.. وها أنت ذا تفضلها علــي.. ثــم أجهشــت بالبكاء. أما زينب فقالت: إن لم تجد حلاً للمشكلة فسأعود إلى بيت أهلي..

سألها عن الحل الذي تقترحه، أجابت الاستقلال عنهم..

هز رأسه و أراد أن يقول لها، كيف يمكننا أن نفكر بالاستقلال عنهم وأنا لا أملك مالاً لشراء حجرة واحدة، فكيف لنا بشراء بيت كامل؟

رفعت زينب كتفها مهددة: إن لم تسع لذلك سأذهب إلى بيت أهلي ولــن أعود إليك..

قال لها: لا بأس.. أنا أيضاً غير مرتاح للسكن مع أهلي، ولكن هل لـــك اقتراح أو طريقة معينة تمكنني من شراء بيت؟

عادت زينب إلى هز كتفها غير مبالية وقالت: لا أعرف.. أنـــت رجـــل.. ابحث بنفسك عن الطريقة التي يمكنك بها شراء بيت لنا.

كان مراد يملك عشرة آلاف ليرة سورية استطاع توفيرها فـــي ســـنوات خدمته العسكرية في لبنان بعيداً عن عيون والديه.. وبعد أن سُرح من الجيش عمل في تصليحات الأدوات الكهربائية المعطلة بعد انتهائه من عمله في شركة الأعمال الإنشائية... .ولكن...

يعود مراد يتساءل في يأس وقنوط: ماذا سيفعل بهذا المبلـــغ الزهيـــد؟ كيف يمكنه شراء بيت؟ ذات يوم عاد والده إلى البيت وكان مراد قد تشـــاجر مع أمه بسبب زينب فوجد زوجه تبكي. سألها: ماذا في الأمر؟

سردت والدة مراد تفاصيل الشجار الذي تم بينها وبـــين مـــراد بســـبب زينب. التفت والده إليه.. ثم بحركة سريعة صفعه صفعة قوية وراح يشـــتمه بِغْلِ: ابن الكلب..أين فا.... لأربيها لك؟

وأخذ يصرخ بأعلى صوته أن تأتي إليه..

هذا الحادث دفع بمراد إلى البحث المضني والمستمر عن بيت لشرائه.. وذات يوم، دلّه أحد الأقرباء على سمسار في حارة «الشيخ مقصـــود» يبيـــع بطريقة التقسيط الشهري..وبعد اللقاء معه والحديث.. ضحك السمسار وقال: لو كان المبلغ أكبر بقليل لهان الأمر. أما أن لا تملك سوى هذه الآلاف العشرة فلن يرضى أحد من المتعهدين به.. ولكن السمسار ما لبث أن قال: رغم هـــذا مرّ عليّ غداً، لدي بيت ولصاحبه شروط، لا أستطيع أن أحدثك عنها قبـــل أن أراه.. تعال إليّ غداً.. قد تكون النتيجة خيراً؟

لم ينم مراد تلك الليلة في بيت أهله. إنما ذهب إلى أحد أصـــدقائه ونـــام

عنده. وفي اليوم الثاني ذهب حسب الموعد المقرر إلى السمسار، وفي مكتبه كان لقاء مراد الأول مع «مدام زوزو». قام السمسار بالتعـارف، ثـم توجـه بحديثه إلى مراد مشيراً بيده إلى «مدام زوزو»: الأخ، هو صـاحب العقـار. صافح مراد بحركة رخوة وهو يبتسم ابتسامة ماجنةً، ثم ضـحك مفـر قعـاً بلسانه لبانة وقال متوجهاً بكلامه إلى السمسار: لا مانع لدي يا أستاذ حامد.. إنه شاب وهو المطلوب؟ وخرج من المكتب..

لم يفهم مراد شيئاً. التفت إلى وجه السمسار كأنه يسأله: ماذا يعني هذا؟

ابتسم السمسار وقال: لديه بيت جيد، غرفة وصالون.. لقد حدثته عـن وضعك الصعب وقلت له: إنه شاب نبيل، يكاد أن يخرب بيته بسبب سكناه مع أهله. ثم قلت له: إن أمكنك فساعده؟ فأجابني ــ الشهادة لله ــ بإيجابية تامة، ليس لديه مانع. ثم اتفقت معه على أن تدفع له المبلغ الذي في حوزتك. أمـا الآلاف الثلاثون الباقية من ثمن البيت فيمكنك أن تدفعها له على شكل أقسـاط شهرية خلال خمس سنوات..

عندما سمع مراد هذا العرض أصابته دهشة التسـهيلات التـي قـدمها صاحب العقار له! فبلع ريقه وقال باندفاع: موافق.. اليوم أستطيع أن أجلـب المبلغ الذي لدي.. ابتسم السمسار حامد وقال: طوّل بالك.. دعني اتمم لـك.. انكمش شيء ما في صدر مراد وقال بدون حماسة: تفضل..

تقدم السمسار بجذعه وقال: افتح لي أذنيك.. ولا تتسرع في الجواب عن الذي أريد أن أقوله لك، وهو من شروط بيع العقار.. أي عليك أن تقدر الأمر، أقصد أمرك الذي أنت فيه.. ثم إن تم الاتفاق، سيبقى ما سأطرحه عليك بيننـا نحن الثلاثة..أنا وأنت وصاحب العقار..بلع ريقه ثم تابع: أعتقد أنـك تأملـت صاحب العقار.. وأعتقد لاحظت أن شكله..؟

هز مراد رأسه وهو يغوص في نفسه محـاولاً بـذلك أن يختفـي عـن

الوجود. تابع السمسار بتردد ولكن بلغة واضحة لا لبس فيها: عليك أن تلبي له رغباته؟؟ هذه هي شروطه للبيع.. ثم لا تنس أن البيت الذي يملكه يساوي اليوم أكثر من ثمانين ألف ليرة، فهو كما رأيت وافق على بيعه لك بنصف ثمنه الحقيقي..

في تلك اللحظة التي كان مراد يغوص في نفسه، شعر أنه ينقسم إلى مرادين.. مراد يريد القيام والخروج من المكتب وهو يبصق في وجه السمسار.. ومراد ثان تشبث بالكرسي الذي كان يجلس عليه ويقول: موافق.. لذلك شعر مراد الأول أنه يقوم ليلف ويدور في الأزقة والشوارع والأسواق، ثم يعود إلى بيت أهله بعد أن نسي أن زينب ليست هناك، نسيّ قسمها على أنها لن تعود إليه إلا في حالة الاستقلال عن بيت أهله وذويه. وكان قد نسي أيضاً أنه، منذ أسبوع ينام عند أحد الأصدقاء.. كان مراد قد نسي كل هذه الأمور، ولكنه عاد وتذكر هذه الأشياء المنسية عندما وقف أمام بيت أهله. مما دفعه إلى أن يتذكر أيضا ً نظرات والده إلى زينب بين حين وآخر! نظرات رأى فيها جوعاً قديماً.. دار مراد الأول ولف حلب كلها، ثم عاد إلى السمسار حامد، ليندمج بمراد الثاني الذي ظل قابعاً في مكتب السمسار للاتفاق على الصفقة.. ولم تمر الساعة السابعة مساء حتى كان مفتاح البيت مع مراد.. وقبل أن يخرج من مكتب السمسار حامد التفت إليه وقال له في انكسار وصوت مخنوق: أرجو أن يبقى السر بيننا كما أخبرتني.. نحن الثلاثة فقط.

ابتسم السمسار بارتياح كأنه أزاح عن كاهله عبئاً ما وقال: لا تهتم.. سرك في بير...

أكثر من رجل

قال مراد لنفسه ساخراً: ها أنت مثل البغل العنيد تطرح الأسئلة على نفسك ولا تريد الجواب عليها! لأنك لو أجبت لاسترحت من عذابك الداخلي

الممزق.. وها هي زوجك تكرر لليلة العاشرة: أنهـا تعبانـة! جملتهـا هـذه أصبحت نغمة متكررة ترددها ليلة بعد ليلة في وجهك. هذه الجملـة أصـبحت لازمة أثيرة لديها، تبعث الرضا والراحة في نفسها لذا رحت يا مراد يـا ابـن أحمد السيد تطرح على نفسك الأسئلة: لماذا هي تعبة؟ هل هي تعبة حقاً أمـا أنها ترفض أن تأخذها بين ساعديك لأنها...

وسكت مراد لا يكمل ليعيد الصياغة على الشكل التالي هل عرفت زينـب بأمره مع مدام زوزو.

وفجأة يتخيل مراد، زوجه زينب تنظر إليه بهزء وسخرية، ثم ما تلبـث أن تقول له: لو أن الأمر تم ـ أقصد الخيانة ـ مع امرأة، كـان يمكننـي أن انتزع عينيك من محجريهما. أما أن يتم الأمر مع رجل يتشبه بامرأة؟ هـزت زينب رأسها ـ هكذا تخيّـل مراد ـ وقالت: فهذا الأمر لا يصدق.. لا يفسر.. ساعدني يا إلهي! أيمكن؟ يتساءل مراد، لقد وعدني السمسار، أن يبقى الأمـر بيننا نحن الثلاثة فقط! لا.. لا يمكن للسمسار أن يفضحه بهذه الطريقة...عـاد مراد وتابع بشيء من الغضب: لنفـرض أن السمسـار قـام بفضـحه أمـام زينب..كان عليها أن تقدر لي هذا الأمر! لأنها تعرف، أو ستعرف أنني لم أقبل بهذا الأمر إلا إكراماً لها.. من أجل أن أنقذها من سلاطة لسان والدتي.. لو لم أقبل بشروط «مدام زوزو» لما استطعت شراء البيت، لما اسـتطعت إعادتهـا إلي، لعاشت مهجورة في منزل والديها.. مهجورة رغماً عني.. فرغم حبي لها فأنا لا أستطيع أن أشتري بيتاً خاصاً بنا.. طوح مـراد يـده أمامـه بحركـة انفعالية غاضبة. كان قد وصل إلى مديرية الإصلاح الزراعي، حيث انحدر من أمامها باتجاه حارة الشيخ مقصود..

كان مراد قد هدأ إلى حد ما، كأن الحركة التي قام بها أرضـته، فتـابع: نعم.. من أجلها.. لأنني أحبها.. أُجبر نفسي على معاشرة هذا الصـنف مـن

الناس.. يجب أن تقبلني من بين عيني للتضحية التي أقوم بها من أجل خاطر عينيها.. أما أن تقابلني ببرود فأعتقد بأن هذا الأمر غير نبيل من جانبها..نعم إنه موقف يدل على جحود ولؤم.

شعر مراد بأنه ظلم زينب عندما وصفها بالجحود واللؤم، لذا حـــاول أن يتخيلها على غير الصورة التي رسمها لها في نفسه.. طبعـــاً، لا لشـــيء، إلا لأنه يحبها.. ومع الحب عادة تأتي الأماني والأحلام.. تمنى لو رآها ــ عندما سيدخل إليها بعد حين ــ نائمة.. ليست نائمة، إنمـــا تتظـــاهر بـــه.. تنتظـــر عودته.. وها هو مراد يزقزق من الفرح عندما يراها بانتظاره عارية، يفـــرح وينشد في نفسه الأغاني.. يتقدم منها، يجلس على حافة السرير فيصـــر فـــي زقزقة حادة.. ينظر إلى زينب، ما يلبث أن ينفخ بهدوء على وجهها.. فتتطاير شعيراتها النائمة فوق عينيها، وبعد المحاولة الثانية تبتسم. دفعـــة واحـــدة.. ترفع جذعها وهي تمد ساعديها إلى عنقه وتتعلق به وتهتف: آه منك!

ولكن زينب ما تلبث أن تتركه وتدير له ظهرها وهي تقول: أخس.. أنـــا ظننتك عارياً من الثياب؟ فإذا أنت بكامل لباسك! ارتبك مراد لما ســـمعه مـــن زينب، ولكنه ما لبث أن قام بحركة خرقاء وبدأ يخلع ثيابه بسرعة مجنونـــة. ثم رمى بنفسه إلى جانبها،يضمها إلى صدره، يلتصـــق بظهرهـــا، حـــاول أن يديرها إليه، ليصبحا وجهاً لوجه، ليغمر فمها بقـــبلات كثيـــرة، ثـــم عنقهـــا وخديها.. ولكن زينب ترفض الانصياع له لليلة العاشرة، ترفض أن تنصـــاع لمحاولته في إدارة وجهها إليه، ترفض أن يداعبها، ترمي في وجهه كلمتهـــا الأثيرة: أنا تعبانة! يعود الألم يتسلل إلى قلبه فيسأل: ماذا دهاكِ.. ها أنت منذ عشرة أيام تقولين إنك تعبانة.. ماذا في الأمر؟

تظل زينب صامتة لا تجيب، تتظاهر بالنوم.. يسألها بإصرار: لماذا أنـــت ساكتة؟ تكلمي عن أسباب تعبك؟ لا تجيب. فيغضب في نفسه، ثم ينفجر قائلاً:

أنت لا تكسرين الحجر حتى أصدق أنك تعبانة..ماذا فـــي الأمـــر؟ قـــولي.. لا تجيبه. تظل نائمة، أو تتظاهر بالنوم. يسأل مراد نفسه: بنت الكلـــب لمـــاذا لا تجيب؟ يعود إلى صراخه بصوت عال هذه المرة: أنا رجل..بحاجة إلى..

يقف لسانه عن تكملة ما أراد قوله، لأنه شعر بخجل من نفسه، فيتـــابع: ها أنا أسعى إليك كل ليلة فترفضين بحجة التعب.. لا بأس.. هيا أخبرينـــي.. كيف أنت تعبانة؟ و يلوي عنقه باتجاه الجدار الـــذي يفصـــل الســـرير عـــن الخزانة، ثم يتابع: من المفروض أن يكون التعبان هو أنا وليس أنت؟ ويحتـــد مراد أمام صمتها وسكوتها فيصرخ بها، يطالبها أن تحدثه عن أسباب تعبها..

ظلت زينب ملتزمة الصمت لا تفصح.. ولكن مـــراد لا ييـــأس يجـــب أن يعرف أسباب تعبها مهما كلفه الأمر، فهي أولاً وأخيراً زوجه، والزوجة يجب أن تجيب عندما يسألها زوجها..وها هي تلك اللحظة تأتي يا مراد.. وكم كانت باردة عندما التفتت إليه، نظرت إلى وجهه نظـــرة فيهـــا الكـــره والاحتقـــار والشفقة، ثم قالت له بصوت هادئ يحمل بين طياتـــه الخبـــث والســـخرية و الاحتقار: أتريد أن تعرف لماذا أنا تعبانة؟

أجابها مراد بتردد: نعم أريد..

وقبل أن تجيبه، تخيل أن زينب قد ابتسمت له بسمة ساخرة، ثم أجابـــت ببرود قاتل: لا بأس..لأنني لا أقدر على إرضاء..

ماذا؟ صدر عنه صوت كالصرخة المكتومة..لذا عاد وكرر بصوت خافت كأنه يطلب منها أن تبوح له بسر: ماذا؟ رجلين! نعم..

أدارت ظهرها له من جديد. أما مراد فقد عاد وســـألها بتـــذلل وهـــو لا يصدق ما سمعه منها، كان يريد أن يخلق في نفسه أملاً. كان يود أن يسمعها وهي تضحك له وتقول: ها أنت صدقت ما أخبرتك به.. وتضحك مـــن جديـــد: ماذا. ألا تعرف المزاح؟ وترفع زينب جذعها وهي تلقي بساعديها على كتفيه

وتتابع: حقاً أنا تعبة. لقد عملت طوال اليوم في تنظيف البيت.. ورغم هذا لـم أنتهِ بعد منه. لذا ليست لي رغبة في.. وتضحك زينب بخبث وهـي تخفـي نفسها تحت الشرشف..

تنهد مراد وقال معلقاً على ما كان يتخيله: آه لو قالت له هذا.. لضحك وفرح ثم نام مرتاحاً يحلق على أجنحة السعادة..

ظل مراد متابعاً سيره وهو يقترب من جسر حارة الشيخ مقصود. أما زينب فظلت صامتة، لا تنبس بحرف... ظلت مديرة له ظهرها.. أبعد رأسه عن الوسادة، ابتعد بكامل جسده عنها، كأنها اللعنة الشيطانية التي يهرب منها الإنسان.. راح يكرر بينه وبين نفسه: ماذا؟ أيمكن أن يكون هناك رجل آخر.. غيري؟ أيمكن ذلك؟!

ولأول مرة تأمل مراد جسدها بنظرة جائعة، لحم أبيض بض جميل. كم كان يحسد نفسه لأنه يملك امرأة بهذا القدر الكبير من الجمال؟ ولكن.. ابتعد عنها خطوة أخرى وهو ينظر إلى جسدها باحتقار. تمنى لو لم يمسسه أبداً. لو أن لعنة حلت به فشوهته وقطعت العضل فيه، وسحقت القلب في الصدر، كسرت عظام الحوض، وشوهت تلك القطعة اللحمية الطرية القباء التي عرفت يد رجل آخر!

القبر المائي

للحظات شعر مراد بالصمت يحيط به. كل ما حوله ساكن، تمر به السيارات من دون أن تحدث ضجة، يمر به الناس من رجال ونساء وشيوخ وعجائز دون أن يصدروا أي صوت كأنهم يسيرون على أرض إسفنجية، أو أنهم أناس من طيف لا وزن لهم! حتى الأشجار الخضر التي على جانبي الطريق لا تلعب بين أوراقها نسمة أو حزمة من هواء ثقيل مشبع بالغبار والحرارة. كان العالم من حوله أشبه بمدينة انقلبت إلى جماد بفعل ساحر! أما عالمه الداخلي فوحشي مضطرب، لا يرحم، كثير الموج، عاصف، صاخب، شديد القتامة.

كان مراد يحاول أن يعوم ما بين الموج العاصف الذي يتقاذفه، لكـــي لا يغرق. يريد إنقاذ نفسه من الموت، ولكن ما إن تدفعه موجة للأمام، إلى رمل الشاطئ، حتى تدفعه موجة ثانية إلى الوراء، إلى خضم الماء الهائج فيرتفـــع عالياً، يرتفع كأنه محمول على أكف وسواعد وأعناق عفاريت الماء ثـــم مـــا تلبث الأيدي أن تنسحب من تحت جسده فيهوي إلى القاع من الظلمة البـــاردة فتنطبق من فوقه المياه، ثم تنطبق عليه تضغطه إلى الأسفل، تريد أن تقبـــره في الماء.. فيشهق هاتفاً باسم أبيه لينقذه، وأحياناً باسم أمه يطلب منهمـــا أن يسرعا لإنقاذه من الموت غرقاً في بحر ذاته العاصف..

فجأة يجد نفسه يصعد بسرعة للأعلى، تدفعه من الأسفل قوة شـــيطانية إلى السطح، فيلمح من بين مويجات الماء العاصف زرقة السماء الشفافة.. ثم تدفعه الأيدي المائية إلى الشاطئ لترميه على الرمال.. يغرق في الصـــمت إلا من وشيش يتلاشى في أذنيه.

يحاول مراد أن يُغرق نفسه في الصمت. لا يريد أن يسأل عـــن أســـباب محنته. فهو قد رمى بمحنته وراء ظهره. كان يريد أن يصل في أقرب فرصة إلى البيت ليلقي بنفسه على السرير وينام. قرر أن لا يذهب إلى العمـــل بعـــد ظهر اليوم، يكفيه أنه اشتغل اليوم في شركة الأعمال الإنشائية.. وإن جـــاءه أحد العمال وسأله لماذا لم تأت اليوم إلى العمل، سيجيب، أنا لست موجوداً في البيت. اذهب وقل هذا لعبد الفتاح.. أريد اليوم أن أرتاح، فقد تعبت من العمل ظهراً ومساءً، مثلما تعبت زوجتي زينب من ممارسة الـــ...

واحتد مراد في نفسه وهو يتابع: نعم سأطرد أي إنسان يسأل عني مـــن العمال، حتى لو كان السائل عبد الفتاح... نفسه.. سأطرده، سأقول: لن أعمل اليوم. أريد أن أرتاح..أرتاح..

وشعر مراد للحظة واحدة بأنه خلق من نفسه شخصية هامة، لذا تساءل

ساخراً: من أنت حتى يأتي عبد الفتاح... ليسأل عنك؟ أتعتقد ســتؤثر علــى عمله في الورشة إن لم تذهب اليوم إلى عملك بعد الظهر؟ لو فعلت ذلك لجلب عاملاً آخر ببساطة.. يوم غد..

احتد مراد مرة أخرى في نفسه وقال غاضباً: أنا لا أعطي لنفسي أهمية.. كل ما في الأمر لا أريد أن أعمل اليوم بعد الظهر. أريد أن أرتاح.. أن أفكر.. أقصد ألاّ أفكر متى بدأت محنتي، ما هي الأسباب التي جعلتني أجــد نفســي فــي قلبهــا... وأعصر مخي، أفكر.. من يكون الرجل الآخر الذي ينام في حضن الفاجرة؟

ويسخر مراد من نفسه: ماذا يفيدك لو عرفت مــن هــو؟ لــن يفيــدك بشيء.. ويردد بحدّة: سيساعدني هذا على اتخاذ قراري في الطريقــة التــي سأنتقم منه بها.. كيف يمكنني أن..

ويثور مراد على نفسه ويجن وهو يتهمها بالجبن، ثم ما يلبث أن يقــول: أنــت تبحث عن أسباب محنتك، ومتى بدأت؟ أتعتقد بأنك لا تعرف ذلك؟ يضحك مراد ساخراً من نفسه و يتابع: ببساطة ابتدأت في أول لحظة ضعف لك.. ثم موضحاً: لقد ابتــدأت منذ اللحظة التي وافقت فيها أن تتنازل عن بعض ما كنت تراه حقاً طبيعياً لك. أي منذ لحظة موافقتك على الزواج من امرأة وليس من فتاة عذراء! منذ..

اللعنة! ما أريد قوله، هو أنه لولا الضعف وبعض المســاومات لا يمكــن للإنسان أن يعبر بوابة حتى على ارتفاع متر واحد.. سيرتطم رأســه وصــدره، وحتى جذعه بالقنطرة التي فوق البوابة... إذن لا بد من الانحناء و إلا لن يقدر على العبور.. إذن، تابع مراد، أنت تعتقد بأنك انحنيت لتعبر القنطــرة الواطئــة لأنه ــ حسب رأيك ــ لا بد من الانحناء! أي من أجل شراء بيت انحنيــت لــــ مدام زوزو لا بد من الانحناء لأجل الزواج.. فانحنيت لزينب موافقاً على الزواج من امرأة... وشاط مراد بقدمه حصوة كبيرة الحجم كانت في وســط الرصــيف المحاذي لسور مديرية الإصلاح الزراعي فطارت الحصوة عالياً، ثم سقطت على

طرف الرصيف متدحرجة لتسقط فوق الطريق الإسفلتي، عاد وسأل نفسه: لـم تقل لي عن سبب انحنائك الأخير.. أجاب: من أجل؟

هز مراد قبضته في وجه الرجل القابع في ذاته الذي أخذ يشـد الخنـاق عليه بأسئلته وقال: ألا قل لي، ما هي أسباب محنة زينب؟ متى بدأت محنتهـا هي بالذات؟ فأنا أعترف بأنني عجزت عن الصـمود والمقاومـة فـي وجـه الإغراءات. أما هي فأمام أي شيء عجزت؟ أنا ضعفت أمام هجـوم والـدي وأمام «مدام زوزو» وأمام زينب.. أما هي فمن أجل ماذا ضعفت وعجزت؟

وهنا تذكر مراد بسمة زينب الساخرة التي ارتسمت على وجهها وهـي تنظر إليه بانحراف في نظرتها، وبعد طول زمن قالت له كلاماً غامضاً: مـن أجل بقعة شمس! ماذا؟

وظل ينظر إليها وهيجان غامض يلوب في نفسه، يدفعه إلى الحركة في مكانه لينفث الضغط الداخلي الذي يعاني منه، ثم قال باسـتغراب: أيـة بقعـة شمس تقصد؟

شعر مراد بأن السؤال قد وصلها، أو أنها عرفت بمـاذا يفكـر، فقالـت مجيبة: من أجل أن أرى الشمس تدخل إلى بيتي، من أجـل أن أطـل علـى الشارع عبر نافذة أو شرفة صغيرة، من أجل أن أشم هواء نقيـاً لا تشـوبه رائحة عفن... ثم تابعت بصوت حازم كأنها تقرر أمراً يجب علـى مـراد أن ينفذه على الفور: من أجل أن ألبس ثوباً وانتعل حذاء..و..

تحت جسر الشيخ مقصود حيث وصل أفلت مراد زمام النفس مـن يـده فراح يضحك ضحكاً مجنوناً، ثم ما لبث أن كتم ضـحكه بعـد أن رأى بعـض المارة ينظرون إليه. فاطرق برأسه فوق رأس زينب وقال: أمـن أجـل هـذه التوافه تفقدين أعز ما تملك المرأة؟

أجابته زينب بسخرية وتحد: من قال لك، أن الأمر ذاك، هـو أعـز مـا

تملكه المرأة؟ وحدقت إليه بنظرة هي مــزيج مــن الاحتقــار و الاســتخفاف وتابعت: لماذا لا تظن أن لدى المرأة أموراً أخرى، تعتز بها أكثر بكثيــر مــن ذاك المكان الذي تعتقد أنت بأنه أثمن ما تملكه؟

فتح مراد عينيه على اتساعهما، ثم وضع إصبعيه في أذنيــه وحركهمــا كأنه يحاول أن ينظف مجرييهما وهو يقول: يا الهي أكاد اجن! ثم تابع: علــى ما يبدو لم أعد أفهم ما يجري حولي. لم أعد أعرف وأفهم امرأتي أنــا الــذي ظننت بأنها مكشوفة لديّ كراحة يدي.. ولكن ها هي تبدو لي غامضــة أشــد الغموض، علاوة على ذلك رمتني بقناعات تختلف عن قناعات المرأة لــدينا.. خاصة عندما قالت بشيء من التحدي السافر: لماذا تتحدث بلسان المرأة؟ دع أفكارك وقناعتك لنفسك.. فهن قادرات على التعبير عن أنفسهن...

قاطعها مراد: يا إلهي.. ماذا أسمع؟ وتضحك زينب وهي تهز له رأسها، ثم ما تلبث أن تدير له ظهرها بتحدِ سافر وتقول: أنا تعبانة..

الكتاب الأول -2

الصعود

تردد حامد ما بين رغبته في أن يمشي، وهو يتأمل جناح الليــل الــذي يلفه، وبين أن يوقف سيارة أجرة لتقله إلى البيت! شــعر بوجــوب تــرويض ساقيه وعبور الشوارع، والمرور بالمحلات التجارية المغلقة التي تلفها الظلمة بإحكام... ومع وصوله إلى شارع «شكري القوتلي» أخذت السيارات الصغيرة تتجاوزه واحدة بعد الأخرى.

وقف ينتظر خلو الشارع ليعبر منه إلى شارع «يوسف العظمــة» ومــع حركة رأسه، وهو يلاحق السيارات التي تعبره ذات اليمين واليســار، شــعر بدوار فنفض رأسه بقوة..

كانت هذه الحركة من عاداته كلما شعر بدوار، كلما أحس بدوخة، أمــا أمعاؤه المختضة فتنقلب إلى الخارج..

هز رأسه مرة ثانية من اجل أن يوقف الدوار، ويصحو ويعيد أمعاءه إلى مكانها الطبيعي. فكر حامد، وهو في حالة لا يحسد عليها، أن يبحث مع نفسه فكرة شراء السيارة مرة ثانية.. خاصة، أن عمله قد توسع وأصــبح بحاجــة ملحة إليها. يذكر أنه عندما فكر بشرائها أول مرة أخذ يلــف ويــدور علــى أصحاب مكاتب بيع السيارات.. وبعد تعب أول يوم من البحث، تذكر أن عبــد الفتاح.. صاحب مكتب لبيع السيارات في حارة «بوابــة القصــب» فقــرر أن يذهب إليه في يوم غد ويسأله عن الأسعار لديه..

كان حامد يفكر، أن عبد الفتاح.. سيساعده بهذا الشكل أو ذاك في سعر السيارة وفي جودتها.. أي بصريح العبارة لن يغشه... ولكن حامد، في اليوم الثاني، انشغل بصفقة دسمة مع زبون جاء واشترى ثلاث شقق لأولاده الثلاثة... وفي اليوم الثالث بردت همته لشراء السيارة، لا يعرف حتى اليوم لماذا؟ رغم أنه كان في مساء تلك الليلة قد وضع مبلغ عشرين ألف ليرة في جيبه، أتعاب سمسرته مع الزبون الدسم..

تمدد في تلك الليلة مرتاحاً وأخذ يفكر بزينب، راح يحلم، كيف سيأخذها معه في السيارة إلى هنا وهناك حيث الأماكن البعيدة عن المدينة، مثل الكاردينا أو السيفان أو الموكامبو.. يجلسان وحدهما يتحدثان، يحلمان.. نعم يجب أن يشتري سيارة من أجل عينيها فقط.. ضحك حامد في تلك الليلة وابتسم، ثم نام قرير العين حتى الصباح.. وفي النهار جرى الحديث التالي أمامه مصادفة لا غير بين عبد الفتاح.. واحد الزبائن.. أكد عبد الفتاح.. أن الحكومة تعمل اليوم من أجل جلب دفعة جديدة من السيارات، من نوع مرسيدس ثم أردف بصراحة: أنا مللت ركوب المازدا! ضحك وهو يغمض عينيه نصف إغماضة وتابع: نفسي في سيارة مرسيدس..

ثم جرى نقاش طويل بينهما.. هذا يعني، قال الزبون، إن أسعار السيارات حتماً ستهبط إلى النصف!

تدخل حامد في الحديث من أجل أن يعرف ما إذا كانت الحكومة حقاً ستجلب دفعة من السيارات؟

أكد عبد الفتاح.. على أن هناك إشاعة قوية.. وهذا الأمر هو الذي جعله يؤجل موضوع السيارة، فلو صدقت الإشاعة فهذا يعني أن أسعار السيارات ستهبط كما قال عبد الفتاح.. أما الأمر الثاني الذي جعل حامد يؤجل شراء السيارة فهو زوجه الجاهلة، لأنها فلقت رأسه بموضوع السيارة! في البداية تجاهل رغبتها، ولكنه من كثرة ثرثرتها

حول شراء السيارة غضب في نفسه وقرر عدم شرائها طالما تطلب زوجه منه ذلـــك. قال لها بغضب: هناك أمور أهم من السيارة عليه أن يفكر بها!

خرج من البيت غاضباً وهو يشتمها: بنت الكلب. نسيت الفقر وركوبهـــا الباص، حتى جاءت تطالبني بشراء السيارة.. تفو.. ثم أقسم على انـــه لـــن يشتري السيارة تحدياً لزوجه.. وهكذا دفن موضوع شراء السيارة.

بصق حامد أمامه بتقزز وهو يقطع شارع «شكري القوتلي» إلى شـــارع يوسف العظمة صاعداً حتى وصل إلى مبنى أوغاريت فعـــرج عنـــه باتجـــاه المنشية القديمة ليجد نفسه أمام موقف الشيخ مقصود!

وقف للحظة باستغراب! كيف وصل إلى هنا؟ لماذا أتى إلـــى المنشـــية؟ تلفت حوله فشاهد نفسه يقف وحده في المنشية. كانت مواقف الباصات خالية من الناس. ضحك ضحكة خفيفة، ثم ما لبث أن ضحك بقوة، وبصـــوت عـــالٍ تماماً وهو يقول: ابن الكلب حتى الباصات توقفت عن العمل، فالساعة أصبحت الواحدة والنصف فماذا تنتظر؟ رد على نفسه بكبرياء: لم آت إلى المنشية من أجل ركوب الباص، إنما كل ما في الأمر هو أنني.. يضحك ويقـــول، قبـــل أن تجيب، برأيي عليك القول، أنك نسيت ركوب الباصات منـــذ فتـــرة طويلـــة.. اللعنة! ماذا دهاني؟ ماذا بي؟ ليس بك شيء سوى أنك سكران!

يضحك، وهذه أول مرة تسكر فيها يا (أبو عدنان)! أو كمـــا يقـــول لـــك البعض: أستاذ حامد..

ظل واقفاً على الرصيف ينتظر قدوم سيارة أجرة صـــغيرة لتقلـــه إلـــى البيت. لوى عنقه وهو يبتسم بسخرية، وقال بلهجة حازمة، على ما يبدو يـــا أستاذ حامد.. أن عادة ركوب الباصات لسنوات طويلة هي التي دفعتـــك إلـــى المنشية؟ أما ركوبك سيارات الأجرة فلم يصبح عـــادة متأصـــلة لـــديك بعـــد! وأعتقد، أردف ساخراً، هذا هو السبب الذي تؤجل من أجله شراء السيارة...

أما عندما تتأصل فيك هذه العادة فستضطر إلى شراء واحدة.. من بعيد رأى سيارة قادمة، وقبل أن يرفع يده وقفت السيارة أمامه بالضبط. ألقى نفسه فيها، إلى جانب السائق، ثم قال له: إلى الشيخ مقصود..

هدرت السيارة ومضت في طريقها وهي تلف المنشية القديمة باتجاه شارع «يوسف العظمة» مرة ثانية.. وفي ساحة «الحرية» قبيل تمثال العلامة «قسطاكي الحمصي» وأمام شارة السير الحمراء التفت حامد إلى السائق ونظر إليه.

كان شاباً في الثلاثين من العمر أو أقل بسنة أو سنتين، أسمر الوجه، حليق الذقن، ولكنه بشارب غزير فاحم، وشعر مفروق باتجاه اليسار والهواء المتسلل من النافذة، التي على يسار السائق، يلاعب خصلة شعره الطويلة، يرميها على عينيه، ثم يدفعها إلى الوراء مرة أخرى.

كان السائق يملك وجهاً جامداً كأنه مقدود من معدن. استرق حامد نظرة من الصورة المعلقة على (كرت) السيارة المعلق على زجاج واجهتها، قرأ رقم السيارة /٤٤ - ٠٠٠٠/ ثم اسم صاحبها «وحيد حمو» حاول أن يجد تشابهاً بين صاحب السيارة والسائق. كان صاحب السيارة في الخمسين من العمر... وبعد مقارنة طويلة لم يجد أي تشابه بين السائق وصاحب السيارة، ولكنه رغم هذا طرح على السائق السؤال التالي: هل صاحب الصورة والدك؟

ظل السائق ينظر أمامه بعد أن كان قد وصل إلى «الشيخ طه» فأجاب: كلا.. إنه صاحب السيارة..

سأله: هل أنت شريك في السيارة؟

ابتسم السائق بأسى ولوى رقبته، أن لا.. ثم تابع معلقاً: من أين لي يا حسرتي؟

قال حامد: إذن أنت تعمل بالأجرة لدى صاحبها؟

أجابه: نعم.. علق حامد: خير..

والتزم الصمت ولكنه ما لبث أن عاد إلى الحديث، بعد أن أحس بأن لديه

بعض الأسئلة يريد أن يطرحها.. وقبل أن يفتح فمه، أتاه صوت السائق قائلاً: بلا مؤاخذة، ألست الأستاذ حامد عدنان؟ نظر حامد إلى السائق باستغراب وهو يتساءل فيما بينه وبين نفسه، من أين عرفني؟ ما لبث أن أجاب: نعــم.. أنــا هو.. ثم أضاف: ولكن كيف عرفتني؟

كان السائق يبتسم وهو ينظر أمامه في الطريــق المعــتم ذي الإضــاءة القليلة. ثم أجاب: عرفتك في الشغل.. ألم تكن موظفا في الخطوط الحديدية؟

أجابه حامد: نعم. كنت..

قال السائق: أرأيت؟

وابتسم ابتسامة عريضة ثم تابع: أنا لا أنسى وجهاً، أي وجه مر علــي ولو بعد عشرين سنة!

أبدى حامد إعجابه بما قال السائق: ما شاء الله.. لديك ذاكــرة قويــة.. أجاب السائق: نعم.. ثم حدثه عن عمله كسائق لمعاون المدير العام، ثم تابع: أما بعد الظهر فأعمل على سيارة خاصة.. كما ترى..

ساد الصمت بينهما فترة من الزمن كأن كل واحد منهما يفكر بالحــديث الذي يجب أن يتحدث به بعد أن عرفا أنهما كانا موظفين في مؤسسة واحدة.

كان حامد على وشك أن يقول للسائق، إن العمل خارج أوقات الدوام بات ضرورياً للموظف، فسبقه السائق إلى ذلك عندما قال: أســتاذ حامــد، أنــت تعرف، أن المعيشة، أصبحت صعبة، وستكون أصعب إن اعتمد الموظف على راتبه فقط. ثم تابع بلهجة كسيرة: أنت تعرف.. عيلة وأولاد والراتــب يكفــي ثمن الطعام فقط.. ثم أردف بلهجة رضى: ولكن مع عملي كسائق بعد الظهر.. الحمد لله مستورة..

هز حامد رأسه وقال: معك حق..

تابع السائق: الله يكون في عوننا..

قال حامد بارتياح وهو يسند ظهره بالكامل إلى المقعد: أنا، الحمـــد لله.. خلصت من شيء اسمه وظيفة..

قاطعه السائق: ما قصرت. لقد سمعت من الموظفين بأنك بعد أن استقلت أخذت تأمينك وفتحت بها دكاناً..

قطب حامد حاجبيه وقال: كلامك صحيح. ثم أردف: أنت الصادق أنا لـــم أفتح دكاناً. إنما.. وتابع بتفاخر: مكتباً عقارياً..

أجابه السائق: المهم.. أن يكون الشغل جاري..

أجابه حامد: الحمد لله.. نشكره على عطائه..

سأله السائق: والمكتب أين مقره؟

أجابه حامد: في الشيخ مقصود. ثم تابع: ولكني سأنتقل بعد أن أنتهـــي من بيع ما لدي من الشقق، سأنقل المكتب إلى شارع النيل..

قال السائق: لا شك أن الأرباح في شارع النيل أفضل..

ضحك حامد وقال: ليس الأرباح فقط، إنما الناس يا سيدي غير.. هز السائق رأسه وهو يمرق من تحت الجسر، ويصعد طلعة الشيخ مقصود وقال: معك كامل الحق.. وما لبث أن سأل: هذا يعني أنك ستصفي أعمالك في الشيخ مقصود؟

أجابه حامد: بالطبع..

سأله السائق: والبيوت التي تبنيها، هل هي ملكك أم أنك في شراكة مع أحد..؟

لمعت أضواء في أعلى الطلعة فزاغت أنظار حامد، كما أن عقله اختض وقلبه دق أكثر في اللحظة التي سأله فيها السائق.

فقال ببرود: لا.. شعر بانكسار في دخيلة نفســـه وهبـــوط فـــي مقامـــه والسيارة تصعد وتصعد طلعة «الشيخ مقصود» لذلك تابع بحماسة: لي شريك. وأكمل: أنا والأستاذ عبد الفتاح.. شريكان!

قال السائق: الله يوفق.. يا سيدي العمل الحر غير.. غير حياة!

كان حامد يريد أن يسأله عن بعض الموظفين في السكك الحديدية مــن الذين عاش معهم عندما كان موظفاً، يسأل عن أحوالهم. ولكن سؤال السائق لخبط كل ما كان يريد أن يسأل، خاصة عندما كذب. تساءل وهو يحس بقرصة في نفسه، لماذا كذبت على الرجل؟ لم يستطع أن يجيب عــن نفســه. عــاش للحظات وهو خجل، حتى أنه لم يجرؤ على رفع عينيه إلــى الســائق، كــأن الأخير كشف كذبته الفاضحة. ولكنه ما لبث أن ابتسم ساخراً وقــال لنفســه، هكذا إذن.. أنت شريك الأستاذ عبد الفتاح؟ ماذا لو التفت إليك السائق وقــال: ما أنت إلا مجرد سمسار عنده؟

شعر حامد بعرق ساخن على عنقه، وريح ساخنة تهب على روحه. لذا، في نهاية الطلعة أوقف السيارة وقال للسائق: يكفي.. لم يبق إلا عدة خطوات، ومن عادتي أن أقطعها سيراً على الأقدام.

الأرزاق بيد الله

كانت بيوت ما بعد طلعة «الشيخ مقصود» غارقة فــي الظــلام إلا مــن مصباح نائس معلق على الباب الحديدي لصحن الجــامع ومصــابيح أخــرى متفرقة متباعدة هنا وهنالك..

الحوانيت مغلقة والدكاكين مقفلة. أما الشوارع فخالية تماماً من الناس، لم يكن أحد من السكان خارج بيته..

ظل حامد يخطو كأمير بقدمين رخوتين، أرخى «العرق» الذي شربه في خمارة «الشباب» عضلات قدميه، فجاءت مشيته لينة رخوة، فيها شيء مــن التعثر، ولكنه أمام دكان مصطفى سرقوت، بائع المشبك.. وقف ونظــر إلــى درابية الدكان المحكمة الإغلاق. ابتسم لنفسه ابتسامة فيها غــرور ونشــوة المنتصر. حاول عقله الذي أصابه الخمول أن يعيد صياغة الحوادث التي جرت معه منذ ثلاث سنوات..

تذكر حامد، عندما سمع أحدهم يقول: إن (أبو دياب) سيفتح مكتباً عقارياً بالقرب من مكتبك يا أبو عدنان..!

لم يعلق حامد بشيء أول الأمر سوى أن قال: الأرزاق بيد الله.. ولكنـــه ما لبث أن اضطرب اضطرابا عظيماً وتساءل بخوف، مـــن أيـــن أتـــى هـــذا الخنزير؟ وراح يرى على شاشة خياله انقسام الأرزاق، ــ رغم أنها بيد الله ــ إلى رزقين، واحد يذهب إليه والآخر إلى منافسه الجديد!

شعر بسخونة في رأسه وبدمع في عينيه، حتى إنه لم يعـد يـرى مـا أمامه.. راح يتخيل كيف يقترب منه عبد الفتاح.. صاحب المُلـك والعقـارات ويقول له: (أبو عدنان)، تعاون مع جارك (أبو دياب) في البيع.. نظـر حامـد إلى عبد الفتاح.. وسأله بتردد: أتعاون معه؟

وتكاثفت حبيبات العرق على جبينه وعنقه ثم راحت تنزلق عبر حاجبيـه السميكين إلى عينيه، ومن نقرته إلى الفقرات الناتئة في ظهره: هـل فقـدت الثقة بي حتى تعطي لهذا الذي لم يمضِ على فتح مكتبه أيام مفاتيح الشـقق التي بحوزتي منذ شهور؟ هذا ما فكر به حامد.. حامد الذي لم ينم ليلتها. أقام الدنيا في البيت ولم يقعدها من دون سبب يذكر.

لقد ضرب أولاده، صرخ في وجه زوجه فاطمة، وفي لحظة أخرى كـاد أن يقول لها: اذهبي أنت طالقة بالثلاثة.. شرب ركوة من القهوة، دخن ثـلاث علب سجائر الحمراء.. ظل ساهراً طوال الليل.

حاولت زوجه أم عدنان أن تسأله: ما بك يا رجّال؟ ولكنها خافت منـه! نعم خافت! وكانت تلك المرة واحدة من المرات القليلة التي خافت فيها منـه! إنها تعرفه، فهو أحمق! ماذا لو قال لها، أنت طالق؟ ماذا تستطيع أن تفعـل؟ لذا التزمت الصمت، التوت على نفسها واعتبرت نفسها زعلانة منـه.. ولـم تحدثه بكلمة، ولكنها عندما استيقظت، رغم أنها لم تنم إلا ساعة وبعضاً منها،

كان حامد مازال ساهراً، رغم أن أشعة الشمس كانت قد غمرت الكون.

عندها تجرأت وسألته: ما بك يا أبو عدنان؟ أنت منذ ليلة أمس لست على بعضك..

قاطعها: ليس بي شيء..

ثم قال لها: قومي وحضرّي لي فنجان قهوة سادة، وناوليني في طريقك علبة دخان..

وصلته بعد ذلك أحاديث صاحب المكتب العقاري الجديد: لــيس لــديّ شروط لبيع الشقق، فأنا مستعد أن أقبل شروط المتعهد أياً كانت!

تساءل حامد: ماذا؟ ووقف وهو يصرخ: هل الخنزير هذا، جاء لا قصــد له سوى منافستي؟ ثم تابع شتائمه: ابن الكلب، هذه أول علامة من علامـــات نجاسته.. هذا يعني أنه يمكن أن يأخذ نسبة مئوية على عقد البيع أقــل مــن المتعارف عليها بين أصحاب المكاتب العقارية!

أحس حامد كأن هناك ثأراً بينه وبين صاحب المكتب العقاري الجديد فقال لنفسه: أمامك معركة ولكي لا تخسرها فما عليك سوى أن تدبر أمــورك مــع عبد الفتاح.. لأنه الأقوى بين جميع المتعهدين فــي «الشــيخ مقصــود»، إن ربحته إلى جانبك، كسبت المعركة، لأن بقية المتعهدين «فراطة» فأكبر واحــد بينهم لا يتعدى حجمه حجم حمار صغير معظمهم أصحاب قطع صــغيرة مــن الأرض، متناثرة هنا وهناك، ورأسمالهم لا يتعدى بضع مئــات مــن ألــوف الليرات.. إذن لن يتأثر مركزه كصاحب مكتب مادام عبد الفتاح.. إلى جانبــه. مادام عبد الفتاح.. لن يُشرك سمساراً آخر مع حامد. صحيح أن عبد الفتاح.. في نهاية المطاف تاجر يريد بيع ما بناه بسرعة، ولكن البيع يختلف ما بــين سمسار وآخر..

خلال الأسبوع الأول من افتتاح المكتــب العقــاري الجديــد، زاره عبــد الفتاح.. ثلاث مرات. استغرب حامد زياراته تلك! فعبد الفتاح.. لم يقم بمثلهــا

سابقاً. هل هناك سبب لذلك؟

أتسأل يا أحمق عن السبب؟ السبب واضح وضوح الشمس! لأنــه ومــا فيه، هو رغبة عبد الفتاح.. إشراك السمسار الجديد في عملية البيع لعقاراته، وهو، على ما يبدو يشعر بالحرج من مفاتحتك بالأمر، لذا فهو يؤجل حديثــه معك، يضطر أن يزورك مرة ثانية وثالثة..

كان حامد خلال ذلك الأسبوع قد نحف وخف وزنه كثيراً وكأن مرضاً ما قد أصابه. وقد سألته زوجه فاطمة، إن كان يشكو من أمر مــا؟ فأجابهــا: لا أشكو من شيء.

سألته باستغراب: ولكنك تضعف يا رجّال؟

أجابها ساخراً: لقد سمنت بما فيه الكفاية، وأنا لم أصل بعد إلى الخمسين فأخاف على قلبي من «الجلطة» لذا يجب أن أقوم بتنحيف وزني.. وخرج..

لوت فاطمة شفتها السفلى وهي لا تفقه من كلام زوجها شيئاً.. وها هو عبد الفتاح.. يفاتحه بالموضوع.

كان حامد قد خرج مع زبون ليريه بعض البيــوت المعروضــة للبيــع، وعندما عاد إلى المكتب ليكتب عقد البيع، وجد عبد الفتاح.. بانتظاره. شــعر حامد بيد ذات أصابع حديدية تضغط على قلبه: الآن سيفاتحك بــالأمر! ســلّم حامد وهو يطرق رأسه ويفتش بين الأوراق عن صورة لعقد بيع عقاري..

ارتفع صوت عبد الفتاح.. بالسؤال: أراك منهكاً يا أبو عدنان؟

ابتسم حامد باقتضاب، وعرق بارد ينضح من جبينه وأجاب: كما ترى يا أستاذ.. الحمد لله.. البيع والشراء لا بأس به رغم ضــائقة النــاس الماليــة! قاطعه عبد الفتاح.. الحمد لله.. هذا كله من نتاج همتك..

ثم أردف بخبث: لكن ألا ترى أن الفطر من حولك ينمو!

رفع حامد رأسه إليه دون أن يستوعب ماذا يقصد فسأل: نعم.. أســتاذ؟

ضحك عبد الفتاح.. وقال: لقد قلت إن الفطر ينمو من حولك!

مرة أخرى لم يستوعب حامد مغزى الكلام. فقال بشيء من الإحراج: لم أفهم.. وبلع ريقه بصعوبة. شعر حامد أن وراء كلام المتعهد لغـزاً، ولـيس هناك سوى السمسار الجديد الذي يقصده بلغزه. قـال عبـد الفتـاح.. وهـو يضحك: لقد أصبحتما اثنين في الشارع يا (أبو عدنان)..

توضح كلام المتعهد فحطت يداه في حضنه ولم يستطع أن يكمل كتابـة العقد، ارتخى لسانه في فمه بحيث لم يعد بقدرته التحكم بحركته.. فـانتظر أن يكمل عبد الفتاح.. كلامه.

تابع المتعهد: أم ماذا يا..

لم يسمع حامد بقية الكلام لأنه شعر بوشيش حاد وقوي في أذنيه. فقال لعبد الفتاح.. بصوت مخنوق تماماً: كما تريد يا أستاذ.. أأمر بـالبيوت التـي عليّ أن أسلم مفاتيحها لصاحبي الذي تقصده..

كان عبد الفتاح.. حتى هذه اللحظة يبتسم ابتسامة عريضة، ويحمل كلام حامد محمل المزاح وتزجية الوقت بالفرفشة كما يقال، ولكن ما قالـه وضـع حداً لمزاح عبد الفتاح.. فقال لحامد: هل صاحب المكتب الجديد هو قريبك؟

أجابه: كلا..

تساءل عبد الفتاح: إذن، كيف تطلب مني أن أعطيه مفاتيح بعض الشقق لبيعها؟

التبس الأمر على حامد فقال: هكذا فهمت. فأرجو المعذرة إن فهمتك خطأ..

أجابه عبد الفتاح.. بلهجة قاطعة وحازمة: طبعاً فهمتني بالخطأ..

ثم تابع معاتباً: عيب يا أبو عدنان. نحن نتعامل كرجال..

ارتبك حامد فقال: العفو يا أستاذ.. هكذا خمنت..

وقام المتعهد ومضى..

تنهد حامد بارتياح لأول مرة منذ أن فُتح المكتب العقاري بقـرب مكتبـه،

حتى إنه في تلك الليلة، أغلق باب مكتبه قبل نهاية دوامه بنصف ساعة. كـــان منشرحاً فقرر أن الليلة هي ليلة عرق وبسط.. الليلة.. ولم يكمـــل لأن أضـــواء الملهى كانت قد أخذته بين أحضانها. دخل إلى ملهى الطاحونة الحمراء كفارس من فرسان الحكايات. كان قد سمع كثيراً عن عالم الملاهي، ولكنه لـــم يجـــرب مرة واحدة أن يقضي ليلة من ليالي عمره في الملهـــى.. أمـــا اليـــوم فـــالأمر يختلف.. ذهب وطلب كأي غشيم ساذج لا يفقه بعالم الليل شيئاً طاولة بمحـــاذاة حلبة الرقص. أجابوه، إن الطاولة التي يريد الجلوس إليها محجوزة.. وبعد أخذ ورد بينه وبين المشرفين حجزوا له طاولة حسب الطلب.. الآن. وهـــو واقـــف أمام الدرابية المغلقة التي كانت ذات يوم لمكتب عقاري، أصبحت لبائع «مشـــبك ولُقم» يتذكر تماماً كيف أخبر زوجه انه قد يتأخر لئلا تقلق لذلك!

قضى ليلته في الملهى. لقد شرب من العرق والبيرة والويسكي حتى فقد وعيه فقام ورقص مع فتاة تايوانية لا تعرف من اللغة العربية سوى كلمتـــين أو ثلاث. شكراً.. أو تفضل حبيبي. رقص معها رقصاً عربياً. وكان يشعر أثناء رقصه أن المتفرجين يهللون له..

وفي نهاية البرنامج كان قد علّق على واحدة من الراقصات، وذهب معها إلى الفندق الذي تنزل فيه ليقضي ليله معها.

بيت في نهاية الطلعة

ظل حامد يصعد الطلعة الثانية التي يسميها أهالي «الشيخ مقصود» طلعة الجامع. كان يصعد بثقة بعد أن تواشجت أعماله بأعمال المتعهد عبد الفتاح.. وتشابكت علاقتهما الشخصية إلى حد عميق. هذه العلاقة التي رأى فيها ربحاً ومنفعة له.

كان حامد عندما يأتي إليه عبد الفتاح.. يصاب بحيرة وهو يتساءل، كيـــف يخدمه بشكل أفضل؟ فكان ما إن يراه حتى يثب واقفاً رافعاً يديه الاثنتين إلى مـــا فوق رأسه مهللاً، ثم يخرج من وراء طاولته مرحباً بقدومه، طالباً منه أن يتفضل

ليجلس مكانه وراء الطاولة، قائلاً له: هنا الجلسة أرَّيح يا أستاذ عبد الفتاح!

ثم يتابع عندما يلاحظ تردد الأخير في تلبية رغبتـــه قـــائلاً: لا والله.. لا يمكن أن تجلس إلا وراء الطاولة، وعلى الكرسي.. تفضل.. أيوا تفضل.. ثـــم يعلق بعد أن يكون عبد الفتاح.. قد جلس على الكرسي وراء الطاولة: جلوس الهنّا يا أستاذ..

ولكن حامد، لاحظ على المتعهد كثرة مجيئه في الآونة الأخيرة. فتساءل بينه وبين نفسه عن أسباب ذلك؟

وفي نهاية الطلعة / طلعة الجامع / وقف حامد أمام عمارة تطـــل علـــى نهاية الشارع الرئيسي، ونظر إلى نوافذ بيته في الطابق الثاني كانت النوافـــذ مطفأة النور، حتى ضياء القمر الذي كان بدراً في تلك الليلة، لا يطالها.

ابتسم وقال بشاعرية: لقد هاجر القمر الملعون إلى القمر الجميل!

أنتقل بنظره إلى المكان الذي حط عليه القمر بنوره وضيائه. وقف أمام واجهـــة العمارة الخلفية التي تطل على زقاق ضيق وحدق نوافذ الطابق الرابع، أو بـــالأحرى في نافذة بعينها... حيث تقع زينب وراء زجاجها المشبع بضياء القمر والنجوم.

كانت مشاعر شتى تناوش قلب حامد وفكره وهو ينظر، في تلك اللحظـــة إلى زينب بأسى، لأنه لا يستطيع أن يهرع إلى خارج مكتبه، ويدعو محبوبته إلى الداخل لترى النعيم الذي يعيش فيه فارسها حامد! لترى بعينيها الجميلتين المملكة العظيمة التي يسوح بين جنباتها، لا يستطيع ذلك لأن عبـــد الفتـــاح.. كان قابعاً وراء الطاولة، على الكرسي. كان حامد يحدق عبـــر زجـــاج بـــاب المكتب إلى الخارج، ينظر إلى زينب الواقفة على الرصيف وهـــو يتمنـــى أن تبقى هكذا أمامه إلى الأبد... ولكن حامد، رغم أمنيته هذه، لم يشعر براحة إلاّ عندما خرج زوج زينب إليها وذهبا معاً..

انهد حامد على الكرسي بجانب عبد الفتاح.. وهو يغمض عينيه نصـــف

إغماضة ويحدق في المكان الذي كانت زينب واقفة فيه. كان المكان فارغاً، ما لبث الغبار والأطفال القذرون وبائعو الدخان المهرّب. أن عاد وعادت الأوساخ وروائح شواء الفراريج وزيت المقالي ورائحـــة المشــبك واللقــم والفلافــل وزمامير السيارات.

بعد أن مضت زينب مع زوجها، غرق حامد مرة أخرى في رغباته.. وهو يتأمل نافذة بعينها وهو واقف أمام واجهة العمارة الخلفية مهمهماً بينـــه وبـــين نفسه، لو كان المتعهد عبد الفتاح.. غير موجود ذلك اليــوم لــدعاها وزوجهــا للجلوس، خاصة، والشاي كان قد أصبح جاهزاً، لهــرع إلـــى خـــارج المكتـــب ودعاها إلى الدخول لتشاركه شرب الشاي.. ويهز حامد رأسه أسفاً وتحسراً، ثم يردف قائلاً، ولكن عبد الفتاح.. هو الذي منعك أن تدعوها إلى الدخول لشـــرب الشاي، تركتها هناك على الرصيف وعشرات الرجال يمرون بها، وهم ينظرون إليها، ومن عيونهم تطل رغبات حيوانية، منبهرين بجمالها..

شعر حامد بخوف من نتائج تخيلاته، فأسرع في لفـــه ودورانـــه حـــول العمارة بعد أن انتابه شعور مفاجئ بان عبد الفتاح.. سيقول له في الغد: لـــم أشبع منها يا حامد.. دعها شهراً آخر لدي!

عصر قلبه خوف ما، أو وجع مجهول المصدر فهرع يدخل إلى العمارة، يصعد درجاتها مسرعاً.. ولكنه ما إن وصل إلى باب بيته حتـــى خفـــف مـــن خطوه، وراح يمشي بحذر، خائفاً من أن تكون زوجه فاطمـــة تنتظـــره وراء الباب فتفتحه وتقول: إلى أين يا (أبو عدنان)؟ هل نسيت باب بيتك أم مــــاذا؟ فيزيد من سرعته في الصعود وهو يتخيل أن المتعهد عبد الفتـــاح.. يكـــاد أن يلحق به وبزينب التي سال لعابه لمرآها.. التفت حوله بعد أن اختلطت عليـــه الأمور، لقد ذهب العرق بعقله تماماً. فقد ضل باب العمارة بينما كانت زوجـــه تسأله، ما بك يا (أبو عدنان)؟ أراك تهتم بأوضاع جارتنا زينب كثيراً؟

لعنها حامد في نفسه وأجابها، بل أنا مهتم بزوجها المسكين!

وقبل أن ينتهي من جوابه سمع انفجار ضحكة وراءه فوقف منصتاً، ثـم ما لبث أن رفع وجهه إلى السماء ينظر إلى النجوم البعيدة التي نزلـت مـن عليائها واحدة بعد الأخرى وتسللت عبر النافذة إلى زينب، فتمنى لـو تعلـق بأذيال نجمة ما وتسلل برفقتها إلى الداخل..

التحليق

عاد قلب حامد يدق بصورة طبيعية عندما تخيل نفسه يتسلل عبر النافذة إلى زينب، وفي الصالة الصغيرة التقى زوجها ذا النظرة الغامضة. نظر الزوج إلى حامد طويلاً، ثم ما لبث أن قال له: تفضل.. اجلس..

لم يشعر حامد بأيّ ارتباك فجلس وراح يلتفت حوله، يمسح بنظره ما في داخل الغرفة. كما توقع تماماً! جدران عارية، خاوية الفضاء إلا من مصـباح كهربائي معلق، وبضعة كراسي خيزرانية قديمة موزعة هنا وهناك، وبعـض الصور الرخيصة المعلقة على الحيطان وبساط رخيص قديم..

هز حامد رأسه وهو ينظر نظرة إدانة إلى الشاب ذي النظرة الغامضـة ويقول له: اذهب إلى المطبخ وجهز لي كوباً من الشاي.. ما يلبـث حامـد أن يتمطى، ثم يخلع حذاءه. لقد تعب هذا اليوم، فهو منذ الصباح يعمل، ما لبـث أن تمطى ثانية وقام ذاهباً للبحث عن زينب..

وقف حامد أمام باب الغرفة الوحيدة التي تتكون منها الشـقة إلـى جانـب الصالة الصغيرة ومنافعها.. هذا هو البيت الذي تعيش فيه أجمل امرأة في الدنيا! دفعه بهدوء.. فانفتح على مصراعيه، انفتح الباب على زينب النائمة على سرير حديدي رخيص يعلوه فراش مؤلف من إسفنج ووسادة صغيرة وشرشف قطني.. كانت زينب مكورة الجسد تحت الشرشف القطني الرخيص، رأى تلـوي طيـات الشرشف تحت ساق زينب.. انتقل بنظره إلى الأعلى، حيث الوسـادة المزهـرة

الصغيرة، حيث رأس زينب النائم فوق الوسادة. كان شـــعرها الأســـود متنـــاثراً عليها، متناثراً فوق الوسادة، يُظهر خدها وجزءاً من حاجبها فقط.

كانت تتنفس بهدوء واطمئنان كأنها أميرة نائمة لا يثيرها شيء في هذا العالم! أخذ يتأمل القطة النائمة... وفجأة تحركت، أخرجت يديها مـــن تحـــت الشرشف فكشفت عن ساعدين أبيضين مغريين، تمنى في تلك اللحظة أن يضع رأسه على ساعدها الأيمن طوال النصف الأول من الليل، ثم يضع رأسه على ساعدها الأيسر لينام طوال النصف الثاني من الليل. كان يرغب أن ينام علـــى ساعديها فقط.. أما عندما شدت زينب الشرشف عن صدرها فتموجت طياتـــه، ورسمت صورة لصدرها الناهد.. أراد أن يلقي بنفسه إلى جانبها..

تابع حامد تخيله.. فرأى زينب وهي ترفع رأسها مسندة كوعيها إلى الوســـادة، تتثاءب مرة وثانية ثم تقول: صباح الخير.. يجيبها: صباح الفل والياسمين..

تضحك له بغنج وهي ترفع جذعها عن السرير..

لم يتمالك حامد نفسه فهرع إليها، ألقى بجسمه إلى جانبها وهو مبهـــور الأنفاس... أمسكته من يده وقالت له: ما بك مستعجلاً.. على مهلك؟ لا يصدق ما سمعه منها. يقول: نعم على مهلي.. على مهلي.. نعم.. نعم..

وتقوم عن السرير، تخرج من تحت الشرشف القطني الـــرخيص الـــذي انزلق وتكوم تحت قدميها فتبدو أمامه كتمثال حـــي مـــن المرمـــر الأبـــيض المتشرب باللون الوردي.. يا إلهي، همس حامد لنفسه، كم هي طويلة؟

ونظر إليها من الأسفل. كانت تحدق إليه من عليائها، ويكرر، يا إلهي، كم هي طويلة؟ ويسيل لعابه على ذقنه، غير معقول أن تكون بهذا الجمال! أيمكـــن لجسد امرأة أن يكون بمثل هذا التناسق؟ أيمكن لمثل هذه المـــرأة النورانيـــة أن ترضى بالعيش مع شاب فقير معدم؟ كلا.. يجب أن تعيش في بيت كله مرايـــا، يجب أن تلبس ثياباً من الحرير الخالص، ثياباً حريراً بحرير، يجب أن..

ويشدها من ربلتي ساقيها إلى الأسفل، فيختل توازنها وتسقط فوقه وهي تضحك قائلة، ما بك؟

سأقول.. سأقول لكِ ما بي؟

ويحاول أن يمد يديه إليها، وهو يدور حول العمارة ولعابه يسيل ويقول: لم يبق من بقايا هذه الليلة إلاّ ساعات.. غداً، منذ ساعة الصباح الأولى ستعود إلي، هذا ما أخبرني به عبد الفتاح..

ويرفع نظره إلى الأعلى، يحدق في النافذة المطفأة الأنوار، يكاد أن يطير، يريد أن يحلق إليها، أن يدخل من النافذة.. النافذة التي يلمع على زجاجها ضوء القمر، يحدق فى النافذة المغلقة على الليل والعتمة.. لم يعد يستطيع الانتظار حتى الصباح، غداً ستعود إليه.. نعم.. زينب، لم أعد أقدر على الانتظار فها أنا آت إليك!

ورفع حامد يديه إلى الأعلى، حركهما إلى الأسفل وإلى الأعلى بحركات لينة مرة، وثانية وثالثة... ثم دفع جسده إلى الأعلى بقدميه فطار محلقاً إلى النافذة المغلقة، ولكنه اصطدم بزجاجها الصلب فهوى إلى الأرض ووقع أمام باب العمارة.. اللعنة!

وقف على قدميه وراح ينفض عن نفسه الطين والوحل وبعض الأوساخ التي علقت بسرواله وهو مستمر في لعناته، بنت الكلب على حق، فهي منذ سنة تقول لي: علينا أن نرحل من الحي.. حي الزريبة هذا. طين وحُفر وأخاديد وقمامة في كل مكان، وأبنية أصبحت في معظمها دكاكين لبيع الفروج والبيض والسحلب والمشبك حيث تفوح، ـــ أينما توجهت ـــ روائح المقالي والمشاوي.. تفو.. وقع ثانية، فهب هذه المرة بجنون وهو يضرب الهواء ويشتم ما عنّ له من الأسماء، ثم أسرع يوغل في عتمة العمارة، يصعد إلى بيته في الطابق الثاني..

المفتاح

هز حامد رأسه وقال لنفسه بصوت خافت فيه الكثير من الأسى، ها هــو عبد الفتاح.. يطلب منك أن تكون قواداً له!

والمرأة التي اختارها، هي زينب.. زينب لا غيرها من دون نساء الدنيا! وراح حامد يقلد صوت عبد الفتاح.. صاحب الخنّة الغليظــة وحركــات يديــه المترهلتين وهو يلقي بحبات سبحته المفضضة ذات اليمــين واليســار، ثــم يتركها تنزلق بين أصابعه حبة إثر حبة ليعود ويرفعها مرة ثانية حبــة وراء أخرى. بينما البلادة تطفح من عينيه وخديه المقززين، ابن الكلب كأن نســاء الدنيا كلها طوع يديه! يظن.. أنه ما إن يمد يده، ويشير إلى هذه أو تلك حتى تهرع إليه وتنحني أمامه، تفو..

ومع البصقة التي قذفها حامد في وجه الليل وهو يصعد درجــات ســلم العمارة انفثأ القهر في صدره، ومع استقرار البصقة علــى الأرض كــان قــد وصل إلى الطابق الثاني حيث بيته..

كان حامد، قد تأكد في الفترة الأخيرة، من أن زيــارات عبــد الفتـــاح.. المتكررة لن تنتهي على خير، كما يقولون. لأنه، أي عبد الفتاح.. كان لا يقوم بزيارته، إلا كل عشرة أيام وكل أسبوع في أحسن الأحوال.. كان يأتي إليــه، يجلس دقائق لا تتجاوز العشر، يسأل عن سير العمــل بطريقــة ســريعة ولا مبالية، ثم يحمل نفسه كما يقال. ويركب سيارته ويمضي. لــذا أخــذ حامــد يتساءل: ماذا حدث لعبد الفتاح.. في هذه الأيام، حتى يــزوره يوميــاً تقريبــاً ويجلس عنده؟ لم يكن حامد.. بحاجة إلى التفكير الطويل ليعرف أسباب ذلك.. ففي اليوم الأخير قال لنفسه: إنْ سبب زيارته هو زينب.. زينب فقط هي التي تدفعه إلى المجيء إليه!

كان حامد، في حضرة عبد الفتاح.. يتقوقع على نفسه ولا يأتي على ذكــر

زينب من قريب أو بعيد.. لكيلا يفتح باب التساؤل أمام عبد الفتاح.. فيلجه براحة تامة. كان كلما فكر بهذا الأمر يأخذ الغضب بخناقه، ويشد عليه حتـى يكـاد أن يخنقه، فيبصق أمامه ويقول: ابن الكلب لم يجد في حلب كلها إلاّ زينب؟

ويشتد غضبه ويفور.. وبما أنه لا يقدر على مجابهة عبد الفتاح.. فقـد كان يلتزم الصمت ولا يقوم بأية حركة إلا بحذر شديد أمامه.. ففـي الزيـارة الأخيرة لعبد الفتاح.. قبع على الكرسي وبين أصابع يـده اليمنـى مسـبحته المفضضة يُزلق من بين أصابعه حباتها حبة وراء أخرى فتصدر صوتاً رتيباً، تزيد الجو الصامت الذي يسود بينهما توتراً وتحفزا وقلقاً.

كان عبد الفتاح.. يسرق نظره إلى حامد بين الحين والآخـر، ثـم يهـز رأسه بحركة رتيبة.

التفت عبد الفتاح.. إلى حامد وحدق إليه، فرآه مخطوف اللون، منكمشـاً على نفسه، يعاني من خوف يشبه خوف من سيتلقى ضربة خاطفة على عنقه! ابتسم عبد الفتاح.. وارتاح لمشهد حامد الذليل، الخائف، المنكسر.. ثم تنحـنح وقال دون مقدمات: أبو عدنان، أود أن أسألك سؤالاً، هل تجيبني بصراحة؟

انكمش حامد أكثر من ذي قبل وقال: تفضل أستاذ عبد الفتاح.. رد عليه عبد الفتاح: الله يزيد من فضلك..

ثم أردف بصوت واثق هادئ: قل لي، ماذا تعرف عن تلك المرأة التـي اسمها زينب؟ ثم ابتسم غامزاً: وهل لك علاقة ما بها؟

انتفض حامد مذعوراً: أعوذ بالله أستاذ عبد الفتاح.. ليس هنـاك أيـة علاقة بيني وبينها.. مجرد معرفة عادية، أقصد معرفة جيران لا تتعدى، أنـت تعرف أننا جيران.. نسكن بناية واحدة..

ولم يكمل. اختنق بصوته.

ابتسم عبد الفتاح.. مرة ثانية وقال: اصدقني القول يا هذا.. هل.. وغمز

غمزة ذات معنى.. فتلعثم حامد ولم يعرف بمَ يجيب. ولكن حركة يديه العفوية حاولت أن تقول أن لا علاقة له بزينب..

تابع عبد الفتاح.. بعد أن هز رأسه: إن كان الأمر كذلك، فأنا أرغب فيها..

هذا ما كان حامد يخافه، أن يعلن عبد الفتاح.. دون مقدمات أو خجل وحياء عن رغبته في زينب. ثم أشار إليه بيده أن لا ينطق بحرف تابع: المهـــم.. أنـــا أريدها.. ثم أردف: أنت تعرف مزاجي، إن أجمل امرأة أملّ منها بعد أسبوع..

بلع ريقه وتابع: هل اتفقنا؟

وقبل أن يفتح حامد فمه سمع عبد الفتاح.. يقول لـــه: طبعـــاً اتفقنـــا.. وقام.. ظل حامد فاغر الفم للطمة التي تلقاها، وقبل أن يرد التحية.

سأل عبد الفتاح: قل لي.. ماذا يعمل زوجها؟

أجابه: عامل كهرباء في إحدى الشركات.. هز عبد الفتاح.. رأسه وقال: حتماً.. إن أوضاعه المالية سيئة؟

هز حامد رأسه بالموافقة وهو يشعر بدوخة.

سأل عبد الفتاح: أيعمل بعد الظهر في عمل ما؟

أجابه حامد: لا..

قال عبد الفتاح: اسأله إن كان يريد أن يعمل لديّ بعـــد الظهـــر.. فـــإن وافق، اتفق معه وأرسله إلى ورشة التمديدات الكهربائية.. اتفقنا؟ هز حامـــد رأسه بعد أن أُسقط في يده كما يقولون.

أردف عبد الفتاح.. عندما لاحظ امتقاع وجه حامد: مـــاذا، ألـــم نتفـــق؟ اغتصب حامد ضحكة من نفسه وقال: تمام الاتفاق..

لم يحاول حامد أن يبتسم، إنما تنهد وهو يرفع نظره إلـــى الأعلـــى، إلـــى الطابق الرابع، حيث زينب نائمة الآن.. تنهد ثانية ومد يده في عمق جيبه يبحث عن المفتاح. كان يحاول أن يتزن في حركاته فهو لا يريد أن يفتح الباب وتـــراه

زوجه في حالة سكر.. طبعاً ستعاتبه من أجل رائحة العرق التي تفوح من فمه، ستقول له: ألم تعدني بأنك ستخفف من شربه حتى تنقطع عنه؟

أجابها: إن شاء الله..

أردفت بعتاب: عندما تشاء سيشاء سبحانه وتعالى أيضاً..

ويغضب منها فيعلو بصوته: لا تكفري يا امرأة!

فتقول له: معك الحق! ألأني أقول الصدق، أكفر بنظرك. أما أنت يـــا مـــن تتعاطى المنكر فلا تقول لنفسك، كفاك عصياناً لأمر الله.. ويغضب بشدة ويقول: ما بك اليوم يا أم عدنان؟ دعيني بحالي.. ألا تكفيني مشـــاغلي ومشـــاكلي مـــع الزبائن في النهار، فتأتين أنت في الليل لتفلقي رأسي بثرثرتك هذه..

ترد عليه وهي تطفئ ضوء الممر حيث تعبر منه إلى الصالة: هـــا أنـــت تسمي نصائحي وتذكيري لك بكلام الله، ثرثرة؟

وهنا يجن حامد فيهجم عليها شاتماً: يا بنت الكلب. ماذا؟ هل أنا جاحـــد بكلام الله حتى تبغي تذكيري به؟ يا نصف عقل ونصف دين، يا ضلعاً أحمـــق وناقصاً.. اخرسي. وإلاّ قسماً عظماً بالله لن ادع هذه الليلة تمر وأنت حلالي.. اندفسي ونامي..

لا يدري حامد لماذا تذكر كل هذا وهو يبحث في عمق جيبه عن المفتـــاح بينما عينا المتعهد عبد الفتاح.. ترمقانه من جديد، لقد رأى فيهما جوعاً جنســـياً متأصلاً! رأى فيهما نهماً وحشياً كأنه لم يلمس امرأة في حياته، كأنه، ــ هكـــذا يحس به ــ لم ير أنثى طوال عمره. أما عندما يقـــول: أريـــد هـــذه. فكلامـــه قانون... إذن يجب أن يحصل عليها، حتى لو دفع كل ما يملك.. ولكن زينب..؟

أحس حامد بقرصة حادة في قلبه، إنها زينبه... وضحك ضحكة سوداء وهو يقول: ها أنت تتكلم مثلما تكلم الشاعر ابن عمك.. الشعر الذي سلبه العقـــل، فظـــل يلف ويدور ناظماً القصائد بابنة عمه «سعدة» حتى صدمته شاحنة وقضت عليه.

ظل حامد يبحث عن المفتاح في جيبه دون أن يعثر عليه وهــو يقــول: وأنت يا أبو عدنان هل ستكرر أنها زينبك حتى تسقط باكورة عبد الفتاح على رأسك، فتنزلك إلى سابع طبقة من طبقات الأرض حيث ستنتظرها إلى الأبد!

وابتسم ساخراً وهو يبحث عن المفتاح في جيوبــه، أيــن ذهــب؟ هــل أضاعه؟ هل وقع منه أثناء تحليقه إلى نوافذ زينب؟ أم أثناء وقوعه في الحفر وتخبطه هنا وهناك في الشوارع؟

وفجأة هتف.. ها.. ها.. هو المفتاح.. والمفاجأة الثانية كانت قبل أن يضع المفتاح في الثقب، أضيء النور في البيت، وفتح الباب على وجه زوجه فاطمة.

وقف مشدوهاً كأنه متلبس بسرقة وصاحب البيت يضبطه أثناء محاولته فتح الباب، لم يقدر إلاّ أن يبتسم لها ابتسامة بلهاء.

ألقى التحية: مساء الخير يا عيني..

ردت عليه بخبث: بل قل صباح الخير يا نور عيني..

أطبق الباب وراءه وسار منكسر النفس، وراءها، وهو يضحك ويقــول: ليس هذا مهماً..

ردت زوجه: طبعاً. المهم لديك أن تأتيني في كل يوم مع الفجر..

ثم أردفت: هذه ليست عيشة. الناس تكبر تعقل. أما أنت، فالحمد لله.. تجن!

لم يغضب حامد من كلامها كعادته، لأنه في تلك اللحظة كــان يفكــر بــأن الساعات الباقية لعودة زينب إليه باتت قليلة.. لذا ضحك، انبسط، انشرح لأقوال زوجه، خاصة وهو يحدق في ردفيها السمينين الثقيلين وهما يترجرجان تحــت ثوب النوم الوردي.. وغامت زوجه أمام أنظاره لتحل مكانها زينب عارية، تسير أمامه على درب معشوشب.. ولم يتمالك نفسه فهجم عليها كأنه يهــاجم قلعــة حلب.. بوغتت زوجه فاطمة بهجومه على ردفيها، فراحــت تردعــه بصــوت خافت: ماذا؟ هل جننت؟ ستوقظ الأولاد.. على مهلك.. لا بد أنك جننت.. نعــم لا

بد أنك.. وقاطعها: نعم جننت، إن لم أجن الآن فمتى أجن؟

سألته باحتجاج: يبدو أنك أكثرت من الشرب؟

أجابها بانشراح: وحياة والديك وفوقهما والداي لم أشرب منه قطرة واحدة بعد! أنا سكران بشيء آخر تماماً يا زيـــ .... أم عدنان. سألته زوجه: ماذا؟

بلع ريقه وتابع: نعم أنا سكران.. سكران..

وتابع في نفسه: اللعنة كدت أن تفضح نفسك يا أحمق؟

وضحكت زوجه وهي تنهد على السرير وتقول: يا لك من عابث مـــاكر تعرف كيف تنقذ نفسك.. ثم أردفت: قم.. قم.. اخلع ثيابك،

قال حامد بتسليم: نعم.. ثم بشيء من الدلع الصـــبياني: مـــا رأيـــك أن تخلعينها عني؟

ضحكت زوجه فاطمة وقالت: ها أنت تعلمت الدلال أيضاً. من علمك إياه؟ وكاد أن يفلت من لسانه مرة ثانية اسم زينب، ولكنه قال: من يكون غيركِ؟

ثم أردف بخبث: أم تريدين أن تكون هناك واحدة أخرى؟

صاحت به فاطمة: ما شاء الله.. ما شاء الله.. ها أنا أسمع كلاماً جديـــداً منك يا أ.. بو.. عد.. نان..

وراحت تخلع عنه الثياب.

الكتاب الثاني -2

ثلاث غرف وصالة

من بين الوقائع المرعبة التي تتذكرها فاطمة، واقعة رحلتها مع زوجها حامد إلى سوق المدينة... لقد ظلت أكثر من أربعة أعوام بعد مجيئهـا إلـى حلب، وعيشها فيها، لا تفكر في يوم من الأيام بالخروج عـن حـدود حـارة «الشيخ مقصود». كانت لا تعرف سوى حوانيت الحارة. تبتاع منها حاجـات البيت، وما يحتاج إليه الأولاد. لم تعرف أن في المدينة عشرات الأسواق التي يجد المرء فيها ما يريد. يجد فيها ما يبهره ويذهله ويجعله غريباً عن نفسه، فلا يصدق ما تراه عيناه!

كانت تتساءل: يا الله. ما أكثر السيارات في الشوارع؟ شـيء مرعـب ومخيف! ثم تردف: أما عندما أضطر إلى ركوب واحدة منها فلا أصدق متـى سأنزل منها، لأنني أشعر كأني محبوسة في تابوت، محمولة على أكتاف جـن وعفاريت، يذهبون بي إلى القبر ليواروني التراب. وأشعر بضيق في التنفس، حتى أكاد أن أختنق..

تضحك متابعة: رغم هذا فأنا أدفع أبو عدنان إلى طريق شـراء سـيارة لنا.. مثل هذا الكلام كانت تقوله أحياناً لهذه الجارة أو تلك من جاراتها، وهـو من باب الزهو لا غير.. كانت تريد أن تقول لهن: إن أوضاعها المعيشية فوق الريح كما يقول المثل. ورغم هذا كانت تضحك وهي تعيد من جديـد حكايـة نزولها إلى السوق أول مرة. كانت تطلب من جاراتهـا أن يفـتحن آذانهـن ويستمعن إليها، وإلى وقائع نزولها مع زوجها أبو عـدنان لأول مـرة إلـى

السوق، من أجل شراء بعض الأدوات الكهربائية، فقد وجد حامد، أنـــه مـــن العار أن يعيش كما كان يعيش في السابق. فهو اليوم يملك أموالاً. عليـــه أن يرفه حياته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليخفف التعب عن زوجه

تقول فاطمة: يوم ذهبت مع أبو عدنان إلى السوق لشراء ثلاجة، كنـــت قبل يوم واحد قد قلت له: إن الماء الساخن يلهب جوفي.. فما كان منه إلا أن قال لي: تكرمي.. غداً سأذهب إلى السوق وأشتري ثلاجـــة.. فرحـــت كثيـــراً ورغم هذا قلت له: ما رأيك لو نزلت معك إلى السوق؟ هز رأسه موافقاً. وفي مساء اليوم التالي ذهبنا إلى السوق.. كنت أظن أن سوق المدينة لـــن يكـــون أفضل من سوق الشيخ مقصود..، لم أكن أعرف أنه سوق عجيب وغريـــب، يمكن للإنسان أن يضيع فيه. كنت منبهرة وأنا أتلفت حـــولي، محدقـــة فـــي المحلات والدكاكين والوكالات. كنت غير مصدقة ما تراه عيناي، لا اصدق ما أراه في الواجهات من ألبسة وأضواء وتماثيل يُلبســـونها ثياباً نســـائية، لا أعرف كيف يمكن للمرأة أن ترتديها! كانت التماثيـــل وهـــي ترتـــدي الثيـــاب بأنواعها تبدو كأنها نساء حقيقيات، ولكن ما كان يلفت النظـــر هـــو الثيـــاب الداخلية للمرأة. كنت أقول لنفسي، كيف؟ ألا تخجلون من عرض مـــا يخـــص المرأة بهذه الصورة الفاضحة؟

كانت أيدي التماثيل ممدودة إلى الأمام كأنما تطلب منك أن تتفضـــل فـــي الدخول إلى الدكان..كنت سائرة برفقة أبو عدنان وأنا مذهولة تمامـــاً، ولعـــل أغرب شيء شاهدته في ذلك اليوم، هو الأزهار! لقد تساءلت أيمكن أن توجد دكاكين لبيع الزهور أيضاً؟

ضحك حامد وقال: هنا، في المدينة، يباع كل شيء.. حتى الأزهار.

ضحكت، ثم قلت له: لا بأس، لندعهم في الربيع إلى الضيعة مـــن أجـــل جمع سلال وسلال من الزهور.. أما ما شاهدته من أجهزة الراديو والتلفزيون

والمسجلات والغسالات فيذهب بالعقل! لكزت أبو عدنان وسألته وعيني على إحدى الغسالات: هل صحيح انه توجد غسالة يمكن أن توضع فيها الثياب بوسخها، ثم تذهب المرأة إلى النوم، وما أن تمر ساعتان حتى تخرج الثياب منها نظيفة وناشفة.

ابتسم أبو عدنان وقال: نعم..

زاد جوابه هذا من انبهاري، كنت لا أصدق وأنا أنظر إلى زجاج الواجهات بدهشة! كنت، أسير على الرصيف مشدوهة فأتلفت حولي وأحياناً كنت التصق بأبو عدنان بصورة فجائية عندما أسمع زمور سيارة. كنت أخاف من السيارات كثيراً، وقد سألت أبو عدنان ذات مرة: ماذا لو صعدت واحدة منها إلى الرصيف، وأمام هذه الواجهة أو تلك فصدمت المارة؟

كان أبو عدنان يضحك ويقول: ماذا؟ هل السائق مجنون حتى يصعد الرصيف؟

كنت أسكت ولا أعرف بماذا أجيب. ولكن رغم جهلي هذا، كنت على قناعة، أن السيارات يمكنها أن تصعد إلى الرصيف وفي صعودها ذاك لا يمكن إلا أن تقتل شخصاً من المارة! لذا عندما ألتفت في ذلك اليوم، بعد أن شعرت بشيء من الخوف، إلى أبو عدنان ولم أجده... جننت. نعم جننت! التفت إلى كل الاتجاهات، ثم مددت نظري بعيداً فلم ألمح وجه أبو عدنان بين مئات الأشخاص الذين كانوا يمرون بي في تلك اللحظة.. اختفى أبو عدنان، ذاب كإبرة في جوال من التبن، ذاب كحبة ملح في الماء.. عدت أعمل نظري في وجوه الناس الذين ـ لا أدري كيف في تلك اللحظة ـ قد تزايدوا، كأنهم فجأة توالدوا بالآلاف! كنت لا أرى إلا وجوهاً وقامات تمر بي.. فقط وجه أبو عدنان اختفى بين زحمة الوجوه..

في تلك اللحظة تصاعد ألم حارق إلى نفسي وأنا أقول: لقد أضعت

حامد.. فهرعت إلى الأمام صارخة: أبو عدنان؟ ثـم تراجعـت إلـى الـوراء صارخة أيضاً، أبو عدنان..

ولكن أحدا لم يرد عليّ..

في تلك اللحظة لم ادر ماذا جرى لي؟ ماذا حدث لعقلي؟ فقد رأيت الرجـال من حولي قد انقلبوا إلى جن أزرق وعفاريت حمر وسـود.. وعيـونهم تقـدح بالشرر، وهم ينظرون إلي، ثم امتدت أيديهم، هكذا خيّل لي.. يريـدون سـحبي ورفعي إلى أكتافهم، ثم الهرب بي! كنت أحس أن شيئاً قد انكسـر فـي نفسـي، واستمر في انكساره، أحس بقدميّ قد تراختا ولم تعودا تقدران على حملي.. هـا أنا أضيع في هذا السوق الذي ليس له مدخل أو مخرج، فهو مفتـوح مـن كـل جهاته.. حتى إنني لم اعد اقدر على التفكير، لأن الأمر الوحيد الذي كنت أفكر فيه هو أبو عدنان. أين ذهب؟ أين اختفى؟ هل تركني وهرب؟ هل يريد التخلص مني؟

وتضحك فاطمة، ثم تردف، لقد أخبرت أبو عدنان بأمر هروبـه منـي! فضحك مني وقال: يا لك من ساذجة..

تعود فاطمة وتكمل قصة ضياعها في السوق، كنت أفكر: ماذا لو لم أجد أبو عدنان؟ إلى أين أذهب؟ فأنا لا أعرف اسم الحارة التي اسكنها، لـم أعـد أذكر شيئاً في تلك اللحظة المضطربة التي كنت أمر بها.. لقد نسيت تماماً اسم «الشيخ مقصود» لم يعد يخطر ببالي، رغم محاولاتي لذلك.. كنت، وأنـا فـي حالة رعبي تلك، أندفع إلى الأمام تارة وأخرى إلى الخلـف، وثالثـة باتجـاه اليمين ورابعة باتجاه اليسار واهتف باسم أبو عدنان..

أخذ الناس ينظرون إلي! حتى إن بعضهم قد أخذ يضحك شاتماً، ثم رأيت رجالاً توقفوا عن سيرهم، وأخذوا يتشاورون، مـاذا سـيفعلون بـي؟! ازداد رعبي رعباً، لأنني وجدتهم بعيون دموية يريدون الهجوم علي، يريـدون أن يشدوني إلى أوكارهم... وأتخيل الرجال الذين ينظرون إلي يهجمون علـي..

فأهرب مندفعة إلى الأمام وأنا اصرخ أبو عدنان.. الحقني..

وتضحك فاطمة بخجل وتتابع الحديث: وفي اندفاعي ذاك كدت أن ادخل في زجاج أحد المحلات.. شعرت بضغط قوي على جبهتي، ومن حسن حظي انـــدفع الزجاج إلى الداخل، ثم ارتد إلى وضعه الطبيعي وهو يهتز.. ولم أر إلاّ صـــاحب المحل يخرج إلي مذعوراً، صارخاً: هيه.. ماذا؟ هل أنت عمياء؟ ألم تري الزجاج؟

طبعاً لم أقم وزناً لما قاله، لأن تفكيري كان منصباً على أمر واحد، كيف أجد أبو عدنان. كيف ألقاه.. وناديت: أين أنت يا أبو عـــدنان؟ كنـــت أصـــرخ فقط... وفجأة أمسكت يد بمعصمي. التفت بجنون إلى صـــاحب اليـــد فرأيـــت أمامي أبو عدنان. شعرت بشيء ما قد انهار في نفسي. كنت كجـــدار صـــلب متماسك وفجأة تراخى الملاط بين أحجاره فانهار دفعة واحدة.. هكذا تراخـــت ساقاي فأغمضت عيني وأنا أقول هاتفة:أنت! وانهرت بين يديـــه. وتضـــحك فاطمة وتقول: في البيت سبني حامد وشتمني وقال لي: الحق علي أنا لأنـــي وافقت على ذهابك معي إلى السوق. وسألني وهو مازال غاضباً اشد الغضب: ماذا جرى بك؟ لقد كنتِ مثل مجنونة تهتفين باسمي؟

وهكذا ظللت بعد هذه الحادثة لأكثر من سنتين لا أجرؤ على الذهاب إلى المدينة. تركت أبو عدنان يشتري بنفسه كل حاجات البيت.. وتضحك فاطمـــة وهي تتابع: أما واقعة شراء البيت فكانت أطرف من واقعة ذهابي إلى السوق.

أخذت فاطمة نفساً، ثم تابعت: خلال ثلاثة أيام قبل أن يشتري أبو عدنان بيتنا هذا، كان مشغولاً، مهموماً. سألته أكثر من مرة ما الـــذي يشـــغله؟ أدار وجهه عني وقال: لا شيء.. سألته: كيف لا شيء وأنت لست علـــى طبعـــك! نظر إلي ملياً ثم ما لبث أن ضحك وأجاب: بل أنا على طبعي بالتمام والكمال.. أملت أمامه عنقي وقلت له: خير.. وفي مساء اليوم الرابـــع أتـــاني.. طلـــب العشاء، ثم رفع رأسه وأخذ ينظر إلى السقف، ثم أداره بين حيطان البيت. نقل

نظره من حائط إلى آخر، وعلى وجهه بسمة حزينة مريرة.

كنت جالسة بين الأولاد، أحيك كنزة صوف، أسترق إليه نظرة بين الحين والآخر وسؤال غامض يزحف إلى نفسي: ماذا به؟ لماذا يرفع رأســـه بهـــذه الطريقة إلى السقف ويدير نظره في الحيطان؟ ما به؟ هـــل أصـــيب بـــالعين؟ وتذكرت الحسد وأفعاله. فشعرت بقبضة تعصر قلبي، ها نحن لم نهنأ بالراحة حتى جاءت العين الحاسدة لتعمل في بيتنا، وتفعل فعلها.

في تلك اللحظة شعرت بالخطر يخيم على البيت وأهله، ويلف حول رأس أبو عدنان فسألته: أنت لست طبيعياً، ماذا دهاك؟

ضحك وهو ينظر إلي ويتأملني كأنه يراني لأول مرة، ثم قال: نعم. أنـــا لست على بعض! ثم قام ووقف في منتصف البيت ورفع يديـــه إلـــى الأعلـــى وهتف بأعلى صوته: أبشري يا أم عدنان أبشري!

قلت لنفسي: ها هي الواقعة تقع! ها هو أبو عدنان يفقد عقلـــه! ومـــن دون رغبة مني، وقفت أيضاً ومشيت باتجاهه خطوة كأنني أريد أن أبعد عنـــه العين الحاسدة التي تحاول أن تصيبه بأذى.. فلم أستطع أن أخطو تلك الخطوة التي أردتها، أكمل اندفاعي إليه. كنت قد تسمرت في مكاني كأن ذلك تم بفعـــل ساحر.. ذلك لأنني رأيت أمراً مهولاً، رأيت أبو عدنان يدور حول نفسه ويدور وهو يهتف: ابشري يا أم عدنان ابشري.. لم يبق لك من العـــيش فـــي هـــذه الغرفة الحقيرة سوى ليلة واحدة!

لم أفهم منه حرفاً واحداً! سمعت كل كلمة قالها، ولكني لم أفهم مقصده من الكلام الذي قاله... هجم علي وطوقني بساعديه، رفعني عن الأرض قليلاً وأخذ يلف بي ويدور في وسط الغرفة وهو يهتف: ابشري.. ابشري.. ابشري.. ثـــم تابع: لقد اشتريت في منطقة البنايات بيتاً.. شقة بثلاث غرف وصالة..

أنزلني إلى الأرض، ولكنه لم يترك خصري. ظل يشدني بساعديه.. مـــرة

أخرى لم أفهم ماذا وراء كلامه.. فقد ظننت أول الأمر، أنه اشترى بيتـاً بغيـة المتاجرة به. كما كان يفعل من قبل، في بعض الأحيان من اجل أن يزيد ربحه.. بعد برهة من الزمن دار الأمر في رأسي. قلت، أيقصد انه اشترى بيتاً لنا..

سمعت أبو عدنان يتابع: غداً.. منذ الصباح يجب أن تذهبي إليه لغسـله من أجل أن ننتقل إليه بسرعة.. ندت عني كلمة تساؤل: ماذا؟ سـألته ثانيـة للتأكد، إن كان حقاً قد اشترى بيتاً؟ ثم أخذت أيضا ألف وأدور معـه.. وأنـا أتابع أسئلتي: هذا.. هل.. هذا.. يعني.. أننا سنخرج من..

قاطعني: نعم.. سنخرج.. ألا تكفينا خمس سنوات ونحن نتخبط في الوحـل شتاءً والغبار والمياه الآسنة صيفاً: وأجاب نفسه: يكفي.. يكفي.. لقد.. ولم يكمل.

في تلك الليلة لم أنم. كنت أفكر بأشياء كثيرة، أشياء لا تخطر على البال، تنهدت وأنا أحدق في السقف وأقول: وأخيراً لفنا الله برحمته بعد أن قاسـينا من العذاب الأمرين، وعانينا من المرض بسبب قذارة الحارة بما فيه الكفاية.. وآن لنا أن نرتاح، وأن ننتهي من الخـوض فـي الميـاه الآسـنة والغبـار والأوساخ... ظللت أتساءل حتى نمت ونفسي مترعة بالآمال والإيمـان بـأن على الإنسان ألا يقنط من رحمته تعالى. نمت ليلتها ملء جفوني... ولم تمض ثلاثة أيام حتى انتقلت إلى بيتنا الجديد هذا.

في البداية كان كل شيء غريباً علي، فالمياه موزعـة كأعجوبـة عبـر مواسير مختفية في الحيطان والأرض. لا أرى منها سوى «الحنفيات» مـا إن تمد يدك إلى لوالبها وتديرها حتى ينسكب منها الماء! أما الحمام فكنت افتخر به.. وبعد زمن ركبتني رغبة في أن أشعل الحمام في كل يـوم بسـبب ودون سبب لأستحم في اليوم الواحد أكثر من مرة.

أخذت أدور كما دار أبو عدنان في تلك الليلة التي أخبرني فيها بشـراء البيت بين جدران الغرف، انظر إليها بنظرات حالمة، أحدق فـي بـلاط ارض

الشقة اللامع صيفاً، المغطى شتاءً بالسجاد. أجلس في الصـــالة أتمـــدد علـــى الكنبة، أضم يدي إلى صدري وأغمض عيني.

أخذت الحياة تجري من حولي هادئة، بلا متاعب ولا شقاء. كـــل شـــيء يؤّمن لي: الخبز والخضار واللحم. لم أكن بحاجة إلى شيء... أخـــذت أفكـــر بضرورة تغيير مفروشات البيت. ولكن كيف، لأول مرة أخذت مشكلة النـــوع تشغلني. كنت أتمنى لو أستطيع زيـــارة بيـــوت الأغنيـــاء لأرى كيـــف هـــي مفروشاتهم؟ كيف تم توزيعها في الغرف؟ ولكن أبو عدنان أنقذني مـــن هـــذه المشكلة. هو الذي قام بشراء المفروشات ووزعها في الغرف والصالة..

وتلتفت فاطمة حولها متابعة بافتخار: كل شيء مرتب.. ثم تردف: ولكني اليوم، بعد أن مرت أربع سنوات، أرى ضرورة تجديد المفروشـــات.. ولعـــل سبب تأخري هو رغبتنا في الخروج من حارة «الشيخ مقصود» ثـــم تابعـــت بارتخاء: سنذهب لنسكن في حي الزهور.. هذه هي رغبة أبو عـــدنان ولكـــن ليس قبل أن يحل بعض المشاكل بينه وبين المتعهد...

سكتت فاطمة، ثم ما لبثت أن تابعت: أنا أعتقد بأنه لن يطول الزمن الذي سنبقى في «الشيخ مقصود» لن يطول.

فاطمة وزينب وخديجة.. إلى آخرهن...

أخذت المشاكل تطل على فاطمة واحدة وراء أخرى، فوقفـــت حـــائرة لا تعرف التصرف! أرادت أن تشكو أمرها إلى زينـــب ولكنهـــا تـــرددت لســـبب غامض مجهول. ثم حسمت الأمر في نفسها، أن لا تفعل.. لأن زينـــب، هـــي غريمتها! لماذا؟ لا تعرف! إحساس ينتابها ويؤكد لها أن زينـــب مثـــل أفعـــى راقدة تحت التبن! لا يعرف المرء متى سترفع رأسها وتلدغك لدغة مميتة. لذا آثرت أن تلم نفسها على العذاب والأسى الذي بدأ يجتاح حناياها مـــن دون أن تعرف سبباً لذلك..

ابتدأت مشاكلها عندما رأت في المكتب، لــدى زوجهــا رجــلاً بســحنة غريبة، رأت فيه مخنثاً يحاول أن يقلد المرأة أثناء حديثه، فيضــحك بطريقــة نسوية، لا يكف عن تحريك قطعة اللبان في فمه.

كان المخنث مزجج الحاجبين، منتوف الشعر، شعر الصدر.. لــم تــرتح فاطمة لوجوده لدى زوجها.

عادت إلى البيت والتساؤل يدور في رأسها، من يكون هذا المخنث؟ لماذا هو عند زوجها؟

أحست بالخوف والتساؤل ما يزال يدور في نفسها، ماذا لو وجدت نفسها ذات يوم امرأة قديمة في حياة زوجها؟ أي، تزوج بواحدة جديدة؟ ثم ما هــي الأسباب التي دفعت بالمتعهد أن يوكل إليه بيع عقاراته في «الشيخ مقصود»؟ لماذا يساعد زوجها بعض الرجال في شراء بيوت لهم مساعدات غير عادية؟ والمثال على ذلك، زوج زينب؟؟

ثم تعود فاطمة في حوارها مع نفسها إلى الرجل المخنث. لقد تأملته ملياً عندما رأته في المكتب! كانت تعرف أن بعض الرجال يصبغون شعورهم عندما يصبح شائباً، أما أن ينتف الرجل شعر صدره وحاجبيه! ثم ماذا يعني أن يزين أصابعه العشرة بالخواتم الذهبية مثل النسوة؟ في مساء ذلك اليوم الــذي رأت فيه الرجل، سألت زوجها عن أمر المخنث. لم يجبها أول الأمر، أمــا عنــدما كررت سؤالها، فقد نظر إليها طويلاً قبل أن يقول لها: ماذا. هل وقعــت فــي حبه؟ صُدمت بجوابه بعد أن شعرت كأنها تلقت صفعة... لم تعرف التصــرف، وماذا عليها أن تجيب. لذا ظلت مرتبكة وصامتة. تابع زوجها: إنه صديق..

سألته بعد أن استردت أنفاسها: هل هو متزوج؟ أقصــد مــاذا يعمــل؟ أجابها: كان متزوجاً. ولكنه طلق زوجه عندما لم يرزقه الله أولاداً ولم يتزوج ثانية.. أما عمله فهو على صلة برجال من أمثال المتعهد عبد الفتاح..

سكت حامد. ثم ما لبث أن سأل زوجه: ولكن قولي. مـــاذا دعـــاك إلـــى السؤال عنه وعن أحواله؟

عاد إلى فاطمة ارتباكها. فقالت باستعجال: لا أدري.. هكذا.. شكله لم يعجبني!

رد عليها بحدة: دعكِ من الناس وأشكالهم!

هزت رأسها موافقة ولم تعد إلى الحديث عن الرجل المخنث، رغم أن رغبتها على مر الأيام، كانت تزداد لتعرف عنه المزيد. تريد أن تعرف، إن كـــان حقـــاً، أن علاقة زوجها به لا تتعدى العمل.. كانت تخاف، أو بدأت تخاف من المجهول!

وهكذا أخذ القلق يغزوها من الداخل.. وقد دفعها هذا الأمر إلى أن تطرح على نفسها السؤال التالي: ماذا لو أن حامد تزوج امرأة ثانية؟

كانت تخاف من الرجل المخنث، كأنه هو الذي سيزوج حامد. ثم ما لبثت أن أخذت تخاف زينب أيضاً وزوجها، ذاك الشاب الذي اشترى عن طريق أبو عدنان بيته بطريقة ميّسرة جداً.

وتسأل نفسها: لو كان الشاب من أقربائه لفهمت الأمر على أنه مساعدة قريب لقريب. أما أن يكون غريباً فأسرار هذه الطريقة في البيع غير مفهومة! والحل يا فاطمة؟

هذا هو السؤال الكبير الذي أخذت تبحث له عن جواب.. كيف يمكنها أن تحافظ على زوجها لنفسها وأولادها فقط، ولا يشاركهم فيه أحد مـــن أمثـــال زينب أو أي امرأة أخرى؟

لم تمض فترة زمنية حتى أجابت عن السؤال بطريقة عمليـــة، عفويـــة، غريزية كأية أنثى تعتقد بضرورة الاهتمام بنفسها ولباسها وأناقتها من أجـــل الحفاظ على زوجها..

راحت تشتري الثياب «الموضة» الحديثة، وهي التي لم تعرف من الثياب إلاّ العادية.. أو بالأحرى لم تفكر في يوم من الأيام بهذه الأمور. كانت تعـــرف

أن الثياب جعلها الله لستر العورة فقط. ثم أخذت تتردد على المزينات من أجل قص شعرها وتسريحه، وتزور محلات «النوفوتيه» تشتري العطور المزيلة لروائح العرق عن العنق وتحت الإبطين وحتى تلك التي... وتشتري الألبسة الداخلية المثيرة والمدرة للعاب الرجل.. ولكن مشكلتها وهي تشتري هذه الحاجات النسائية أنها كانت لا تعرف طرق استعمالها بشكل لائق.. كانت تسكب العطور على نفسها وتلبس الثياب بطرق فجة.. ولم تهمل زوجها، بل أخذت تهتم به أكثر مما مضى، تسأله عن أسباب شروده في بعض الأحيان. وتضحك وهي تقوم بحركات مغناجة أمامه. تحاول أن تثيره بطرق بدائية. ثم أخذت تبحث عن جارة أصولها من المدينة لتستفيد من خبرتها في هذا المجال.. حاولت أن تلجأ إلى زينب ولكنها رفضت ذلك، فهي – أي زينب – غريمتها في نهاية المطاف.. هكذا كانت تعتقد فاطمة ما بينها وبين نفسها. لماذا؟ لا تعرف! شعور ما كان ينتابها..

علمت بعض الجارات بنوايا فاطمة فأخذن يضحكن منها – طبعاً بمحبة – ويقلن لها: يجب أن تعلمي يا أم عدنان، أن الأمر الوحيد الذي يقرب الرجل من زوجه، هو أن تعرف كيف تشده في كل ليلة إلى فراشها! وتعلق إحدى الجارات: طبعاً يجب أن يتم هذا الأمر ما بين المزاح والجد. يجب أن تعرف المرأة كيف تثيره وتستثيره بالكلام الحلو..

كانت فاطمة، في البداية، لا تجيد هذه الألاعيب النسائية، ولكنها ما لبثت مع مرور الأيام، أن أتقنتها إتقاناً تاماً. فقالت: الآن يمكنني أن أرتاح.. ولم يمض على راحتها شهور حتى شعرت، فجأة، أن لا راحة لها. خاصة عندما أخذت زينب تزورها في بيتها..

كان حامد في البيت عند الزيارة الأولى فلاحظت عليه نظراته المجنونة النارية التي يرمي بها جسد زينب، وخفة الدم التي حاول أن يظهرها أمامها.

إذ بدأ يمازحها ويكلّمها. سأل عن أحوالها: لماذا هي نحيفة كل هذه النحافــة؟ وسأل أيضاً: ألا يقدم لك زوجك ما فيه الكفاية من الطعام؟ وفي مســاء ذلــك اليوم أثارته فاطمة فقام عليها أول مرة، وبعد أقل من نصف ساعة قالت لــه: أنت اليوم لم تكن على بعضك!

سألها: كيف؟

ظلت صامتة: عاد وسألها فقالت: كنت بارداً.. هكذا شعرت؟

قال لها: ولكني سمعت فحيحك!

أجابته: لقد تظاهرت بذلك لكي لا أحرجك..

وقام حامد إليها مرة ثانية ولكن بشيء من التعب وعدم الرغبة الكافية، هكذا شعرت فاطمة.. وعندما نزل عنها سألها بلغة ممطوطة: كيف؟

لم تجبه. سألها: ماذا؟ هل نمت؟

أجابته: كلا..

سألها: لماذا لم تجيبيني؟

قالت: لا أدري. ثم أردفت: هذه المرة أفضل.. ولكن لست الذي عرفته.. وقبل أن يعلق سألته: هل تعاني من شيء ما؟

أجابها برفض: أبدا.. ثم ما لبث أن تابع: لقد تعبت اليــوم مــع بعــض الزبائن.. قالت: الله يعطيك العافية. عليك أن ترتاح.. يجب أن تنام.

وضمته إلى صدرها ونامت.

سنة واحدة فقط

مرة أخرى تتحدث فاطمة إلى نفسها، تتحدث عن وقائع زيارتهــا إلــى بيوت جاراتها اللواتي قضت معهن خمس سنوات، قبل أن تنتقل إلــى بيتهــا الجديد في «الشيخ مقصود». فتقول: رأيت جارتنا أم عبدو.. وهي أول جــارة سكنت إلى جانبنا في تلك البرية التي سكناها في الأيام الأولى من مجيئنا إلــى

حلب.. وبعد أن سلّمت كل واحدة منا على الأخرى، جاءتني ذات يـوم وهـي تبكي، وراحت تحدثني، كيف أن زوجها خسر في القمار كل ما يملك.. حتـى البيت الذي يسكنه!

كانت تحدثني، عن حظها الأسود وتقول: كنت اسكن في طابق نظيـف، لا نعرف البرد. السوق كان إلى جانبنا، ومدرسة الأولاد أيضاً، والفرن لـم يكـن بعيداً عن بيتنا إلاّ خطوات لا غير.. وتردف متحسرة: كنا في نعيم.. ولكـن، الله يخرب بيت الذي علّمه لعب القمار. لم يمض عليه سنة حتى خسر كل شـيء.. ولولا الحظ لكنا بقينا في العراء.. في البرية، حتى هذه الغرفـة المبنيـة مـن البلوك الإسمنتي، كنا حُرمنا منها.. الله يجازي الذي كان سبباً في خراب بيتي..

كانت بعد أن تنتهي من حديثها، تبكي بحرقة. ولكن البكاء لـم يفـدها.. ظللنا خمس سنوات جيراناً. كان زوجها أبو عبدو.. يعمل في أحـد المطـاعم نادلاً بعد أن كان شريكاً في فندق.. لقد شاخ خلال تلك السنة أكثر من الـذين يشيخون على امتداد عشرين سنة، غزا الشيب شعره خـلال شـهور قليلـة، وضعف بصره، تخلخلت أسنانه واسودت ثم تساقطت، فانخسف فكه والتصـق بالفك الثاني.. وتساءلت فاطمة: أيّ حياة يمكن للإنسان أن يعيشـها بعـد أن كانت حياته هادئة؟ ولكن الذنب ذنبه.. هو الذي دمر بيتـه وحياتـه وحيـاة أولاده. وزوجه..

تتابع فاطمة: كان كل ليلة يلعب القمار ولا «يلفي» إلى البيـت إلاّ فـي ساعات الفجر..

سكتت فاطمة لحظة، ثم ما لبثت أن تابعت، لقد حرقت أم عبـدو قلبـي. كنت أريد الذهاب إلى بيتها ولكن الوقت لم يكن يتيح لي أن أقوم بتلك الزيارة، ومنذ يومين، فجأة، قبضت أصابع يد على ساعدي، فالتفت لأجد أم عبدو تنظر إلي. قبلتها وقبلتني، ثم سألتني عن أحوال البيـت والأولاد وأبـو عـدنان..

أخبرتها، كلهم بخير. فقالت: لم نعد نراك يا أم عدنان! ماذا حدث للدنيا؟ أبهذه السرعة يمكن أن تنسي جيرانك؟ قلت لها: أعوذ بالله يا أم عبدو. ولكن برأس أولادي، أنا لا أفضى.. تعرفين شغل البيت ومشاكل الأولاد..

قاطعتني: أعرف. ولكن رغم هذا.كانت مدة جيرتنا طويلة.. أكثـر مـن خمس سنوات..

أحرجني كلامها هذا كثيراً. فقلت لها: لا تظني أني نسـيتك أو نسـيت بقيـة الجارات. ولكن أعدك سآتيك في أقرب فرصة. سأزوركم، لن أترككم حتى تملوا مني ومن وجودي.. لن أقوم حتى تطلبوا مني أن أفعل ذلك وأعود إلى بيتي.. خلص..

وهذا ما كان. قالت فاطمة، عندما ذهبت إلى أم عبدو شعرت بأمر غريب، خاصة عندما رأيت كيف أن العجاج والغبار يعلو في أزقـة الحـارة، والوحـل المتكون من المصارف المائية الطافية بالقذارة والماء الداكن الأسود على سطح الأرض تفوح منه الروائح الكريهة، ويعلو الذباب ويرتفع بموجات سـود إلـى الأعلى ثم يحط على الجدران وعلى وجوه الأطفال.. كم اشمأزت نفسي؟

لقد حاولت أن أمسك أنفي وأضغط على فتحتيه من أجل ألاّ تتسرب إليـه الروائح.. ولكني ما إن وصلت إلى بيت أم عبدو، حتى تركت أنفي خجلاً منها ومن الجارات الأخريات اللواتي جئن لاستقبالي. لو لم أفعل ذلك، لقلن سبحان الله، أبهذه السرعة نسيت السنوات التي عاشتها معنا بين الوحـل والطـين؟ بصراحة، لقد خجلت من نفسي.

قبل ذهابي لزيارة أم عبدو أخبرت أبو عدنان بذلك، قلت له: غداً سأذهب إلى جيراننا. فلم يعلق. ظل صامتاً. ثم ما لبث أن نظر إلي نظرة حيادية وهـز رأسه وقال: على راحتك. ثم تابع: بصراحة، كنت أريد أن أنبهـك إلـى هـذا الأمر.. ولكن مشاغلي هي التي أنستني ذلك. وبعد طول صمت قال: علينا أن لا ننسى حق الجيرة علينا يا أم عدنان!

وفي الصباح جهزت الطعام ورتبت البيت، ثم في الساعة العاشرة قمت ذاهبة إلى بيت أم عبدو.. وأنا في طريقي، كان ذهني خالياً. كنت أعتقد بأني في طريقي إلى بيت أم مروان في البناية الملاصقة لبنايتنا.. ولكني، ما إن تركت ورائي المباني في «الشيخ مقصود» ودخلت منطقة البيوت المبنية بالبلوك حتى راح كل شيء يتغير.. عدت أفكر بالأيام والشهور والسنوات التي قضيتها في هذه المنطقة، وكيف كان الغبار يعلو في وجهي وروائح المصارف المائية النتنة تفوح تحت أنفي، وموجات الذباب ترتفع عالياً، ثم تحط على الجدران.. وعندما رأيت الأطفال العراة، المرضى، وحبة حلب.. التي تحفر وجوههم، وتأكل آذانهم وأنوفهم وشفاههم، وددت الهرب والعودة إلى البيت، وأنا ألعن أم عبدو وغيرها من الجارات! وتساءلت: أحقاً كنت وأسرتي نعيش ها هنا؟ في هذه المنطقة المبنية بطرق بدائية؟ كيف لم أشعر خلال تلك السنوات بما اشعر به الآن؟ لم أحس بتلك الحياة الصعبة والتعيسة؟ لماذا لم أنظر إلى الطين والغبار والوحل والمياه الآسنة والروائح الكريهة كما أنظر إليها اليوم؟ وهنا تذكرت ما كان أولادي يقولونه لي بعد عودتهم من المدارس: لقد سرق الأولاد منا التفاح والبرتقال الذي أخذناه معنا لنأكله في المدرسة.. كانوا يأتونني وهم ميتون من الجوع! كنت أستغرب ذلك فأسألهم: ماذا بكم: لقد وضعت لكل واحد منكم ثلاث لفات من الأكل؟ فيردون علي، لقد سرقها الأولاد منا! كنت ألعنهم في سري، ثم أسرع إلى المطبخ لأحضّر لهم طعام الغذاء بسرعة.. وتسكت فاطمة، ثم تقول: الله يساعد الناس في حياتها! كيف يمكنهم أن يعيشوا هذه الحياة؟

لم يدم تفكير فاطمة في أمور الناس وحياتهم الصعبة، وأمور جيرانها بعد عودتها من زيارتهم أكثر من أربع وعشرين ساعة.. بعد ذلك عادت تصرفات جارتها زينب تشغل بالها من جديد. أخذت تفكر بالأمر وتقلّبه بين يديها في صباح

اليوم الثاني من زيارتها إلى بيوت الجيران.. ففي الصباح قرعت زينـب عليهـا جرس الباب. ودخلت وهي ترمي التحية: صباح الخير يا أم عدنان..

أجابتها: صباح النور: تفضلي..

دخلت زينب بحركة متسللة مـن وراء ظهـر فاطمـة كهـرة مدربـة، فاستغربت طريقة دخولها تلك! لوت شفتها ولم تعلق. سألتها زينب: ماذا، ألم تكوني البارحة في البيت؟

أجابتها: كلا.. لقد قمت بزيارة لجاراتي القديمات..

هزت زينب رأسها دون أن تعلق. ثم قالت: لقد جئت ظهراً أسـأل عنـك فأخبرني عمي أبو عدنان عن خروجك.. ولكنه لم يقل لي إلى أين؟

هزت فاطمة رأسها. بعد أن راح الفأر يلعب بعبها كمـا يقـول المثـل! سألتها فاطمة: خير إن شاء الله.. هل كنت تريدينني في حاجة ما؟

لم تجبها زينب أول الأمر. ظلت صامتة كأنها لم تسمع السؤال. كانت تتحرك في البيت بحرية تامة، ثم تمددت على الأريكة ورفعت ساقيها إلى الأعلـى، ثـم مددتهما فوق مسندها المخملي وأجابت: جئت أسألك عن أمر خاص..

كانت فاطمة قد وقفت في وسط الصالة والدهشة في عينيها لما تشاهده أمامها من تصرفات زينب. تابعت الأخيرة سؤالها:جئت أسألك سؤالاً يتعلق بأمور نسائية..

جلست فاطمة بحركة بطيئة والغيظ يأكل من عينيها وهي تقول: تفضلي..

قالت زينب: لقد..

وقطعت كلامها، ثم تابعت قائلة: لقد.. مضـى علـى انقطـاع دورتـي الشهرية أكثر من عشرة أيام.. هل هذا يعني.. ولم تتم..

ابتسمت فاطمة لها وحاولت أن تنسى جلسة زينب غير الطبيعية.. نسيت أفكارها السيئة حولها وقالت لها: الأمر طبيعي.. إنك على ما يبدو؟

ثم تابعت: ولكن من الأفضل لك أن تستشيري طبيباً ما؟

تساءلت زينب: حقاً..

هزت فاطمة رأسها باستغراب عندما لم تجد أية فرحة في عيني زينب، إنمـــا رأت أسى قاتماً يزحف إلى عينيها، وانكساراً في نظرتها. فسألتها: مـــاذا، ألســت فرحة؟

وكمن استيقظ من حالة شرود، أجابت: نعم.. ولكن المفاجأة هي التي.. ولم تكمل.

قامت زينب تريد الذهاب. ولكن فاطمة طلبت منها أن تبقى ليشربا معـــاً قهوة الصباح.

ذهبت فاطمة إلى المطبخ لتعد القهوة قبل أن تبدي زينب اعتراضاً مـــا.. وفي المطبخ أخذت تقلب الأمر في نفسها، خاصة عندما أخبرها زوجها بـــأن المتعهد سيأتي إليه في البيت، لعمل سيكملانه معاً.. ولم تنتهِ إلاّ والقهوة قـــد فارت وفاحت رائحتها بقوة..

أخذ القلق والخوف وكثير من الاضطراب يزحف إلـــى صـــدرها وهـــي تتساءل: لماذا أتى المتعهد إليهم؟ أليس لديه بيت؟ ثم تصرفات زينـــب وهـــي داخل البيت لديها، ماذا تعني؟ وهكذا عاد الخوف ثانية من أن يتـــزوج حامـــد مرة ثانية، أو أن يبحث عن عشيقة يضيّع أمواله عليها.. لقد نسيت فاطمـــة جارتها أم عبدو وبقية الجيران الذين زارتهم فـــي النهـــار. نسـيت الوحـــول والمياه الآسنة وبردهم في الشتاء، وجوعهم في الفصول الأربعة.. أما الـــذي انبثق في ذهنها، وهي في لحظة النسيان هذه، فهي ضـــرورة الانتقـــال مـــن «الشيخ مقصود».. هذا الطموح الذي يراودها منذ مدة طويلة، والذي أصـــبح اليوم ملحاً بوجود زينب في بناية واحدة معها.. يجب أن تنتقل أســـرتها إلـــى حارة أكثر نظافة، فيها أناس أكابر وشوارع نظيفة، وأمـــام مبانيهـــا أشـــجار وظلال ومداخلها عريضة، مضاءة بفـــوانيس.. تنســـيك «الشـــيخ مقصـــود» وساكنيها..

حوار الليل

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلاً والتلفزيون يقــدم نشــرة الأخبــار الأخيرة. أما فاطمة فكانت تفكر بزينب وهي تلوم نفسها، فقد شغلت نفسها أكثــر مما يجب بها، وبزواج زوجها الثاني المزعوم، وببعض الأفكار السوداء الأخرى!

كانت تحس بنار كاوية في أحشائها، نار تلهب أعماقها بالكامل، ولكنها، فجأة وبصورة قاطعة نفضت يدها دفعة واحدة من كل شيء وقالت: ليكن مــا يكون! وأردفت ساخرة: إن أراد الزواج.. فليتزوج، إن أراد السهر كــل ليلــة لدى واحدة من بنات الهوى فليسهر.. لقد تعبت من إشغال نفسي بهذه الأمور. تعبت ومللت من التساؤلات... لدي أولادي.. علي أن أهتم بهــم وبتــربيتهم فقط. أما ما تبقى من الأمور فإلى جهنم...

هكذا نفضت يدها دفعة واحدة من التساؤلات التي حملت إلى نفسها القلق والاضطراب والعذاب.. ولكن قرارها هذا لم يدم طويلاً، ولم يدم إلا ساعات، ما لبثت أن عادت التساؤلات إلى عقلها من جديد: أيمكن لها أن تتخلــى، هكــذا ببساطة عما حققته بعد أن صبرت طويلاً على شقاء الأيام وجوعها الــذي لا يرحم، والبرد الذي خلخل عظامها في الشتاء؟ أيمكن؟

وتهز رأسها بالنفي. كلا.. تهزه بإصرار، وفي أعماق نفسها خيط مــن النار يشب، خيط يصبح سلكاً غليظاً، سيخاً من الجمر يحرق أحشاءها ويلــف القلب ويكويه.. أبعد ذاك الشقاء تأتي امرأة مثل زينب، أو أية امــرأة أخــرى تسرق منها زوجها وبيتها وكل المستقبل الذي أمام أولادها؟ أهكذا ببســاطة، بعد أن أصبح الفقر والجوع والبرد في خبر كان، وفي طي النسيان أو كــاد، تأتي امرأة ما لتقنص منها المستقبل؟ كلا، لن يكون هذا إلا على جثتي..

حادت فاطمة بنظرها عن التلفزيون، نظرت إلى الباب نظرة فيها توثب. متى سيعود ابن الكلب؟ متى سيفتح الباب ويدخل؟ قررت ألا تنام، أن تســهر

حتى ساعة عودته... ففي هذه الليلة بالضبط يجب أن تفاتحه بالحديث وتكلمه عما يجري في خاطرها من تساؤلات. ستقول له: يجب أن يكف عـن سـهره اليومي، وأن يقلل من ساعات وجوده في الملاهي والمراقص، وأن يعود إلـى بيته في ساعة مبكرة. هي لم تعد تستطيع أن تراه يعود مع صـلاة الفجـر! وتسأل نفسها: لماذا هي ساكتة على هذه الأمور حتى الآن؟ متى ستفتح فمها وتسأله عن أسباب سهره اليومي؟

تقف وتحرك يديها كأنها في معركة مع قوى غير مرئيـة وتقـول: أنـا زوجتك لي حق عليك..

أقرت فاطمة في نفسها أن تطالب الزوج بهذا الحق. نعم.. لن أسكت بعد الآن أبداً..

جلست أمام التلفزيون وجسدها يرتجف تحت تأثير الغضب الذي فار في نفسها وهي تعاتب، لا بل تقاتل زوجها بينما كان المذيع يورد الأخبار الأخيرة. قالت فاطمة: لن أنام، سأسهر حتى ساعة عودته. وراحت تحدق إلـى وجـه المذيعة وهي تُرغم نفسها على السهر بينما كانت معزوفة موسيقى «عـازف الليل» الشهيرة تعلو وتخيم على صورة الحديقة والتمثال..

وفي لحظة معينة شعرت فاطمة برغبة في القيام والتطلع عبر النافذة إلى الخارج. شعرت كأن الضوء يشع في أطراف النافذة الشرقية.. توجهت حافية القدمين إلى النافذة وفتحتها...

كان الفجر قد أطل تماماً. تساءلت، لقد تأخر أبو عدنان اليوم أكثر مـن اللازم! ليس من عادته هذا أبداً.. دفعتها الرغبة في الذهاب إليه في المكتـب، يجب أن تذهب إليه لتتأكد، إن كان في المكتب أم لا؟

انسلت من النافذة إلى أرض الشارع وهرعـت بخطـوات خفيفـة إلـى المكتب، كانت الحارة فارغة تماماً من الناس رغم شروق الشمس! الشـوارع هادئة وخالية من المارة.. التفتت حولها باستغراب ثم ما لبثت أن أسرعت في

خطوها إلى زوجها.. وصلت إليه. كان المكتب مغلقاً.. ماذا؟ ألم يفتحه اليوم؟ وتلفتت حواليها..

كانت المساكن غارقة في صمت وسكون وغلالـــة الشـــمس الصـــباحية الدافئة تلف أبوابها ونوافذها.. مدت يدها إلى باب المكتب المغلق فانفتح مـــن تلقاء ذاته! تراجعت إلى الوراء خائفة! ماذا؟ هل نسيه أبو عدنان في المساء ولم يغلقه؟ لا يمكن.. ولكن أين هو، أين ذهب؟ ماذا يعنـــي أن يكـــون بـــاب المكتب غير مقفول؟ وزوجها غير موجود في داخله؟؟

التفتت، تريد أن تناديه، كما يفعلون في البرية.فلم تفعل لأنها تســـاءلت: أتراه، عندما انسلت من الفراش وجاءت إلى المكتب، كان نائماً إلى جانبها؟ لم تعد تتذكر إن كان نائماً أو غير نائم، إن كان بجانبها على الســـرير، أم كـــان خارج السرير؟

ارتدت إلى الوراء عندما سمعت أصواتاً وهمساً وبعضـــاً مـــن الضـــحك الخافت المكتوم. حاولت العودة إلى البيت فواجهتها، فجأة، عشرات الوجـــوه لرجال ونساء وشباب وشيوخ، وكثير من الحيوانات.. كان أصحاب الوجـــوه ينظرون إلى نقطة معينة من جسدها.. فأحنت رأســـها ونظـــرت إلـــى حيـــث ينظرون، يا إلهي.. كانت عارية تماماً. حاولت أن تغطـــي عورتهـــا بيـــديها، حاولت أن تتسلل من بين المتجمهرين حولها.. افسحوا لها الطريق أولاً، ثـــم ما لبثوا أن أحاطوها من جديد بدائرة من الوجوه والأرجل يضحكون منها وهم يشيرون إلى عريها. بينما يحاول البعض ضربها على يديها اللتين تستر بهما عريها.. أخذت تصرخ فيهم: أولاد الكلب دعوني أمضي.. اقتربوا منها وأخذوا من وحل الأرض يمسحون به جسدها.. أخذت تصرخ، ابتعـــدوا عنـــي، أولاد الكلب.. ضحكوا منها.. لقد أحكموا الدائرة من حولها، كما أنهم أحكموا طليها بالطين والوحل..

استمرت في الصراخ بهم: دعوني يا أولاد الكلب.. يضحكون ولا يردون على صراخها، إنما يستمرون في طليها بالوحل.. أخذت الدائرة تضـيق مـن حولها، والذين يحيطون بهـا مـن الرجـال والنسـاء والأطفـال والشـيوخ والحيوانات لا يتركون لها منفذاً للهروب، رغم محاولاتها المستمرة.. كـانوا يضحكون منها، ويدفعونها بأيديهم إلى وسط الدائرة..

ألمّ بها التعب وتسلل الإعياء إليها، فأصبحت لا ترى أمامها! كان الوحل الذي طلوا جسدها به قد أخذ يجف ويتشقق على لحمها، ثم راح يتساقط عنه قطعة وراء قطعة وهي تشعر بحالة من فقدان الوعي والهذيان.. ماذا دفعهـا للخروج من البيت في تلك الساعة المبكرة؟ وفجأة، شعرت بأنها تسـقط فـي هاوية بعد أن تراخت ساقاها، صرخت بأقوى ما تستطيع واستيقظت...

كان صدر فاطمة يدق بعنف، وأول ما سمعته بعد استيقاظها، هو صوت وشيش منبعث من التلفزيون الذي كان الإرسال فيه قد انتهى.. فبسملت وهي تتلفت حولها استعاذت بالله.. كان كل شيء في مكانه، لم يتغيـر شـيء فـي الصالة.. أما زوجها حامد فلم يأت بعد..

العودة

قامت إلى التلفزيون وأطفأته. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصـف عندما سمعت حركة أمام الباب. أرهفت السمع.كان زوجها يحـاول أن يضـع المفتاح في ثقب الباب.. ومع عودة زوجها المبكرة إلى حد مـا اليـوم انفثـأ غضبها. تمنت لو تأخر كعادته. لو عاد مع صوت المؤذن وهـو يـدعو إلـى صلاة الفجر. تمنت لو عاد متأخراً لتجد المبرر كي تصرخ في وجهه، تقـول له: أين كنت؟ أما أن يأتي باكراً، فقد ضرب مشروع غضـبها الـذي كانـت ستنفذه هذه الليلة بالذات. لذا قامت إلى الباب وفتحته له، بعد أن تأكد لها، أن زوجها غير قادر على فتحه. كان كالعادة قد شرب من العرق حتـى انقلبـت

عيناه إلى الخلف! عاد بفك مرتخ حيث لم تفهم منه ما يقوله إلاّ بصعوبة. عاد بيدين رخوتين كحبلين متهدلين من رمانتي كتفيه.

نظرت فاطمة إليه، قلّبته بنظرها، رفعته عالياً ثم تركتـــه يهـــوي إلـــى الأسفل. أدارته إلى الخلف، كم تمنت في تلك اللحظة بالذات، لو أنهـــا تضـــع قدمها على عجيزته المترهلة، ثم بدفعة واحدة من قدمها تبعده عن الباب قائلة له: اذهب، أكمل ليلتك عند التي ملّتك! ولكنه ــ علّقت فـــي نفســـها ــ عـــاد باكراً. جاء قبل أن يؤذن المؤذن لصلاة الفجر. لذا ظلت تنظر إليه، إلى وجهه كأنها بذلك تريد سبر أغواره. نظرت إليه، ثم أدارت له ظهرها، وسارت أمامه عبر الممر وهي تحتج بطريقة سيرها على سهره الليلي...

في تلك اللحظة شعرت بأمر غريب قد وقع، لو لم يقع الأمر الغريب هذا لما استطاعت أن تدير له ظهرها وتسير أمامه وهو يتبعها كخادم ذليل.

كان قد ابتسم وقال بصوت فيه خنة: مساء النور...

تابعت سيرها أمامه لا تلوي على شيء وأجابت: بل قل صباح الخير... ظل يمشي وراءها كالحمل الوديع. هي التي ظنت أنها ما أن تخطو خطوتهـــا الثانية حتى يمسكها من شعرها ولا يدعه إلاّ في اللحظة التي يجعلها وراءه.

قال لها حامد: ليس هذا بالأمر المهم... صباح الخير... مساء الخير...

تساءلت: من أين له خفة الدم هذه كما يقولون. خاطبته بصـــوت عـــال تماماً: طبعاً.. المهم أن تأتيني في كل يوم في الصباح! وتذكرت أنهـــا كانـــت ستقلب الدنيا فوق رأسه، تذكرت، أنها منذ دقائق كانـــت غاضـــبة، تريـــد أن تشرح له الأوضاع التي لم تعد تطاق، وتهتف، اقصد أوضاعي. ثـــم أعلنـــت بصوت غاضب هذه المرة: هذه ليست عيشة يا أبو عدنان!

طبعاً حاولت بكلامها هذا أن تغضبه. ولكنه لم يغضب إنما العكـــس هـــو الذي حدث. ضحك، انبسط، انشرح.. فكرت فاطمة بضـــرورة جلوســـها فـــي

الصالة، لتطلب منه أن يجلس أمامها لتذهب معه في حديث طويل، «تفــش» فيه خلقها كما يقولون. تشرح له كل مخاوفها، وتطــرح عليــه تســاؤلاتها، وتسأله عن أسباب سهره اليومي هذا.. تحادثه ويحادثها. أرادت كل هــذا... أما هو فلم يرد ذلك. إنما... ما إن جلست في الصــالة، علــى الكنبــة حتــى أمسكها من زندها السمين اللدن الطري، وشدها إلى الأعلى فوقفت وهي تنظر إليه. كان يبتسم لها بخبث، يلحس شفتيه بحركة دائرية من لسانه ويسأل: ما بك؟ ألا تريدين النوم؟ ويتابع: أنا ميت من النعاس. ثم يتابع بصــوت خافــت هامس وهو يرقّص حاجبيه: ومن شيء آخر... .

انفجر بضحكة قوية وهو يشدها وراءه باتجاه غرفة النوم، فأنساها كــل ما كانت تريد أن تقوله، كل ما كانت تود أن تفاتحه به من عتــاب... أدخلهــا وراءه إلى غرفة النوم كأنهما عروسان.

في تلك الليلة شعرت بالراحة تتسلل إلى أبعد نقطة في جسدها بعــد أن أحست بالإمتاع الكامل، وبدغدغة عذبة وشعور لذيذ طيب، دفعت بالجسد إلى أن تصحو خلاياه، وتنتبه أعضاؤه وتتوتر، ثم تشتد ويلتف باللــذة... وفجــأة يأتي الدفق الحار العذب... وينتهي إلى الخمول الممتع...

الكتاب الثالث -2

رغيف الخبز

عندما عادت زينب من منزل أبو عدنان، وهي تحمل بيمينها رغيف الخبز، عرفت لأول مرة ما معنى أن تكون المرأة جميلة! كانت أحياناً تضحك من نفسها وتقول معوضة عن القهر الذي ينخر عظامها ويحز لحمها: جمالك يكفي يا بنت الـــ....: ألا ترين كيف ينظر الرجال إليك، ينظرون إليك كأنهم يرون المرأة لأول مرة في حياتهم! تضيف وهي تغمض عينيها بارتياح وثقة في نفسها، آملة من ذلك أن يحمل لها الغد ما كانت تحلم به طوال سنوات وسنوات.

واليوم، أكدت زينب لنفسها: ها هو معنى ثروتها يظهر جلياً في عينـــي أبو عدنان، وها هي ترفع نظرها أمام المرآة وتقول بتصميم: أنت تملكين مـــا لا يملكه أحد في هذه الدنيا!

ولكن زينب، في أحيان أخرى، عندما يركبها اليأس، كانـــت تحـــس بعجـــز السلاح الذي تملكه، أو لا تعرف كيف تستعمله، فتنقلب على نفسها والحزن يأكل من كبدها وتقول: لن يطعمك الجمال والحسن خبزا. ولن تجلب حلاوتك ثوباً جديداً لك، ولن تخفف رقتك القهر عنك.. إذن ماذا يفيدك الجمال والحلاوة والرقة؟

كانت بعد هذا التساؤل تنتفض من نخاع عظامها وتجيب: تفيد.. ستفيد.. وهذا اليوم.. سيأتي.

لم تقدر على ترسيخ هذه القناعة إلا اليوم، عندما رماها أبو عدنان بتلك النظرة المستسلمة التي رجاها فيها رجاء حاراً أن؟؟؟

ولكي لا تستبقين الأحداث، عليك يا بنت الكلب، تقول لنفسها، أن تتمهلي في سرد تلك الوقائع..

جاء زوجها مراد وألقى نفسه على الأريكة الوحيدة التي في البيت، وبعد حين فتح عينيه وقال: هل لك أن تأتيني بالطعام، فأنا اليوم أكاد أموت من الجوع؟!

نظرت إليه وقالت: ألم تجلب معك الخبز؟

أجابها:لقد تأخرت في الوصول إلى الفرن.. وجدته مغلقاً..

عاد وكرر: لقد تأخرت..

قالت زينب ببرود: ليس لدينا خبز..

سألها: أبداً؟

أجابته: ولا كسرة منه..

قال بضيق: ولكني جائع..

نظرت إليه باستغراب وكادت تقول له: وماذا أفعل أن لـــم تجلـــب معـــك الخبز؟ سألته: أتريد أن أسخن لك الطعام.. إنه عدس بحامض..

اشتد غضب مراد: اللعنة! ولكنه لا يؤكل من دون خبز.. ثم لوى عنقـــه وقام إلى المطبخ ودار فيه باحثاً عن قطعة خبز في الخزانة وبـــين المؤونـــة، ولكنه لم يجد شيئاً. عاد إلى زينب وقال لها: اذهبي إلى بيت جيراننـــا، أبـــو عدنان واطلبي منهم رغيفاً أو أكثر إن وجد لديهم..

نظرت إليه طويلاً كأنها تريد أن تقول له، ولكني لا اعرفهم. ثـــم ألـــيس عيباً أن تطرق عليهم الباب وتطلب منهم رغيفاً من الخبز؟

عرف مراد ما يدور في رأس زوجه فقال: قومي.. ليس عيباً. ثم نحـــن جيران، قد يحتاجنا أحد من قاطني البناية أيضاً ذات يوم.. ثم.. ثم.. يجـــب أن تتعرفي إلى الأسرة، أقصد أسرة أبو عدنان، فهي أسرة طيبة. فقد أخبرتني أم عدنان أكثر من مرة بضرورة تبادل الزيارات فيما بيننا..

كتمت زينب ضحكة ساخرة لكلام زوجها وقالت: لا بأس.. لماذا لا تبادر هي إلى زيارتنا؟

لوى مراد عنقه باستياء وقال: دعينا من هذا الأمر. اذهبي الآن إلـــيهم واجلبي رغيفاً من الخبز..

سألته زينب: لماذا لا تذهب أنت؟ أنت تعرفهم، أما أنا فلا..

رد عليها باستياء: كنت أود ذلك ولكني متعب..

انتاب زينب شعور غامض، غريب لم تعرفه سابقاً. لقد كرهــت زوجهــا كرهاً أسود، حتى إنها رفعت صوتها تصرخ به: ماذا؟ هل قضيت نهارك فـــي تكسير الحجارة حتى تعبت كما تدعّي؟

جن جنون مراد فقال: هل من الضروري أن يكسر المرء الحجارة حتـــى يشعر بالتعب؟ ثم أضاف: أنا أعمل من الساعة السادسة صباحاً حتى الثالثـــة بعد الظهر. ومن الساعة الرابعة أدور على بيوت الناس، أبحث لـــديهم عـــن الأدوات الكهربائية المعطلة لتصليحها لهم حتى الساعة الثامنة مساءً.. أهذا لا يكفي حتى أتعب وأصاب بإرهاق؟

لم تنبس زينب بحرف. كانت تنظر إليه فقط، ثم ما لبثت أن تنهدت بقهر وقامت بطريقة احتجاجية وذهبت لجلب الخبز..

لم تستغرق عملية جلب الخبز من منزل أبو عدنان سوى ربع ساعة، ولكن هذه المدة الزمنية القصيرة كانت كافية لأن تقلب حياة زينب رأساً على عقب..

قامت زينب وهي تحمل حقد العالم وغضبه على نفسها، وعندما وصلت إلى الباب وفتحته أرادت إرادة صادقة أن تسكب حقدها وغضبها علـــى رأس زوجها مراد.. الأصلع. لأنها كانت تشعر بشيء ملتهب فـــي أعماقهـــا يتقـــد وينفث بخاراً، خاصة عندما تناولت بين أصابعها مزلاج الباب ودفعته بحركـــة عصبية إلى الوراء ليصدر صوتاً قوياً، حتى إن مراد.. مط رأسه مـــن بـــاب المطبخ لينظر ماذا حدث؟

لم يعرف ماذا حدث. لأن زينب كانت قد خرجت وأغلقت وراءها البـــاب

بالعنف نفسه. وقف مراد لحظة يتنصت.. ثم ما لبث أن لــوى شــفته وعــاد ليسخن عشاءه.

كان القهر في نفس زينب قد تصاعد وتكثف، وأصبح كالبخــار النــاري الذي ينفثه البركان قبيل هديره وقذفه الحمم.. حتى إن الدموع قد طفرت مــن عينيها. ماذا؟ هل كتب الله عليها الفقر الأبدي حتى تذل نفسها من أجل رغيف من الخبز؟ هل كتب الله عليها أن لا تلتقي إلا بأنصاف الرجــال؟ الأول عنــين والثاني جبان والثالث يأكل الفقر من كتفيه؟

وأمام باب بيت أبو عدنان، مسحت الدمع عن عينيها، واستردت أنفاســها لتكون طبيعية غير مضطربة، لكي لا تلاحظ عليها أم عدنان أية علامــات تــدل على وضعها غير الطبيعي.. لا بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، فرسمت على وجهها ابتسامة مرحة مرة ثانية وثالثة لترخي تقاسيم وجهها الذي شدّه الحقد والغضب والقهر في كل الاتجاهات فتشوهت سحنتها الجميلة تشويهاً فظيعاً. ولم تطــرق الباب حتى أحست بليونة جلد وجهها الذي كان قد أصبح قاسياً ومشدوداً.

كانت زينب قد قابلت أم عدنان أكثر من مرة، ولم تتعد علاقتها معها تلك المقابلات غير المقصودة، والتي تمت بيد المصادفة المحضة لا غير.. وآخــر تلك المقابلات كان منذ أسبوع. كانت نازلة. أما أم عــدنان فكانــت صــاعدة الدرج، وفي منتصف الطابق الثاني تلاقتا. كانت زينب تريد الاســتمرار فــي نزولها، تريد الاكتفاء بإلقاء التحية على أم عدنان فقط. ولكن الأخيرة أوقفتها بعد أن قطعت عليها الطريق وقالت عبر ضحكة خبيثة، وهــي تتســاءل عــن الأسباب التي لا تجمعهما معاً..

اضطربت زينب للوقوف.رسمت على وجهها ابتسامة غامضة، ثم تجاذبتا الحديث. وكان حديثهما له رأس ولكن ليس له ذيل كما يقولون! هذه المقابلة كانت الأخيرة لزينب مع أم عدنان..

شعرت زينب وهي واقفة تنتظر أن يُفتح لها الباب بأن زمناً طويلاً قد مرّ منذ اللحظة التي مدت يدها إلى الجرس وضغطت عليه بسبابتها، ابتدأ مديــداً منذ اللحظة تلك، ولم تنتهِ... ظل مستمراً حتى هذه اللحظة في كيانها، متغلغلاً في نخاع عظامها، كذلك ظلت مرتبكة حائرة، خجلة، كيف ستطلب منهم رغيفاً من الخبز وهي التي لم تزرهم أو تطرق عليهم الباب في يوم من أيام الشهور الثلاثة التي مضت على سكناها في البناية؟ ماذا سيقولون عنها؟ سمعت خلف الباب حركة ثقيلة، ثم فتح على أثرها فوجدت نفسها وجهاً لوجــه مــع أبــو عدنان، شعرت بتعرق شديد في راحتيها،واحمرار في شحمتي أذنيها، ثم بحبل ناري ينزلق من نقرتها إلى الأسفل حتى وصل إلى آخر فقــرة مــن فقــرات ظهرها!وجدت نفسها أمام أبو عدنان،وهو يسأل:نعم..ولكنه، ما لبث أن ضحك بارتباك غير مصدق ما تراه عيناه. كانت زينــب بلحمهــا وشــحمها ــ كمــا يقولون ــ تقف أمامه بالباب!تابع مصححاً من لهجته: من؟ زينب! يا أهلاً ويا ألف سهلاً.. زاد ترحيب أبو عدنان هذا من ارتباكهــا، لــذا لــم تســتطيع أن تتصرف بشكل طبيعي أمامه، فنسيت الغاية التي جاءت من أجلها تماماً.

تابع أبو عدنان ترحيبه قائلاً: أهلاً وسهلاً زينب. تفضلي. تفضلي. ادخلي..

ظلت لا تتفضل بالدخول. ظلت معقودة اللسان لا تعرف كيف تتصرف. عاد أبو عدنان يكرر دعوته: تفضلي.. نحن أهل.. ليس هناك غريب بيننا.. تفضلي.

حسمت زينب حرجها وارتباكها وتفضلت لتدخل بيت أبو عدنان، صامتة، ساكنة. لم تسأل إن كانت أم عدنان في البيت أو لا؟ فاضطرابها لم يــدع لهــا فرصة للتفكير في ذلك. لم تطرح على نفسها، إن كان وحده في البيت؟ عندما تابعت زينب بخطوتها الثانية إلى داخل البيت سمعت صوت انصــفاق البــاب وراءها... ومع عودة الهدوء والسكينة إلى جو البيت سمعت صوت أم عدنان تسأل زوجها وهي في المطبخ: من أبو عدنان. من جاء؟

ارتاحت زينب لسماعها صوت أم عدنان وتنهدت وهـي تزفـز الهـواء الحبيس في صدرها. كانت هذه أول مرة تدخل فيها بيت أبو عدنان، لذا راحت تنظر إلى ما تحويه الصالة من مفروشات، وما علق على النوافذ من ستائر.. ثم مشت لتجلس على كنبة طويلة، عريضة، لينة. شعرت أثناء جلوسها بأنها تغوص بين طيات من الريش حتى اختفت عجيزتها تماماً.

أخذت تتلفت حولها وهي منبهرة بما تراه عيناها انبهاراً أمسك عليهـا أنفاسها.. ازداد اضطرابها ورجفان أعماقها بعد أن جلست على الكنبة.

شعرت بأنها غريبة عن البيت الذي تجلس فيـه، وعـن أهلـه الـذين يحيطون بها. كانت لا تعرف متى ستقوم بعد أن تأخذ رغيف الخبـز وتهـرب خارجه عائدة إلى بيتها وهي تلعن في نفسها زوجها أشد اللعنات!

كانت في حالة معاناتها هذه، عندما استقرت عيناها، هكذا، فجـأة علـى عيني، أبو عدنان، الذي اتخذ جلسته على الكنبة العريضة، أمامها بالضـبط.. كان ينظر إليها نظرة غمض عليها معناها تماماً. كانت نظرة ثقيلة لم تسـتطع أن تتحملها فأدارت وجهها عنه، وحاولت أن تعمل نظرها في مفروشات البيت التي وجدتها في لحظة دخولها في منتهى الثراء... .

وللحظات نسيت، أبو عدنان... المتدثر بعباءة كأمير بدوي وهو يمـتص دخان النرجلية، يتأملها بتلك النظرة التي غمض عليها معناها!

أخذ الذهول يسيطر عليها وهي تنقل نظرها بين مفروشات البيـت.. هنـا الأرائك وهناك الكنبات. وفي هذه الزاوية الخزائن، وعلى هذا الجـدار الثريـات، وفي وسط الغرف والصالون الطاولات المغطاة بالمفارش الكتانيـة والحريريـة الجميلة. وهناك بعض الحاجات لم تتعرف عليها.. وتنهدت متحسرة، لأنها لم تكن تعتقد أن يكون بينها وبين جارتها أم عدنان... هذا الفارق الذي لا يقارن. كانـت تظن بأن الفارق لن يكون إلا في أمور ضئيلة، مثل، أسرة لديها تلفزيون ملـون،

وأسرة أخرى تلفزيون أبيض و أسود.. هذه القناعة كانت قد كونتها على أساس أنهما يسكنان في بناية واحدة و حي واحد.. لذا لم تتوقع أن يكون الفارق بينهما كالفارق بين الأرض والسماء؟ فتنهدت وقالت في نفسها أين أنا منهم؟

وخلال هذه اللحظات من المقارنة، وبعد تنهيدتها استقرت نظرتها مـــرة ثانية على عيني أبو عدنان... دون قصد منها، فرأت على وجهه ابتسامة لها ألف معنى.. ولم تقدر إلاّ أن ترمش بأجفانها، منسحبة إلى داخل نفسها كمـــا يفعل القنفذ أمام خطر يهدد حياته، ولم تخرج من جلدها إلا في اللحظة التـــي أتاها فيها صوت أم عدنان.. من داخل المطبخ تعتذر لها عـــن تأخرهـــا فـــي الخروج إليها والترحيب بها، فهي مشغولة بغسل بعض الأطبـــاق.. و علـــى وشك الانتهاء منها..

شعرت زينب بعد حديث أم عدنان.. بشيء من القوة والدعم المعنـــوي. فالتفتت إلى أبو عدنان.. هذه المرة عن قصد منها، كأنها تحاول أن تنظر إليه بتحدٍ فرأته ينظر إلى ساقيها.. ضبطته بالجرم المشهود كما يقولون. فارتعبت، خافت أن يكون جزء من ساقيها قد تكشف في أثناء جلوســـها دون أن تنتبـــه إلى ذلك، فمدت يدها ولمست ثوبها فوق ساقيها، ثم دفعت بأطرافه إلى تحـــت فخذيها لتحمي نفسها من نظرات أبو عدنان.. ولكن حركتها هذه دفعـــت أبـــو عدنان.. لأن يبتسم ابتسامة عريضة كأنه يقول في نفســـه: برافـــو.. مهمـــا حاولت فلن تستطيعي إخفاء لحمك!

لامت زينب نفسها قائلة: كيف تفكر بهذا؟ لماذا تظلم الرجل؟ لماذا تظنه سيئاً مثله مثل كل الرجال!

وفجأة سألها أبو عدنان.. لم تقولي يا ست زينب كيـــف البيـــت الـــذي تسكنيه؟ هل أعجبك؟

رفعت نظرها إليه باستغراب كأنها تسأل نفسها: هل تكلم معها؟

تابع أبو عدنان.. بصراحة زوجك مراد غالي عليّ! لولا غلاوته هذه لما سعيت إلى بيعه البيت بتلك الشروط ...ثم تابع بعد أن سرق نظرة مـن بـاب المطبخ كأنه خائف من أن تسمعه أم عدنان.. أقول لك أن المتعهـد اسـتغرب تماماً شروط بيع البيت لزوجك مراد! حتى إنه سألني إن كان مـراد قريبـي؟ فقلت له: لا، ولكنه أقرب من أخي لي..

كانت زينب لا تستطيع أن تنظر إلى عينيه، ليس خوفاً، إنما لأمر تجهله. فتابع وهو يخفض من صوته: لو كنت أعلم أن لديه زوجة جميلة مثلك لاتفقت معه على غير هذه الشروط!

ضحك وهو يتابع: عليه أن يتحمل مسؤولية عدم إخباري بذلك؟ وضحك ضحكة اقشعر بدنها لها. فانكمشت على نفسها أكثر وهي تلعن أجداد مراد.. زوجها..

عند هذه اللحظة خرجت أم عدنان.. من المطبخ، وتقـدمت مـن زينـب مرحبة بها: أهلاً يا ست زينب..

ثم تابعت: أنا لا أصدق أنك في بيتي! الذنب ليس ذنبك، إنما هـو ذنـب زوجك مراد.. هو لا يزورنا ويسهر معنا..

كانت زينب تبتسم لها وهي تدير نظرها فيما حولها رغماً عنها لتنتقل إلى عالم آخر تماماً.. كله خيال فتتصور نفسها أميرة بثياب حريرية تنتظر أميرها.. ولكنها ما تلبث أن تعود إلى واقعها، تعود مطأطئة الرأس، منهزمة أمام كلام أم عدنان و أبو عدنان.. وصوت مذيع التلفزيون، ثم تأخذ موسيقى بدوية تطـرق مسامعها، وما تلبث أن تشم رائحة ثقيلة، ولكنها طيبـة فتـدير نظرهـا فيمـا حولها.. لم تمر لحظة حتى عرفت مصدر الرائحة، إنها رائحة كـريم كانـت أم عدنان.. تمسح يديها به وهي تقول: اللعنة على الغسيل وجلي الصحون..

ثم تلتفت إلى زوجها وتتابع: لن أرضى عنك طالما لا تشتري لي جلايـة صحون كهربائية... فحتى القرباط اشتروها.. ثم أكملت: أيرضيك أن تصـبح

يدي خشنة هكذا من الماء والصابون و...

فجأة تذكرت زينب أنها جاءت من أجل رغيف خبز تقترضه لزوجها الذي يقبع في البيت بدون أكل. أحست كان زمناً طوله ألف عام قــد مــر عليهــا! فانتصبت واقفة وقالت بسرعة: ألديكم رغيف خبز... لقد جاء مراد... دون أن يجلب معه الخبز... وليس في البيت كسرة منه...

التفتت أم عدنان.. إلى زينب وقالت: يوجد. ولكن: لن تــذهبي قبــل أن تشربي فنجان قهوة..

قالت زينب: كلا... لقد تأخرت.. ومراد جوعان..

تساءلت أم عدنان: تأخرت؟ كيف تأخرت ولم يمضِ على مجيئك أكثرِ من خمس دقائق؟ أكد لها أبو عدنان..على ذلك: صحيح. ثم نحن لم نرك بما فيــه الكفاية.. وعندما رأى نظرة الزجر التي رمته بها أم عدنان تابع: لم تحكِ لنــا عن أحوالكما.. تفضلي اجلسي..اجلسي... وجلست زينب عندما تأكد لها، أنه بالفعل لم يمض على مجيئها سوى دقائق خمس. ولكنها رغم هــذا، عنــدما جلست شعرت كأنها تجلس على نار!

حزن تلكالليلة

قبل أن تخرج زينب من بيت أبو عدنان.. شعرت برغبــة كبيــرة فــي البقاء! شعرت براحة تامة وهي تدير نظرها فيما حولهــا، وتمســح بعينيهــا المفروشات التي تملأ البيت وتتوزع في كل الزوايا والحيطان.. حتى الســقف كان لا يخلو من عدة ثريات تشع بالأضواء والأنوار. كانــت تــوّد أن تبقــى لتجاذب أم عدنان..أطراف الحديث. ولكن كان لابد لها من الخروج بــالرغيف والعودة إلى زوجها، وإلى بيتها ذي الغرفة الوحيدة التي تفوح منها، خاصــة في الليل، رائحة عفونة.

خرجت زينب من البيت بترحيب أم عدنان ودعوتها إلى تكرار الزيــارة

وهي قائلة لها: لا تنس.. نحن أهل. تابعت: الباب على الباب كما يقولون..

هزت زينب رأسها وهي تبتسم لها وتقول: إن شاء الله...

أما أبو عدنان.. الذي كان متلفعاً بعباءته فقال متابعاً كـــلام زوجـــه: ولا تنسي أن تخبري زوجك مراد.. أن يأتي بدوره إلينـــا.. قـــولي لـــه إن أبـــو عدنان.. عاتب عليه.. أخبريه على لساني، إن لم يزرني قريباً سأزعل منه...

ابتسمت زينب في تلك اللحظة، ثم رفعت عينها إليه، وركزت نظرها في عينيه محدقة إليه وهي تحاول أن ترضي رغبة داخلية تولدت في نفسها، في اللحظة ذاتها، رغبة في تحديه.. وأمام الباب، مدت أم عدنان.. يدها لتصـــافح زينب مودعة.. وقبل أن تسحب يدها رأت زينب، وهذا ما توقعته كيف أن أبو عدنان.. مد يده اللحيمة مودعاً بدوره..

في تلك اللحظة اختلط عليها الأمر! فهي منذ لحظات لا غير حاولـــت أن تتحداه عندما ركزت نظرها في عينيه.. وها هـــي الآن ترتجـــف أمـــام يـــده الممدودة إليها مودعاً. أحست برجفة، ثم احمرّ وجهها حتـــى أصـــبح بلـــون البندورة الطازجة مما دعاها أن تسبل أهدابها بانكسار وخجل.

فوجئت مما وجدت نفسها فيه فتعرق جبينها بشدة بعد أن غابـــت كفهـــا الصغرية بين طيات كفه الغليظة اللّينه السمينه وهو يعجن راحتها الصـــغيرة في راحة يده الكبيرة. ضاغطاً بأصابعه على أصابعها، مظهراً لها أنه، رغـــم سماكة كفه يملك مشاعر رقيقة، فعاد وضغط على أصابعها بلين...

في المرة الثانية حاولت زينب أن ترد على ضغطه بضغط مماثل، ولكنها لم تفعل، لأن صحوة فجائية ألمت بها فقالت لنفسها: لـــو فعلـــت قـــد يظـــن ــ وهذا ما سيكون ــ بأنك تبادلينه المشاعر، لذا أمسكت نفسها عـــن ذلـــك، خاصة عندما ضغط على أصابعها للمرة الثالثة قبل أن تسحب يدها مـــن بـــين طيات راحته. كان لا يريد أن يترك أصابعها، كان يريد أن يبقيها بينها أكبـــر

مدة ممكنة من الزمن. هي أيضاً كانت تريد ذلك انتقاماً من زوجها الخائــب، أرادت أن تبقي يدها بين راحته، لولا شعورها الفجائي، أن أم عدنان.. تسترق النظر إلى راحتيهما المضمومتين اللتين طالت مصافحتهما الوداعية فســحبت يدها بحركة متقنة من بين طيات راحته وخرجت قائلة: تصبحان على خير..

رد عليها أبو عدنان: وأنت من أهل الخير...

أحست زينب في كلامه رنة خاصة! لم تستطع أن تستشف معنــى تلــك الرنة! ومع دخولها إلى البيت شعرت بانقباض. كان جو البيت رطبــاً مشــبعاً برائحة العفونة. أحست بعراء الغرفة وهي تدير نظرها فيما حولها أكثر مــن أي وقت مضى. شعرت كأنها تعيش في عراء..

كان مراد.. في أثناء غيابها قد سخّن الشوربة وأخذ يرتشفها بالملعقــة وهو غاضب. رفع رأسه ونظر إليها يسب ويشتم: ماذا، هــل أرســلتك إلــى سهرة أم لجلب رغيف من الخبز؟

تسمرت في مكانها ترمي إليه الرغيف قائلة: ماذا؟ هل أنت غضبان؟ ثم تابعت: ولكيلا تغضب وتحر بدنك، اجلب معك في المرة القادمة ربطة خبز من أجل أن لا ترسلني إلى بيوت الناس لأسهر فيها..

ظلت زينب تنظر إليه نظرة فيها شيء من التحدي والشفقة والســخرية، ثم قالت له مجيبة: لو لم أكن امرأة تحترم نفسها لأجبتك جواباً يُعلّمــك كيــف يُخرس الإنسان...

ثم أدارت ظهرها وذهبت لتنام... في الفراش بعد أن أغمضــت عينيهــا أخذت تقارن بين الرجلين، زوجها.. وأبو عدنان.. تحــاول أن تجــد النقــاط المشتركة والمختلفة بينهما.. وبعد طول مقارنة تنهدت بأسى ونامــت علــى حزن تلك الليلة..

وهكذا بدأت علاقتها بأسرة أبو عدنان.. ولكن في لقاءات أكثر أريحيــة

وأقل تحفظاً. كان فيها الضحك والغمز واللمز والكلام الذي يحمل بين طياتـــه ألف معنى ومعنى. كانت زينب تفهم على أبو عدنان.. تماماً ما يريده بقولـــه هذا، أو بضحكته تلك، وبعد كل لقاء كانت زينب تعيد إجــراء المقارنـــة بـــين زوجها وبين أبو عدنان.. فتنتهي عادة، تلك المقارنات لصالح الأخير.. ولكنها لم تحاول أبداً أن تتمادى في اندفاعها.. كانت في كل لحظة تقول لنفســـها: لا تنسي أنه متزوج ولديه أطفال؟

وفي المرة الأخيرة التي زارت فيها بيت أبو عدنان.. أسندت ظهرها إلى الوسائد وهي تنظر وتتأمل متحسرة ما حولها بنظـــرة المـــتفحص، المتأمـــل، السائل: أحرام أن يكون لها بيت كهذا البيت؟ وتجيب على نفســـها: لا. لـــيس حراماً لأن قسمتها في هذه الدنيا هكذا؟ وتسأل: ولكن ألا يمكنها تغييـــر هـــذه القسمة غير المنصفة؟

كانت زينب تشعر بأبو عدنان.. كيف يفتح عينيه بدهشة كلما نظر إليها، ثم ما يلبث فكه الأسفل أن يسقط على صدره فتندلق شفته الســـفلى بارتخـــاء ويسيل اللعاب عنها ببطء. كانت تخافه في مثل هذه اللحظات، تخاف نظراتـــه، فتقوم وتهرب منه وهي تشعر، عندما تدير ظهرها له بسيخين نـــاريين مـــن عينيه تخترقان ظهرها ويصلان رئتيها فيضيق تنفســـها.. لـــذلك تزيـــد مـــن سرعتها لتصل إلى أم عدنان.. في المطبخ. كانت تحاول أن تختفي عن نظراته وهي هلعة.. تقف وتنظر إلى الوراء لتتأكد من أنه لا يلاحقها.. ولكـــن هـــذه الحالة لم تدم طويلاً، لأنها أخذت تقابل أبو عدنان.. فيمـــا بعـــد بكثيـــر مـــن التحدي، خاصة، أن جمالها الذي يقولون عنه فتّان، يمكنها أن تستعمله سلاحاً لمجابهته. كانت تقول لنفسها عندما تراه في حالات ضعفه: ســـأركّعه أمـــامي وأجعله يقبل قدمي.. سيفعل.. ها هو.. يخر.. ها هو.. يقبل.. وتضحك زينب.

أخذت، من أجل أن تزيده إذلالا بتجاهله، لا تبالي بنظراته، تسخر منـــه،

وتتحداه، فلم تعد تهرب أو تحاول الاختفاء عن أنظاره، إنمـا أخـذت تفعـل العكس تماماً، لم تعد تظهر لديهم إلا في حال وجوده وحده في البيت فأثار هذا انتباه أم عدنان.. ولكن زينب استطاعت أن تطوق الأمر بخبثها، ولكي تزيـد من إبعاد الشبهة تضحك ولا تكمل.

تبتسم أم عدنان وتقول لزينب: أنت مخطئة. أبو عدنان.. رجـل لـيس كبقية الرجال!

تلوي زينب شفتها كأنها تحاول بذلك أن ترمي بحيرتها بـين عينـي أم عدنان.. وهنا كانت أم عدنان.. تضحك وتقول: بسيطة!

كانت زينب تسأل نفسها: ماذا يريد بالضبط؟ إنه متزوج ولديه أولاد وهو يقارب والدها في العمر؟ هل يمكنه أن يفكر بالزواج منها؟ وتتابع: حتـى لـو فكر.. أني متزوجة.. وعلى ذمة رجل!

تضيع زينب بين تساؤلاتها فتقوم مشوشة الذهن وهي تتذكر محاولاته فـي مطاردتها ورميها بكلام له ألف معنى ومعنى. ثم ماذا يعني مما قاله لها منذ ثلاثة أيام؟ ماذا قصد بقوله: أتدرين يا زينب، لك عنق شفاف كالبللور.. رأتـه يمسـح عنقها وصدرها بنظرة شرهة وفم مفتوح ومنفرج عن رغبات محرقة وهو يتابع: البارحة عندما كنت تشربين الماء، رأيته كيف يأخذ طريقه عبر عنقك!

ضحكت دون خجل كما كانت تفعل في الماضـي وأجابتـه بشـيء مـن الخبث: هذه ليست رقبتي، إنما عنق إبريق الماء.

وظلت تضحك في ذلك اليوم حتى دمعت عيناها.

ذات يوم من أيام زينب

غمز أبو عدنان.. زينب بطرف عينه اليمنى. ثم أمال رأسه إليهـا وهـو يسأل: إن كان عمل زوجها مراد بعد الظهر يدر عليه ربحاً معقولاً؟ لـم تفهـم غايته من السؤال؟ نظرت إلى عينيه فرأت فيهما الدهشة. أجابته بتردد: يعني..

ضحك وقال: لم أفهم يعني.. هذه؟

لم تضحك، إنما قطبت تقاطيع وجهها وقالت: يعني.. يعني..

لاحظ أبو عدنان.. النزق على وجهها فقال لنفسه: هــل أســأت إليهــا بضحكتي الحمقاء تلك؟ وتابع بجدية قائلاً لها: يا ستي القضية وما فيهــا، أن المتعهد عبد الفتاح.. بحاجة إلى عمال كهربجية للعمل في ورشاته..

ثم تابع بتقطع: وزوجك مراد.. عامل.. كهربجي..

قاطعته زينب: عبد الفتاح..؟ وسكتت كأنها تسأل من يكون؟

ابتسم أبو عدنان ابتسامة خفيفة وقال: عبد الفتاح.. هذا.. ثم أردف وهو يقرب وجهه من وجهها قائلاً بصوت فيه شيء من اللهث: واحد مــن أكبــر المتعهدين الأغنياء في البلد.. واحد من القليلين الذين تطول يدهم إلــى كــل دوائر الحكومة ومؤسساتها. له في كل قرنة من حلــب وكالــة أو مكتــب أو شركة تجارية..

كانت زينب تنظر إليه وهي تتساءل: ماذا يريد أن يقول؟ ما علاقتها بكل هذه المعلومات التي يقدمها لها عن عبد الفتاح.. هذا؟

ظل أبو عدنان يتابع: لديه ورشات بناء هنا في الشيخ مقصود وقد توســع عمله ليشمل حي «الأشرفية» أيضاً، لذا هو بحاجة إلى عمال من شتى المهــن، وزوجك عامل كهربجي.. لهذا السبب سألتك إن كان يريد العمل بعد الظهر لأضمّه إلى عمال الورشة التي يزمع عبد الفتاح.. تشكيلها.. وضحك أبو عدنان.. بصوت خافت وتابع يسأل بلهجة فيها شيء من الدلع: هل فهمنا يا أمّورة؟

ابتسمت له وقالت: فهمت يا.. ولم تكمل. إنما اكتفت بأن أطلقت ضــحكة صاخبة عندما وجدت أن وجهه قد احمر. ولكن أبو عدنان.. ما لبث أن تــابع يرد عليها بعد أن استرق النظر إلى أم عدنان.. التي كانت تحضر القهوة فــي المطبخ: لماذا لم تكملي يا..

وانفجرا معاً بضحكة قوية لحظة خروج أم عدنان.. من المطبخ فنظـرت إليهما باستغراب.. ولكي يقطع أبو عدنان.. الشكوك قال لها: تعالي اسمعي.. النكات التي تقولها زينب.. ثم تابع: يا ستي ظهرْ أن زينب ليست سهلة.. فهي حية تحت التبن!

وضحك الثلاثة هذه المرة.

أجابت زينب مع ارتشافهم للقهوة على سؤال أبو عدنان: بصـراحة..إنه يلف ويدور في الحارات وبين البيوت من أجل تصليح الأجهزة الكهربائية.. لذا قلت لك: يعني.. سألها: كم ليرة يحصل في اليوم؟

أجابته: لا أدري بالضبط.. ولكن لا أعتقد أنه يحصل على أكثر من خمس وعشرين ليرة في اليوم..

قال أبو عدنان.. باستنكار: خمس وعشرين ليرة؟

ثم تقدم إلى الأمام وقال: أرسليه إلي.. سأضمه إلـى عمـال الورشـة الجديدة.. هزت زينب رأسها ولم تجب..

في البيت، أخذت تسترق النظر إلى زوجها وتتذكر شجارهما وصراعهما الذي لا طائل وراءه. كانت في بعض الأحيـان تسـأل نفسـها، مـا أسـباب خلافهما.. ألأنه ليس الرجل الذي كانت تحلم به؟ أم هناك أسباب أخرى؟ كانت لا تقدر على الإجابة المقنعة، لذا كانت في كل مرة تجيب جواباً يختلـف عـن السابق. وقد سألته في بعض الأحيان بشيء من الاسـتفزاز: لمـاذا لا تجـد لنفسك عملاً بعد الظهر تكسب به قليلاً من المال يمكننا مـن أن نحسّـن بـه حياتنا البائسة عوضاً عن استلقائك على السرير وتحديقك في السـقف؟ ثـم تابعت معلقة: أعتقد لن تجد الخريطة التي ستوصلك إلى كنز الملـك سـليمان مرسومة على السقف..

كان مراد.. في أكثر الأحيان لا يرد على مناكدات زينـب هـذه، يلتـزم

الصمت والاستمرار في التحديق بالسقف، وفي أحيان أخرى، ونادراً ما يحدث هذا، كان يصرخ في وجهها بعد أن يسبها ويشتمها: بنت الكلب.. هل وجـدت عملاً ولم أعمل؟ افهمي.. ليسوا بحاجة إلى عمال. فماذا أفعل؟ هل أرغمهـم على قبولي في ورشاتهم؟

ثم ما يلبث أن يصرخ ثانية: أم تريدين أن أؤجر قفاي من أجل جلب المال؟

كانت زينب تستغرب قوله الأخير هذا، فتسأل نفسها: كيف يمكـن لهـذا الرجل الذي يشبه الغوريلا بشعره النابت في جسده أن يتفوه بمثل هذا الكلام؟ ولكي تزيده غضباً تقول له: حتماً لو فعلت ذلك فلن تجلب قرشاً واحداً.. ثـم تنفجر بالضحك منه. كان مراد.. بدوره ما يلبث أن يبتسم، ثـم يعـود إلـى عبوسه وتقطيب جبينه ويقول: يا لك من بنت كلب!

ها هو مراد.. يأكل وهو مقطب الجبين. كانت تنتظر أن ينتهي من الأكل لتقول له: اذهب إلى أبو عدنان.. لقد دبر لك عملاً..

ومع كلمة الحمد لله، التي نطق بها مراد.. في فضاء الغرفة قالت له: لقد وجد أبو عدنان عملاً لك في ورشة.. وأضافت: نسيت اسم صاحب الورشة.. أعتقد بأنها الورشة التي يملكها المتعهد الذي يعمل له أبو عدنان.. قال لهـا متسائلاً: أتقصدين المتعهد عبد الفتاح..؟

أجابته بحماسة: هو بعينه..

تساءل ثانية: هو قال إنه يريد عامل كهربجي.؟

أجابته بتأفف: ماذا، هل أكذب؟ نعم هو الذي قال ذلك..

في تلك الليلة لم ينم مراد.. كانت زينب تحس به وهو يتقلب ذات اليمـين واليسار في فراشه دون أن يصدق ما أخبرته به زينب حتى انه أخذ يغني رغـم رداءة صوته: طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة.. وفي الورشة، في شركة الأعمال الإنشائية حيث يعمل، أحس بساعات دوامه أصبحت طويلة كأنها دهـر،

لقد أخبر كل العمال الذين يعملون معه، عن عمله الذي سيبدأه بعد ظهر اليــوم لدى واحد من أكبر متعهدي البلد. كان يحسب كل دقيقة تمر عليه.. في ســاعة الظهيرة، أكل لقمتين بسرعة وانطلق إلى حي الأشرفية حيث ورشة عبد الفتاح. الجديدة التي سيعمل فيها.. أما زينب فعاودت تفكر بالفارس والفرس البيضــاء لأنها وهي تنظر إلى زوجها، قالت في نفسها: ها هو فارسك يكاد أن يقلع طائراً بفرسه البيضاء.. ثم تابعت بعد ضحكة ساخرة: ها هو يأتيها ليخطفهــا ويطيــر بها إلى الأمكنة السحرية البعيدة كما كانت جدتها تقول لها.

بعد أن خرج زوجها إلى عمله، خرجت هي أيضاً مــن عالمهــا، عــالم الأحلام لتقول مؤكدة لنفسها بأسى: على ما يبدو، أن عهد الفرسان قد مضــى وانقضى؟ لقد بحثت عن الفارس في زوجها فوجدت فيه قزماً لا غيــر. أمــا عندما فكرت بأبو عدنان.. ضحكت لشكله ومظهره وهي تقول: كيــف يمكــن لفارس أن يكون أصلعاً وذا عجيزة سمينة تقوم فــوق ســاقين قصــيرتين..؟ وتضحك للمشهد الذي تخيلته..

ذات يوم كادت تقول له: لقد رأيتك تركب فرساً كالفرسان الذين نــراهم في مناماتنا.. ولكن الفرس الجميلة الرقيقة انبطحت على الأرض تحت ثقلــك وسمنك يا أبو عدنان.. أما عندما تخيلته فارساً عصرياً فقد كفت عن الضحك، لأنها سمعته يقول لزوجها مراد: بعه واشتر بيتي.. ثم أضاف: سأراعيك فــي ثمنه. ثم سمعته يقول: لولا ظروف المكتب وعملي في الحارة لخرجــت مــن «الشيخ مقصود» منذ زمن بعيد..

ولوى عنقه وتابع: يا مراد.. لم يعد للمرء نفس أن يسكن فيهــا. لقــد أصبحت حارة مقرفة.. ثم لوى فمه باتجاه اليسار وتابع: عندما ســكناها لــم تكن بهذا الاكتظاظ من الناس.وصمت أبو عدنان.. هنيهــة ثــم مــا لبــث أن أضاف: تعال واشتر مني البيت. لن أربح منك قرشاً واحداً. سأبيعك بالســعر

الذي اشتريته به قبل عشر سنوات.. هذا ما قاله أبو عدنان.. أما زوجها مراد.. فسمعته يقول له: بكم اشتريت البيت؟

أجابه: بخمسة وتسعين ألف ليرة.. وسعره اليوم يعادل أكثر من مئتي ألف ليرة..

سأله مراد: أين ترغب شراء البيت الجديد؟

أجابه: لم يستقر رأيي بعد، ولكني قررت أن أسكن في «شارع النيل» أو في «السريان الجديدة».. أو حتى حول جامع الرحمن.. ثم أضاف: لولا سكناي في «الشيخ مقصود» لاشتريت اليوم سيارة.. وهنا بالذات تخيلت زينب أبو عدنان.. نظرته التي رماها بها.. هنا لاحظت زينب أبو عدنان.. بزي فارس عصري..

حك أبو عدنان.. مقدمة رأسه الصلعاء، وهو يرمي زينب بنظرة ثانية خاصة وأضاف: إن بيتاً مثل بيتك أصبح ثمنه أكثر من مئة وعشرين ألف ليرة.. وهنا لاحظت زينب على زوجها مراد.. شيئاً من الحيوية، لأن أذنيه تحركتا عدة مرات وهو يتساءل: أحقاً ما تقول؟

أجابه أبو عدنان: نعم.. يمكنك أن تبيع بيتك وتشتري ببعض ثمنه بيتي.. بيت من ثلاث غرف وصالة، نظيف ومرتب، أشرفت بنفسي على تجهيزه يوم بناءه.. وتحصل بباقي ثمن بيتك على دكان صغيرة تستأجرها لتجعل منها ورشة لتصليح الأدوات الكهربائية.

بلع أبو عدنان.. ريقه ثم تابع: لتجدّ فيها وتعمل. ثم عندما يستقر وضعك المادي تستطيع أن تستقيل من وظيفتك وتعيش على ما تدخله الدكان عليك من المال. لقد فعلت أنا مثل هذا الأمر. واليوم الحمد لله.. أنت ترى أحوالي.. عال العال والشكر لله..

سأل مراد: أيمكن لأحد أن يشتري بيتي؟

ضحك أبو عدنان.. وقال: لم لا؟ ثم تابع: هل أضع بيتك ضمن البيوت

المعروضة للبيع؟

ضحك مراد.. وقال: طوّل بالك علي يا أبو عدنان.. دعني أفكر بالموضوع..

هنا. هنا فقط تخيلت زينب صوراً لجبال مكللة بـــالثلوج وأرض جـــرداء محروقة ما تزال فيها بقايا نار ودخان، وفارس شـــجاع يعبـــر تلـــك الأرض والحرائق، متوجهاً إلى الجبال لينقذ حبيبته على فرس بيضاء كالحليب، وفـــي يده سيف بتار، وفي آخر الأرض، فجأة يظهر أبو عدنان.. مـــن وراء أكمـــة كبيرة تشبه التل وهو يمتطي سيارته، يقبض بيديه مقـــود ســـيارة بيضـــاء، متقدماً ليقطع الطريق على الفارس. فارس أحلامها الذي تحدثت عنه جـــدتها، كأنها تتحدث عن حبيب لها. حبيب أنقذها ذات يوم من بـــين أنيـــاب تنـــين.. فكانت الجدة تتنهد وهي تغمض عينيها وتستمر في حـــديثها عـــن حكايتهـــا الخرافية الأسطورية..

الفارس الذي أتى

كانت زينب تتساءل، رغم حلمها بالفارس، الفارس الذي رســـمت جـــدتها صورته لها، في ليالي الشتاء الباردة، الفارس الذي انتظرته سنوات طويلـــة.. رغم معرفتها أن المرأة لا تستطيع العيش إلاّ في كنف رجل يقدم لهـــا المأكـــل والملبس والمشرب.. رغم هذا كانت تتساءل، إن لم يكن الرجل فارساً يأتي على فرس بيضاء فكيف له أن يقدم للمرأة الأمان والاطمئنان؟ كيف لهذا الرجل الذي تعيش المرأة تحت جناحيه ألا يكون فارساً؟ كيف يمكن لهذا الرجـــل أن يرفـــع المرأة بيد واحدة ليردفها وراءه على ظهر فرسه البيضاء، إن لم يكن فارساً؟

كانت تهز رأسها، تجيب بقناعة تامة، لا يمكـــن للمـــرأة أن ترتـــاح للرجل إن لم يكن فارساً! ولكن التجارب علمتها غير هذا، فهي في تجربتهـــا الأولى مع الرجل، زوجها الذي كان غنياً، وتجربتها مع الرجل الثـــاني الـــذي رماها فوق الثياب المكومة المخيّطة، وولجها وهي مطمئنة مستســـلمة، هـــذا

الرجل الذي تخيلته في لحظة معينة الفارس الذي انتظرته طويلاً، كــان نــذلاً ليس إلاّ.. أما تجربتها مع الرجل الثالث – زوجهــا البــائس – فأكــدت لهــا التجارب المختلفة هذه على أن ما قالته جدتها عن الفارس والفرس البيضاء، ما هو إلاّ كلام بكلام، ما هو إلاّ حكاية من حكايات ليالي الشتاء الطويلة التــي تضيع مع البرد والليل، ولا يبقى منها إلاّ عذوبة التخيل فقط، والتمنيات الطيبة والرغبات في وجود عالم غير هذا العالم الذي نعيش فيه. هذا العالم القاســي الظالم.. ما هو إلاّ أحلام مستحيلة التحقيق..

ورغم كل خيبات زينب لم تفقد الأمل، وهي على ذمة رجــل قــزم، بظهور فارس جدتها برفقة الفرس البيضاء. كانت صورة الفارس في عينيهــا تختلف بين مرة وأخرى، فمرة تراه بشعر أشقر، ومرة أخرى تراه شاباً أسمر البشرة مفتول العضلات. وأحياناً كانت تحاول وهي تسخر من نفسها أن تتخيل زوجها مراد.. بصلعته ورجليه المقوستين فارســاً يمتطــي فرســاً جربانــة وعرجاء، وهو يلوح بسيف لم يبق من نصــله الحديــدي ســوى القبضــة.. فتضحك بشدة.. أما آخر الفرسان الذين تخيلتهم فكان أبو عدنان.. ولكن ليس على صورة الفرسان التي رسمتها جدتها فيما مضــى. إنمــا تخيلتــه علــى طريقتها الخاصة.. كانت تضحك لكرشــه المنــدلق إلــى الأمــام وســاعديه القصيرتين ووجهه المحمر أبداً، ثم ما تلبث أن تكــف عــن الضــحك وهــي مستمرة في تخيلها..

ها هو أبو عدنان.. يتقدم منها طائراً على سيارة، وليس فرساً بيضــاء. يقف أمامها بالضبط، يفتح لها الباب ويدعوها للركوب.. تتردد ولكنها ما تلبث أن تستجيب لدعوته فتلقي بنفسها إلى جانبه ليذهب طائراً بها.

كانت تتخيله على هذه الصورة كلما ذهبت إليه في البيت، أو كلما فكرت به. كان أبو عدنان.. في الفترة الأخيرة قد ضيق عليها الخناق كما يقولــون،

ولكن زينب لم تشعر بالانزعاج، بل على العكس، كانت تسعد لذلك تماماً رغم خوفها من أمر مجهول. كانت تعتقد بأنه سيقع. وهذا الأمر الذي وقع كان في وقت لم يعد الخوف فيه مجدياً، لهذا انساقت معه ولم تعد تفكر بشيء. ألقــت بنفسها في أحضان القدر المرسوم لها. وكان قدراً لا مفر منه..

لقد جاءت الساعة التي وقع فيها الأمر، جاءت كالقدر وهي تقول: لا بد أن يأتي فارسها مهما كثرت خيباتها بالرجل الذي تصورته في كل مــرة مــن المرات الثلاث التي عرفت فيها الرجل. إنه الفارس الموعود..

وبعد أن كاد اليأس من قدومه يحط في قلبها وجدت نفسها وجهاً لوجــه معه.. ها هو يقف أمامها كما في ليالي الشتاء الماضية ككل حكايات جــدتها، يقف بفرسه أمامها، ويشير لها أن تصعد وراءه، دون إرادة منها، تنفذ أمــره رغم أنها لم تكن تريد ذلك. ولكن كيف لها أن تصرف الفــارس دون تحقيــق رغبته؟ لم تقو على الممانعة، لأن أعماقها أخذت تغلي وتفور، لــذا قــررت، يجب أن يكون هناك من يطفئ الفوران.. وهذا الذي سيطفئه هو، أبو عدنان.. ولا أحد غيره. إنه الفارس بصورته العصرية وليس كما تخيلته جدتها..

عندما علمت زينب بخروج أم عدنان.. منذ الصباح الباكر فــي زيــارة لجيرانها القدماء في حي «القرباط» الذي بناه المهاجرون الفقراء والمعدمون من الريف، خرجت تطرق على أبو عدنان.. الباب وهي تتلفت حولها خائفــة من أن يراها أحد..

كانت تشعر بأنها ترتكب إثماً. لذا كانت تقول لنفسها: عودي إلى بيتــك قبل أن يفوت الأوان.. هذا الذي تذهبين إليه لن يكون بأفضل من الذين مــروا في حياتك، هذا إن لم يكن أسوأ منهم! ولكنها أجابت وهي واقفة بالباب، لقــد انطلق السهم ولن يرجع إلى قوسه..

كانت في تلك اللحظة، وهي مسمرة أمام الباب، تظــن أو تتخيــل أن ســكان

البناية كلها يمدون رؤوسهم من الأبواب والنوافذ ينظرون إليها، يرون كيف ستدخل إلى بيت لا يوجد فيه إلا رجل وحيد غريب عنها.. ثم شعرت أن المدة التي وقفتها أمام الباب طالت.. قد يكون خرج من البيت فلم الانتظار؟ يجب أن تعودي..

وبين خوفها وقلقها واضطرابها وخيبتها سمعت صوت انغلاق باب عرفت فيه صوت باب المرحاض، ثم تناهي إلى سمعها صوت اقتراب خطوات ثقيلة، ثم ما لبث أن ظهر وراء زجاج الباب شبح جسد ملون في أماكن منه بلون رمادي أسود. ثم سمعت صوت مزلاج يسحب إلى الوراء ليطل عليها أبو عدنان..

انسلت زينب وهي في كامل اضطرابها إلى الداخل وخطت بضع خطوات حتى هدأت ولم تعد تلوي على شيء.. وأمام الضمير الذي أخذ يخزها قالت وكأنها فوجئت بأن لا أحد في البيت غير أبو عدنان: ماذا؟ أنا لا أسمع صوت أم عدنان.. والأولاد؟

ووقفت وسط الصالة وهي تتلفت حولها كأنها تبحث عن أحد ما! كان أبو عدنان.. قد رحب بها، ثم ما لبث أن استمر في ترحيبه رغم تساؤلاتها..

أشار لها إلى الكنبة لتجلس عليها. ثم قال موضحاً: إنها طرية.. أكثر من الأخريات.. تفضلي.. تفضلي..

كانت زينب قد توجهت لا على التعيين إلى كرسي لتجلس عليه وهي خائفة من الجلوس إلى حيث أشار! خافت من أن يجلس إلى جانبها.. ولكنها قبل أن تعبر الكنبة إلى الكرسي المنفرد أحست بأصابعه الغليظة تمسك بساعدها وتدفعها برفق إلى الكنبة العريضة..

امتثلت لأمره فجلست حيث أشار وهي تسأل: أين أم عدنان؟

لم يرد على سؤالها. ظل يرحب بها وهو حائر، يدور حول نفسه كأنه يبحث عن شيء ما لا يعرف ما هو!

جلس بعد حين كما توقعت بالضبط إلى جانبها على الكنبة العريضة..

ومع جلوسه إلى جانبها شعرت بازدياد الخوف لديها فحاولت القيام ولكنها لم تستطع أن تتحرك فصرفت النظر عن الأمر بعـد أن شـعرت أنهـا أصـبحت كالعصفور الصغير أمام طير جارح يريد الفتك بها!

استمر أبو عدنان.. في حديثه بكلام له أول وليس له آخر. كان يريد من كلامه أمراً ما، ولكنه لا يستطيع التعبير عنه بوضوح، أولا يعرف كيف يمكن أن يصرح بالذي يريده دون إحراجها..

أخذت زينب، رغم خوفها وقلقها، تضحك ساخرة منه ومن عجزه عـن التعبير، خاصة عندما قال لها: على زوجك أن لا يبخل عليك بلبن العصفور!

وابتسم وتابع: لو كنت مكانه لجلبت لك ما ترغبين فيه وتحلمين به..

زحف باتجاهها فضحكت باضطراب وقالت: لا بأس، اجلب لي أنت كمـا تقول لبن العصفور؟

وكمن صفع على قفاه، لوى أبو عدنان.. فمه عدة مرات كأن فالجاً قـد أصابه ولم يعد يقدر على الكلام، ولكنه بعد لأي قال بحماسة: نعم.. سـأجلبه لك فقط لو.. ومع كلمة فقط، تغير كل شيء أمام زينب، وفوق رأسها وتحـت قدميها! لم تعد تشعر سوى بأمور غريبة تحدث معها، فجأة صعدت في فضاء الغرفة كأن يداً قوية رفعتها إلى الأعلى، لا بل طيرتها عاليا، ودارت بها تحت سقف الغرفة، ثم رأت نفسها تعبر قنطرة وهي مرفوعة على مئـات الأيـدي، هكذا تخيلت.. اقتربت منها القنطرة، اقتربت منها تماماً حتى كادت أن تمـس جبينها.. ثم بحركة فجائية أخرى انزلقت تهوي عن اليدين القويتين الثقيلتـين إلى الأسفل فندت عنها صرخة رعب مكتومة وهي تقول: ما إن أصـل الأرض حتى أتحطم.. ولكنها وصلت ولم تتحطم، سقطت على سرير طـري نـاعم – هكذا تخيلت الأمر فغاصت فيه عميقاً، ثم اندفعت ثانية إلى الأعلى كأن نابضـاً ما دفعها إلى السقف.. ولكنها فجأة ارتطمت بجسد ثقيـل وأنفـاس سـاخنة

وساعدين غليظين أخذا يطوقان خصرها وبشفتين لحيمتـين تطبقـان علـى فمها.. عرفت زينب بالضبط ماذا يحدث لها الآن. فجنت وهي تقـاوم الجسـد السمين الثخين وصاحبه أبو عدنان.. يحاول أن يثبتهـا تحتـه، أن يهـيص جناحيها، أن يكسرهما لها، وأن يقنعها بالاستسلام وهو يقول لها: سأنفذ لـك كل ما ترغبين فيه وكل ما تطيب له نفسك..

لم تشعر زينب بعد ذلك إلا بلحظة الاختراق التي تمت فودت لو تصـرخ بأعلى صوتها كعذراء اغتصبت، ولكنها كتمت ما في نفسها وراحت تبكي..

راح أبو عدنان.. يهدهدها ويطمئنها، إن السر سيبقى بينهما لن يعرف ثالث ما بينهما. كما انه، هكذا قال لها: سيضع كل ما يملك حتى روحه تحت تصرفها، ثم أكد لها، حرام عليك أن تقضي حياتك في الفقر ومع زوج فقير لا يملك ذرة من الطموح للارتقاء إلى الأعلى، حرام أن تبقي على ما أنت فيه يا زينب، حرام!

كانت زينب رغم بكائها تستمع إليه بكل حواسها وهي متشـبثة بعنقـه كطفل صغير مرعوب من أمر ما!

ذو القرنين

اليوم، وبعد مضي ثلاثة أشهر، تؤكد زينب لنفسها علـى أنهـا فقـدت كرامتها كامرأة هذه المرة إلى الأبد! وعلى يد من؟

ضحكت وهي تتابع: على يد الرجل الذي خلته الفارس الـذي انتظرتـه طويلاً. في الأيام الأولى من تعرفها إلى أبو عدنان ضـحكت كثيـراً، فرحـت وغفت حتى إن زوجها مراد.. استغرب تماماً هذا التحول في حيـاة زوجـه! ولكنه لوى شفته ومضى لا يلوي على شيء. كانت زينب، في بعض الأحيـان تمازح فارسها أبو عدنان.. وتقول لها ضاحكة: ما هكذا الفارس الذي حلمـت به.. ولكن ماذا أفعل إن أنت قد أتيت كفارس! الفارس الذي حملني على يديه وطار بي عالياً..

ويضحكان طويلاً وهما يتعاتبان.

وها هي اليوم تطرق ولا تصدق ما وصلت إليها حياتها على يدي الرجل الذي ظنت أنه سيكون آخر الرجال في حياتها. لقد أحبتــه بصــدق. أحســت بدفء عندما اقتربت منه وبشيء أبوي دفعها إليه..

ذات يوم، وهما في الفراش أخبرته عن ذلك. فغضب، ولكنه لم يعلن لها عن غضبه، أدار وجهه إلى الجهة الثانية، وأبعد ساقه عن ساقها. ثم تنــاول سيكارة وأخذ يدخنها. ظلت زينب تنظر إليه وهي تتساءل: ألانها قالت الحقيقة وعبّرت عما تحس به نحوه؟ فهما منذ أكثــر مــن شــهرين يعيشــان معــاً كزوجين.. وها هي في لحظة حب صادقة تشعر بدفء أبوي تجاهه.

سألته: هل غضبت مني؟

التفت إليها وهو يطفئ سيجارته باضطراب محاولاً أن يبتسم لها وقــال: أبداً.. إنما..

وسكت. نظر إليها طويلاً. ثم ما لبث أن مد يده إلى عنقها وشدها برفق إلــى صدره.ثم قال بعد تنهيدة طويلة:أنا أيضاً أشعر بما تشعرين به. ثم أضاف: هذا الأمر طبيعي يا زينب. فأنا في الثانية والأربعين وأنت في الثامنة عشرة.. وضحك..

شعرت زينب بضحكته، اصطناعية، فلامت نفسها وقالت: أنت تعرفين هو في عمر والدك، فهل من الضروري إن تخبريه بذلك؟ ومنذ ذلك اليوم لــم تعــد إلــى الحديث في هذا الأمر. كانت خلال الشهور الثلاثة الماضية، قبل أن يطــرح عليهــا موضوع المتعهد عبد الفتاح.. تفعل معه فصولاً مضحكة إلى حتى تدمع عيونهما..

مضت أيام الشهور الثلاثة، قبــل أن يفــتح معهــا موضــوع المتعهــد ورغباته، مضت في حب وهناءة رغم المنغصات في بعض الأحيان التي كــان سببهما زوجها مراد وزوجه أم عدنان.. ولكنهما ــ زينب وأبــو عــدنان ــ عرفا دائماً كيف يتغلبان عليهما..

ولكنه اليوم، وهي تضحك للفصل الذي عملته معه، يلتزم جموده. وينظر إليها.. وها هو يرفع عينيه عنها وينظر أمامه بنظرة شاردة، عرفت فوراً أنه ليس على مزاجه.. وهذا الأمر كان كثيراً ما يحدث بينهما، كثيراً ما رأته على هذه الحال. ولكنها أيضاً، كانت تعرف، أنه لن يلبث أن يضحك وهو يقول: يـــا لكِ من شيطانة ملعونة! ويحاول أن يمد يده إليها فتهرب منه حيناً، وحيناً آخر تحني رأسها ليضع راحة يده على عنقها، يداعبها في منابت شعر نقرتها، ثم ما يلبث أن يجذبها بهدوء إليه، يضع رأسها علـــى صـــدره وينفـــث أنفاســـه الحنونة في عنقها.. ولكنها اليوم لم تجد على وجهه سوى الحزن والشـــرود، بعد أن كفت عن الضحك، بعد أن ملت جموده.. والجمود ليس مـــن عاداتـــه. استغربت ذلك..ولكن استغرابها لم يطل عندما التفت إليهـــا وحـــدثها بلهجـــة حزينة.. فقال لها: إن المتعهد عبد الفتاح.. قد رآك!

ندت عنها كلمة: رآني.. باستغراب. ثم سألت: وماذا فيها؟

نظر أبو عدنان.. إليها طويلاً. ثم ما لبث أن أمسكها من رأسها كعادتـــه وأحنى وجهها فوق صدره، وقال لها بصوت حنون: آه.. كم أنت بريئة رغـــم كل فصولك ومقالبك؟

وبعد صمت طال، تحدث معها عن المتعهد بلغة غريبة لـــم تتعودهـــا منـــه. أصاخت إليه السمع محاولة بذلك أن تفهم ماذا يريد أن يقول لها بالضبط؟لأنه كمـــا يقول المثل، كان في حديثه، يشرّق ويغرّب دون أن يقول ما يريده بوضوح.

كان يتحدث عن المتعهد ووضعه وإمكانياته المادية وصلاته وعلاقاته مع رجال يلعبون في حياة البلد دوراً هاما. ثم أخذ يتحدث لها عن رغبات المتعهد المجنونة ومزاجه الغريب، خاصة فيما يتعلق بالنساء! عند هذه النقطة شعرت بخوف وشمت من حديثه رائحة غير طيبة، فأخذت تسأل نفسها: ماذا يريد أن يقول بالضبط؟ لماذا يلف ويدور دون أن يحدثها عن الذي يريـــده بصـــراحة؟

حتى أنها فكرت أن تسأله:ماذا يقصد.. هل متعهدك يريدني لنفسه؟ ولكنها لـم تجرؤ.. ظلت ملتزمة الصمت، تنتظر أن ينفض ما في جعبته.. وأخيراً نطـق بها. نعم لقد تحقق بالضبط ما فكرت به.. وهو أن المتعهد عبد الفتاح.. رآها وأعجب بها ويريدها لنفسه!

سألته بسخرية واستخفاف: وأنت بماذا أجبته؟

كانت تظن بأنه سيجيب: طبعاً رفضت وقلت له: إنها لـي وأنـا لهـا.. وقريباً سنبحث معاً كيفية الوصول إلى الزواج دون مشاكل مـع أم عـدنان. وطلاقها من زوجها مراد..

هكذا فكرت زينب. وهكذا اعتقدت أن يكون المنطق السليم الذي عليه أن يرد به على المتعهد.. ولكنها فوجئت عندما قال لها: ماذا يمكنني أن أقول له؟ ماذا بقدرتي أن أفعل؟ لا شيء سوى الخضوع لإرادته! الخضوع! نعم..

أجابها وهو يطرق برأسه، لأنه لم يعد يستطيع أن يستمر في النظر إلى عينيها.

ساد بينهما صمت. ارتفع جدار أسود. ثم نما فـي نفسـها قـرف لكـل الرجال. فكادت أن تبصق في وجهه احتقاراً..

رفع رأسه إليها وقال: لن يمضي معك سوى شهر.. ثم تعود الأمور إلى مجراها بيني وبينك..

وحاول أن يضحك: تعودين إلي وأعود إليك..

وهنا.. هنا فقط عادت إلى رشدها بعد أن خرجت مـن ذهولهـا للـذي سمعته قالت له وهي تضحك بتشنج أحقاً ما تقول؟.

أجابها: نعم..

سألته: أقلت لمدة شهر سأبقى لديه؟ وأنام في حضـنه؟ وضـحكت بقوة وهي تتابع: ألم تتفق معه على عدد المرات التـي يمكننـا أن نمـارس الحب؟ ثم راحت تتحدث كيفما اتفق لها الحديث والضحك والنشـيج، تتحـدث

ليس معه وأيضاً ليس مع نفسها، إنما هكذا مع العالم والقدر والحجارة، مع هذه الحياة الظالمة. كانت تقول: ثم نعود إلى بعض.. أعود إليك وتعودين إلي.. وتضحك: شهر واحد.. ماذا فيها؟ ماذا سيحدث لي لو نمت مع عبد الفتاح.. متعهدك شهراً واحدا؟ لن ينقص مني شيئاً حتى شعرة لن تنقص.. إنه إنسان وليس وحشا حتى يمكنني أن أخاف منه..لو كان وحشاً حتماً لما تركتني بين يديه يا فارسي؟ وإن حاول أن يعتدي علي ستنقض عليه وأنت تحمل بيدك اليمنى سيفك البتّار.. وتسأل أبو عدنان: أليس كذلك؟ أنا أعرفك، لن تدعني بين يديه ليلتهمني.. ستنقذني منه.. وتضحك.. نظر أبو عدنان.. إليها وهي تتحدث مع نفسها، فشعر بعد حين بخوف، وخاصة عندما أخذت الدموع تطفر من عينيها.. وهكذا أصيبت زينب بالخيبة الأبدية وهي تقول لنفسها: لقد انتهى عهد الفرسان. إن كانوا على الصورة التي رسمتها لها جدتها، أو على الصورة التي رسمتها هي لهم. صورة الفرسان العصريين.. لذا قامت ووقفت في وسط الغرفة وقالت له بشيء من الانكسار: متى سيكون البدء في الذي طرحته علي؟

أجابها وهو مطرق الرأس: زينب.. أرجو أن تعرفي أسباب قبولي بهذا الأمر المنفر. إنه المتعهد الذي.. وضعت زينب يدها على فمه وقالت له: لا أريد أن تكمل.. وتضحك زينب كما لم تضحك من قبل، ولكن الوجوم ما يلبث أن يحط عليها فتقول لأبو عدنان: كما قلت أنت، إنه شهر فقط.. ثم نعود إلى بعض ثانية أليس كذلك؟ وأدارت رأسها إلى اليمين وبكت طويلاً.. ولكنها فجأة قطعت بكاءها والتفتت إليه، نظرت إلى عينيه، ثم ضحكت بشدة حتى أن أبو عدنان.. خاف منها وتراجع إلى الوراء مقدار خطوتين، أشارت له أن يقترب وهي تقول: اقترب.. اقترب.. نعم.. أعطني رأسك لألمس طرفيه إنْ كان بهما قرون أم لا.. واستمرت في ضحكها وهي تتلمس طرفي رأس أبو عدنان.. وتقول له: ليس بعد.. ليس بعد.. ولكن سيبدآن بالبروز.. أليس كذلك؟ وعادت إلى بكائها!

الفرسان الأربعة

عندما تعرت زينب أمام عبد الفتاح.. ظلت ثلاثة أيام تتساءل بعد ذلــك: من الذي قادها إلى هذا المكان الآسن الذي وجدت نفسها فيه؟ أي فارس مــن الفرسان الأربعة أمسك بيدها و جرّها وراءه، ثم دفعها ببطء وروية إلى وسط المستنقع؟ هل هو زوجها الأول العنين؟ أم الشاب، صاحب العين الجوعانة؟ أم زوجها مراد.. القزم؟ أم أبو عدنان.. آخر الفرسان؟ من كان لــه «شــرف» دفعها إلى ما وصلت إليه؟ ظلت تتساءل ثلاثة أيام مــن دون أن تقــدر علــى الإجابة، إلا أنها كانت تميل إلى رأي، وهو أن كل واحد من الفرسان الأربعة، زيّن لها جزءاً من الطريق! كل واحد من الفرسان الأربعة رافقها شوطاً مــن الدرب ذي الشوك، كل واحد من الأربعة ساهم في دفعها إلى أحضان المستنقع الذي وجدت نفسها اليوم فيه...

صحيح كانت الدفعة الأخيرة على يد أبو عدنان... ولكن جميعهم كــانوا مشاركين في الجريمة! وتبكي زينب، تعض الوسادة القطنيــة، ثــم تضــرب بقبضتها الفراش، وتظل تجهش حتى تحمر عيناها ولا يبقى فيهما دمع! فــي اليوم الأول من الأيام الثلاثة بكت زينب طويلاً، بكاءً مراً لأنها وافقت على أن تمتع المتعهد لمدة شهر.. وفي اليوم الثاني قل بكاؤها وكثــرت تســاؤلاتها. كانت بها رغبة حقيقية لتعرف من الذي دفعها إلى أحضان المســتنقع الــذي غاصت فيه، وعجزت عن الخروج عندما حاولت ذلك، فكانت كلمــا تحركــت غاصت فيه أكثر فأكثر.. كانت تقول لو أعرفه لقتلته، لخنقته بيــدي هــاتين. وتقبض زينب على طرف اللحاف كأنها تمسك بتلابيب أحد فرسانها الأربعــة، وتضغط على عنقه حتى الموت.. فتفرح عندما يخرج الزبد من فمه ويتــدلي لسانه ويزرق وجهه ويلفظ أنفاسه بين يديها.. لا تتركه حتــى يصــبح جثــة هامدة. ثم تنتفض وتقوم لتذهب إلى المخفر تسلم نفسها لشرطته، لأنها لم تعد

تقتنع بوجود فارس ما في هذه الدنيا. لقد مات، تابعت بأسى، كل الفرسان مع موت جدتها.. أما في اليوم الثالث فسألت نفسها: هل أنت بريئة مـــن أســـباب الوضع الذي وصلت إليه؟ صحيح هم امسكوا بيدك، ولكن لماذا مددتها لهـــم؟ الم تخطي معهم خطوة وراء أخرى؟

أجابت نفسها: يمكن؟ ولكن من أين لـــي أن أعـــرف، أن زوجـــي كـــان عنيناً.. قاطعت نفسها: أنا لا أقصد هذا. اقصد حلمك الفـــارغ الـــذي دار فـــي رأسك منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمرك، ألم يكن هذا الحلم هو السبب الأول والرئيس في دفعك إلى هذا المستنقع؟ وتابعت: لقـــد حلمـــت أن يأتيـــك فارس على فرس بيضاء كالحليب لينقذك من فقر والدك. ورغم انك فشلت في القبض على ذلك الحلم، فقد ظللت تحلمين به.. لهذا عندما رماك ذاك الشـــاب على القمصان المخيطة لم تمانعي، ولم تقاومي يديه اللتين مزقتـــا ســـروالك، وما أن توغل بين ساقيك حتى استكنت له تغمضين عينيك وتذهبين في الحلم..

شعرت زينب أنها محاصرة من قبـــل نفســـها التـــي اســـتيقظت وأخـــذت تحاسبها، لذا حاولت أن تبرر موقفها قائلة، ولكن الثالث، كيف كان يمكننـــي أن أرفضه، لماذا أرفضه؟ حتماً لو رفضته لسألني أبي وأمي عن أسباب ذلك. مـــاذا كان يمكنني أن أقول لهما؟ ارفضه لأنه فقير؟ طيب أسرتك، لقال والدي، أيضـــا فقيرة؟ هل أقول لأمي، قزم.. لو قلت لها ذلك لأجابت مكررة حكمتهـــا الأثيـــرة التي توارثتها عن أمها أيضاً: إن الرجل ليس وردة لتشكله المرأة وراء أذنها أو على صدرها، لقالت مؤكدة: الرجل هو رجل.. قبيحاً كان أم جميلاً..

إذن يا زينب. سألت نفسها: لماذا ظللت تحلمين بمجيء الفـــارس؟ لقـــد أحببت أبو عدنان.. هل لك أن تقولي لماذا؟ ألأنه غني؟ طبعاً لا..ألأنه شـــاب؟ أيضاً لا.. إذن لماذا؟ لقد قدم لك أبو عدنان.. أكثر من ثوب واشترى لك أكثـــر من طوق، وضع في جيبك مبالغ من المال، فأبيت ذلك ورفضت كل هذا، أحياناً

خوفاً من أن يسألك مراد: من أين لك هذا؟ وأحياناً أخرى لأمر غـامض فـي نفسك. كنت تحلمين بالزواج منه خلال الشهور الثلاثة الماضية؟ لـذا، كنـت تقولين لنفسك ساعتها، سأشتري ما يحلوا لي من الملابس والذهب والفضة.. و لكن زينب تعود لترفض أقوال زينب الأخرى التي تقبع في نفسها، وتقـول: لقد أحببته من أجل الحب فقط، أحببته لأنني كنت بحاجة إلى الحب..

وترد عليها الأخرى قائلة: يا عزيزتي لا أحد يحب من أجل الحب فقط!

عادت زينب بعد هدنة قصيرة مع نفسها تسأل: من الذي أوصـلها إلـى أحضان المستنقع حيث تقف الآن؟ من؟؟؟

الكتاب الرابع -2

الشمس هي السبب على ما يبدو؟

شعر مراد.. وهو يصعد طلعة «الشيخ مقصود» بأنه يعود إلـــى الـــوراء، ليقترب من السور المحيط بالمقابر المسيحية على يساره، ونظـــر إلـــى أشـــجار السرو الداكنة الباسقة، وأشجار الزنزلخت الساكنة المغبرة والصـــلبان الحديديـــة والمرمرية الفخمة القائمة على المقابر. كانت الملائكة المنحوتة من المرمر فـــي حالة صلاة هادئة فوق هذا القبر أو ذاك تصلي لروح الميت منذ سنوات طويلة.

ظل مراد يرجع إلى الوراء، هكذا شعر، وهـــو يصـــعد طلعـــة «الشـــيخ مقصود» لم يستغرب رجوعه. فقد قال: من الطبيعي أن أرجع إلى الوراء، فأنا أصعد هذه الطلعة المرهقة المتعبة والصعبة! ارجع إلى طفولتي ذلـــك اليـــوم الذي أكلت فيه علقة ما يزال إحساسي بألمها على إليتي إلى اليوم!

ضحك مراد.. وهو يمد يده إلى إليته اليمنى ويمسح عليهـــا بكفـــه فـــي حنان. كان يبكي ويقول لوالده: بماذا تريد أن أقسم لك إنني لـــم أكـــن هنـــاك ساعة وقوع الحادثة؟ كنت في تلك اللحظة مع محمود نحاول أن نتسلق شجرة التوت لنأكل من ثمرها الأبيض..

كان والده يقول ببرود: كذاب.. ثم يتابع: أصدقني القول، كيف سرقتم العجوز؟

كان مراد.. أمام إصرار أبيه على أنه واحد من الذين شاركوا في سرقة العجوز يبكي ويكرر قوله: بماذا تريد أن أقسم لك.. بالله.. بأنبيائـــه.. بكتبـــه وصحفه المقدسة.. بالملائكة.. باليوم الآخر.. بـــ..

ولكن مراد.. كان يتلقى الصفعة وراء الأخرى من والده وهو يصـــرخ:

اخرس.. أنا أعرفك. لم أجد أرذل منك بين جميع الصبية. هيا اعترف.. كيـف كممتم فم العجوز وربطتم يديها خلف ظهرها، ثم تركتموها ملقاة علـى أرض البيت؟ أعترف!

ويغيب مراد.. عن وعيه قبل أن يقول لوالده: بماذا تريدني أن أعترف لك؟

هذه الواقعة كانت دائماً تُرجعه إلى الوراء، إنها ليست واقعة ظلم عـانى منها فقط، إنما واقعة قهر أيضاً، قهر وتعذيب جسدي ونفسي.

كان مراد.. يتذكر تلك الواقعة ولا ينساها ومع مرور السـنوات. كانـت آثارها تحفر في نفسه أكثر فأكثر، تصبح وشماً أو مكاناً مكوياً بالنار والحديد. لا يمكن للأيام والسنين أن تخفي آثاره أبداً! يتساءل مراد.. لمـاذا وافـق أن يكذب ويعترف بأنه شارك الصبية الذين سرقوا العجوز؟ أمن أجل أن يوقـف عملية التعذيب التي كان والده يمارسها؟

ويغرق في الصمت لأنه لا يعرف بماذا يجيب؟ ليس لديه أجوبة، وها هـو يضحك ساخراً من نفسه ويقول: ها أنت تبحث مجدداً عن أسباب محنتك اليوم..

ثم يقول: لن يصدقوا ما سأقوله جواباً على أسـباب محنتـي! ولكـن لا بأس.. أذكر تماماً عندما كان معلم الابتدائية يقول: إن البيـت الـذي تدخلـه الشمس لا يدخله طبيب. كنت أفكر بهذه المعادلة المقلوبة. لا أفهم معنى لها! كيف يمكن للشمس أن تدخل إلى البيت؟ أي بيت كان.. ثم ما ألبث، وأنا أحدق إلى وجه المعلم ببلاهة، فاغر الفم، مندهشاً لقوله، أتساءل: ما علاقة الشمس بالطبيب؟ فالشمس كما أخبرنا المعلم نفسه كرة نارية ملتهبة، هائلة، لا يمكن لأحد أن يتصور حجمها الحقيقي؟ بينما الطبيب إنسان بسيط، قد يكون طويلاً، ولكنه لن يكون أطول من ثلاثة أمتار! قد يكون سميناً، ولكنه أيضاً لن يكـون أثقل من مائتي كيلوغرام؟ ويهز مراد رأسه باحتجاج وهـو يتـابع: إذن مـا علاقة الطبيب بالشمس؟ ثم ينفض رأسه كمن يحاول أن يستيقظ مـن حالـة

دوار ويتساءل: الشمس والطبيب.. يتصور الطبيب رجلاً طويل القامة بلبــاس أبيض ونظارة سميكة وأصابع نحيلة طويلة. أما الشمس فيتصورها فقط، ناراً هائلة تحرق كل شيء.. إذن ما علاقة الشمس بالطبيب؟

أما الواقعة التالية فهي من الوقائع التي أيقظت مرة ثانية في نفسه علاقة الشمس بالطبيب، لأن صاحبه الميكانيكي مصطفى الزيات كان يقول بمناسبة أو دونها، إن الشمس ضرورية لجسم الإنسان كضرورة الأكــل..وصــاحبه هــذا، ميكانيكي قديم، وأحد العمال البارزين في هذا المجال. صاحبه مصطفى هذا، كان يتابع له ولبقية العمال وهم يتناولون الإفطار: إن الشمس واحدة مــن خيــرات بلدنا لأنها تنضج الزرع.. ثم يذهب في حديثه عن أمر آخر فيقــول: ذات يــوم ساهمت في إضراب دام ست ساعات من أجل الشمس

التفت مراد.. وبقية العمال ونظروا إليه باستغراب: ما معنى أن يُضــرب هو وخمسين عاملاً من أجل الشمس؟ ماذا كانوا يريدون من الشمس؟ بينمــا كان مصطفى الزيات يقول: كانت ظروف العمل صعبة، كانت ورشتنا تقع فــي الجهة الغربية من المبنى، وليس فيها نافذة يمكن للشمس أن تتسلل عبرهــا إلينا.. وذات إضاءة شاحبة.. لذا عندما كان يخرج أحدنا من الورشة يشــعر كأنه يخرج من كهف أو قبر. ولم تمر شهور حتى أخذ بعض العمال يصــابون بأمراض مثل قصر النظر والرومــاتيزم.. وبعــد استشــارة العمــال لطبيــب المؤسسة، أكد لهم أن مكان العمل رطب، وعدم دخول الشمس إليه هو السبب في إصابتهم بالأمراض. فتقدمنا إلى الإدارة برأي وهو أن تزيد مــن إضــاءة الورشة وأن تفتح نافذة كبيرة من أجل تحسين جوها. ولكن الإدارة لــم تــرد على طلبنا. فلم نجد أمامنا سوى الإضراب..

اذكراني قلت لنفسي: إذن ما كان يقوله المعلم في المدرسة الابتدائية، صحيح.. ثم بصورة غير متوقعة سألت الميكانيكي مصطفى الزيات: وهل تم تحقيق مطلبكم؟

أجاب: طبعاً. لقد قلت أننا أضربنا ما يقرب من ست ساعات. ولـــو لـــم يحققوا لنا المطلب لظللنا مستمرين في الإضراب..

لوى مراد.. شفته وقال لنفسه: إن الشمس، على ما يبدو، هـــي التـــي كانت وراء محنته فها هو قد عرف كم هي ضرورية للإنسان

إذن من حق زوجه زينب أن تطالبه بالشمس. لأنها عندما ناقشـــها فـــي أسباب نفورها وصدودها ومعاملتها القاسية له. قالت: أريد بيتاً تتســـلل إليـــه الشمس ولو من كوة صغيرة؟ أريد ولو حزمة ضئيلة من نورها..أما أن أتعفن في هذا البيت، حيث جدرانه تنز رطوبة وعفونة، فهذا الأمر لم يقله الله! فأنا لم أعد أحتمل..

ثم صبت جام غضبها عليه وهي تقول: أنا لا أقل عن الأخريات اللـــواتي حصلن على سعادتهن. ثم تؤكد: والعكس هو الصحيح.. فأنا التي لو عملـــت لركع الرجال تحت قدمي، أعيش في هذا الكهف.. بينما الأخريـــات اللـــواتي.. ولم تكمل..

إذن يا مراد.. الشمس هي سبب محنتك، وإلا لما تحدث عنهـــا المعلـــم.. وهنا تذكر، أن الشمس لم تكن تخرج من بيت والده، رغم هذا كان لا يبلى مـــن المرض، ما إن يقوم من مرض حتى يقع في آخر. كان الطبيب يقـــول لوالـــده: ابنك يلزمه بعض الفيتامينات، لديه فقر دم.. أطعمه لحماً، حليباً، بيضاً وفاكهة..

ويضحك مراد.. ساخراً من نفسه ويقول: إذن الشمس ليست السبب في محنتي، إنما هي جزء من أسباب المحنة؟ كما أنه هناك أمور أخـــرى تكمـــل الأجزاء الباقية من محنته.. نعم، إن الشمس هي جزء من محنته.. وها هـــو مراد.. يتساءل من جديد، أو يبحث عن الأجزاء الباقية من أسباب محنته، بعد أن عرف جزءاً منها..

ظل مراد.. يرجع إلى الوراء وهو يصعد طلعة «الشيخ مقصود» والعرق

يرشح من جبهته وعنقه وتحت إبطيه ويتساءل بأسى: آه يا زينب لو تعرفين الثمن الذي أدفعه من أجل هذا الكهف الذي ترفضين العيش فيه؟

وسمع مراد.. ضحكة «مدام زوزو» الفاجرة وهو يحاول باضــطراب أن يضع آخر زر في ثقب سرواله.

عن الأكل واللباس والشراب وأشياء أخرى

أخذ مراد.. يقارن بين أوضاع أسرته، وأوضاع أسرة زينب.. فلاحظ أن الأسرتين فقيرتان، إنهما من عشيرة الفقراء أباً عن جد.. فماذا يعني اليوم أن ترفض زينب أن تعيش زوجة لرجل فقير؟ لماذا تحاول أن تمد رقبتها أكثر مما تطول؟ لماذا لا تحاول أن تفهم أوضاعه؟ لماذا لا تنظر إلى ما قـــام بـــه مـــن شراء بيت كنقطة، كبداية من أجل بيت أفضل يمكنه في الغد أن يشتريه؟ بيت تدخله الشمس ولا تخرج منه، يدخله هواء نقي مفعم بالروائح الطيبـــة التـــي تبعثها أشجار الزيزفون والكينا المحيطة به.. بـــل حتـــى شـــجيرات الـــورد والياسمين، لماذا لا تقدر على انتظار بضع سنوات؟ ألا تعرف أن أي أمـــر لا يمكن أن يتم في يوم واحد، وأن أية بناية لا يمكن بناؤها في يوم واحد.. فهو ليس بساحر حتى يستطيع أن يتحايل على الزمن، ويأمر الوقـــت بتنفيـــذ مـــا تريده زينب؟ فهما متزوجان منذ سنتين، وقد ابتدأت حياتهما بهذا البيت الذي تقول عنه كهف! ليكن يا زينب.. أنسيت أنه منذ سنة لم يكن لدينا حتى هـــذا الكهف الذي لا يعجبك السكنى فيه، لم يكن لدينا سوى غرفة في بيت أهلـــي.. لم يكن لنا رغيف مستقل، أو صحن، أو حتى كأس شاي يمكن أن نتناوله معاً لوحدنا؟ أنسيت هذا يا زينب، إن حياتنا كانت أشبه بحياة الجنود، الأكل جماعة والشرب جماعة والاستحمام جماعة، حتى إطفاء الضوء كان علينا أن نطفئـــه فور إطفاء والدي ضوء غرفته.. ألم تطلبي من الله غرفة واحدة، قناً يمكن أن ترضي به على شرط أن تستقلي بحياتك بعيداً عن نظرات أبي ولسان أمـــي..

وها قد حقق الله أمنيتك.. فلماذا تشتكين رافضة نعمته؟ لماذا لا تنظرين إلـــى الحياة، على أنها محطات، يمكن للإنسان أن يحقق في كل محطة أمراً منها؟

وللحظة واحدة شعر بالغضب من زوجه فشتمها قائلاً:ماذا يا بنت الكلـــب، أنسيت فقر والدك؟ فهو يكاد يموت من الجوع لولا والدتك التي تعمل ليل نهار من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه.. لماذا لا تكونين مثل والدتك في القناعة والرضا بحكمة الله؟ ثم متى كان الفقر عيباً؟ إن الفقر هو قسمة ونصيب من الله عز وجل.

شعر مراد بالتعب بعد أن وصل إلى منتصف طلعة «الشـــيخ مقصـــود». كان يلهث فخفف من سرعته قليلاً، ليلتقط أنفاسه مع كل خطوة يخطوها إلـــى الأمام ويرجع إلى الوراء في ذاكرته، ليعود مرة أخرى إلى تساؤله: متى بدأت محنته؟ من كان وراءها؟ أي الأسباب التي ذكرها كانـــت ســـبباً فـــي ذلـــك؟ الشمس؟ لقد اتفق مع نفسه أنها كانت جزءاً من محنته..

يعود مراد مـــرة أخـــرى إلـــى زوجـــه التـــي حدثتـــه عـــن الشـــمس ونورها..ويستمع إليها وهي تحدثه عن الثياب والأكل والشرب. تقول بتحـــد: كان عليك أن لا تتزوج ما دمت لا تستطيع أن تؤمن ما يطلب منـــك.. أريـــد ـ تتابع زينب ـ أن أشتري كل ما أحتاج إليه من اللباس، أريد أن أشم هواء ربي.. وهنا كان يقاطعها سائلاً باستغراب: ولكن من منعكِ من شم الهواء كما تدعين؟ تثور زينب في وجهه: يا إلهي.. هل أنتف شعري؟ أي رجل لا يفهـــم اُبتليت به؟

ثم تصرخ: أفهم يا..

ولا تكمل ما كانت تريد قوله، إنما تتابع في أمر آخر: أقصد أن أعيش.. ينظر إليها ببلاهة ويكاد أن يسألها، ماذا تفعلين؟ هل أمنعك من العيش؟ ولكنه آثر الصمت. تركها تتابع: أقصد أن آكل ما أشـــتهي، وألـــبس مـــا أشـــتهي، وأشرب.. أخرج مثل بقية الناس؟ اللعنة!

كانت زوجه تتكلم لغة غير لغته، فيصرخ هو أيضاً في وجهها: يا بنــت الكلب من منعك من الخروج والشرب واللباس؟

ترد عليه بصوت أعلى من صوته: قل لي، ألبس مــاذا؟ ذاك الثــوب الــذي اشتريته لي منذ سنتين؟ أم ذاك الذي بلي عند الكوعين والذي قدمته لي منذ.. منذ.. وأشرب! ماذا أشرب؟ قل لي، أأشرب الماء؟ أما الأكل فماذا تريدني أن آكل.. برغلاً لشهور طويلة، إن كنت تقصد هذا، فأنا لا أبغيه.. ينكتم صوتها، يبح..

شعر مراد أن لا فائدة من الحوار بينهما، لا لغة يمكن أن توضح موقف كل واحد منهما من الحياة، فأخذ يفكر كيف يمكن أن يجد حلاً للمشكلة؟ وبعــد طول بحث وجد أن الحل في جلب المزيد من النقود لكــي يســتطيع أن يلبــي رغبات زوجه.. ولكن كيف؟ إنه لم يتقاعس في يوم من الأيام عن البحث عن عمل إضافي له. كان يحمل عصر كل يوم حقيبته ويذهب دائراً بــين الأحيــاء والحارات منادياً على الذين لديهم أدوات كهربائية معطلة لتصــليحها لهــم.. ولكنه لم يجد من يطلب منه عملاً ما..

كان مراد.. يحلم بدكان صغيرة في «الشيخ مقصود» أو في أي حــي آخر يمكنه من بيع الأدوات الكهربائية من جهة وبإصلاح الأدوات المعطلة منها من جهة ثانية. إن الدكان هي التي يمكنها أن تجلــب النــاس إليــه. ولكن من أين له هذه الدكان؟

وفي لحظة يأس طرح على نفسه السؤال التالي: هل يمكن لـــ «مــدام زوزو» أن يؤمن له ذلك؟ حتماً سيقدر على ذلك.. وعندما حــاول أن يطــرح الأمر بين يديه في آخر لقاء بينهما شعر باشمئزاز، لأن هذه الجيفة ســتربطه به بعد ذلك إلى الأبد! بصق على نفسه واحتقرها أشد الاحتقار. ثم مــا لبــث عندما تذكر زوجه ومطالبها، أن بكى بصمت ومرارة.. وذات يوم،، طلب منه أحد العمال الذين يعملون معه في الورشة، أن كان يساعده فــي العمــل بعــد

دوامهما.. لأنه.. أي العامل تعهد عملاً لإحدى الوكالات المحليـــة، وعليـــه أن ينجزه بسرعة.. فوافق مراد.. وظل يعمل بحماسة مدة شهر ونصف، استطاع أن يحصل على مبلغ ألف وخمس مئة ليرة.. وفي لحظة عودته إلى البيت قرر أن يشتري لزينب ثياباً، وأن يخرجا ذات يوم جمعة إلى أحد المطاعم ويـــأكلا فيه لحماً مشوياً مع سلطة خس وبندورة، ثم يـــذهبا إلـــى الحديقـــة العامـــة، يجلسان فيها ويأكلان الفستق الحلبي ويفصفصان بزر القرع وبقية المـــوالح، ثم يحضران معاً فيلماً سينمائياً، ويعودان في الساعة التاسعة إلى البيت..

في ذلك اليوم ابتسم مراد وقال: حتماً ستسعد بهذا اليوم.. وراح يعمـــل ويخطط من أجل أن يعيش مع زينب مثل هذا اليوم. وها هو بعـــد أن حصـــل على أجرته، وفي طريق عودته إلى البيت فكر كيف يمكنه أن يفـــاجئ زينـــب بحلمه الصغير الذي لا يعدوان يعيشا ليوم واحد فقط يأكلان ويشربان كل مـــا يخطر ببالهما.. يتنزهان، يذهبان إلى السينما.. ولكنه فجأة.. عندما تـــذكر أن عليه غداً أن يذهب إلى «مدام زوزو» حسب الموعد والاتفاق الـــذي بينهمـــا شعر بقرف من حياته، شعر أن عليه إنقاذ نفسه منه بأقرب فرصـــة ممكنـــة، عليه أن يسدد ما عليه من ثمن البيت، القن، الكهف كما تقول عنـــه زينـــب، وهكذا حث خطاه إلى السمسار أبو عدنان.. دفع له ثلاثة أقساط دفعة واحدة. فابتسم له أبو عدنان.. وقال: ها أنت تريد أن تحرم «مـــدام زوزو» فضـــائلك بأقصى سرعة، لو استمريت في الدفع كما دفعت اليوم. ثم تابع مبتسماً: بهذا ستنقذ رقبتك من بين ساعديه.. وانفجر بضحكة عالية.

عاد مراد.. إلى البيت وشعور مزدوج ينتابه، شعور الخيبة والقهر وأيضاً شعور الفرح والسعادة.. وأمام البيت توقف، أراد أن يطرق الباب، ولكنه تـــردد، وعاد أدراجه للتسكع في الحديقة العامة حتى منتصف الليل، حيث تكون زوجـــه قد نامت، وفي الصباح سيتسلل باكراً من البيت دون أن يجد في عينيهـــا تلـــك

النظرة التي بات يخافها. نظرة فيها إدانة كأنها تقول له: أنا مدفونة حيـــة، أنـــا مظلومة بفعل فقرك الذي لا تحاول أن تجد طريقة للخروج منه..

ولكن ظنه هذا خاب. كانت زينب تنتظره في الفراش. فتشـــاجرا ليلتهـــا وتضاربا.. حتى تجمع الجيران عليهما..

الطلعة الثانية

وصل مراد.. إلى نهاية طلعة «الشيخ مقصود» فتنهد بارتياح وهو يحيط بنظره الأرض المستوية الممتدة أمامه قبل أن تبدأ الأرض بالطلعـــة الثانيـــة المسماة بطلعة الجامع.. التفت إلى يساره فرأى باب مكتـــب أبـــو عـــدنان.. مشرعاً يصدر منه صوت أبو عدنان.. فحث خطاه مبتعداً وهو يشـــعر بـــأمر مجهول يدفعه إلى الإسراع لكيلا يراه!

أسرع متخطياً باب المكتب تاركاً وراءه أبو عدنان.. متمنياً أن لا يـــراه. لو رآه لنادى عليه وسأله: ما بك؟ أنسيت أن في هذا المكتب شخصاً تعرفـــه؟ أنسيت أنك وزوجك كنتما في سهرة لدي منذ ليلتين لا غير؟ سيضـــحك أبـــو عدنان.. حتماً سيضحك ويقول: أجلس، استرح سأسقيك كوبـــاً مـــن الشـــاي المنعنع. ثم يخفض رأسه ويهمس بقرب إذن مراد، إنه يقوي الـــ... وحـــين يشربه لا يقدر على النوم حتى يقوم بواجبه الليلي..

ويقهقه وهو يرتب على كتف مراد.. ثم يعـــود منتصـــباً ويـــدور حـــول طاولته ليقف وراءها، ثم ما يلبث أن يتراخى جالساً على كرسيه ويذهب فـــي طرح الأسئلة عليه..

توقف مراد فجأة عن السير، التفت بحدة إلى جهة اليسار حيث مكتب أبو عدنان.. استغرب عندما وجد المكتب مغلقاً!منذ لحظة كان بابه مشرعاً حتـــى أنه سمع صوت أبو عدنان.. يعلو من وراء الزجاج! غريب والله!

كيف اختلط عليه الأمر فلم يميز ما بين باب مكتب بيع السيارات المشرع

عن باب مكتب أبو عدنان.. المغلق؟

تابع سيره بعد أن تجاهل ما كان يدور في نفسه وعاد إلى تخيله وتساؤله الذي لا يجد الجواب عنه. من يكون الرجل الذي انزلق ما بينه وبين زينب؟ من هو الرجل الذي لم تعد من أجله، تقدر على إرضاء مراد.. فمراد يعرف تماماً أن زوجه لا تطرق الباب على أحد سوى بيت أبو عدنان.. في زيارات قليلة لا تدوم إلاّ دقائق من أجل هذه الحاجة أو تلك، فهما لم يذهبا إلى بيت أبو عدنان.. خلال سكنهما في المبنى إلاً في ثلاث زيارات لهما طابع سهرة، ولم يلاحظ مراد شيئاً غير طبيعي تم فيهما.. كان هو وأبو عدنان.. يتحدثان عن كثير من الأمور. أما زينب وأم عدنان. فكانتا منخرطتين في أحاديث نسوان، كما يقال في مثل هــذه الحال.. لذا، استبعد مراد أن يكون أبو عدنان.. هو الرجل الذي انزلق ما بينـــه وبينها فعكر عليهما حياتهما.. إذن من هو هذا الرجل يا مراد؟

مرة أخرى يفشل في الجواب، مرة أخرى يقول لنفسه: إنه أبو عدنان.. ولا أحد سواه! ثم راح يدعم رأيه هذا بجملة من المعطيات. أولاً تــدبير أبـــو عدنان.. عملاً له عن طريقها في إحدى ورشات المتعهد عبد الفتــاح.. بعــد الظهر. ثانياً: عندما سأله أبو عدنان.. في أثناء زيارته الأخيرة له: إن كـــان لديه رغبة في شراء بيته؟

في تلك الليلة، بعد أن عاد وزينب إلى البيت، فكر طويلاً قبل أن ينام: ما معنى أن يبيعه بيته بالسعر الذي اشتراه به منذ خمس سنوات مؤكــداً، علـــى أنه لن يربح منه قرشاً واحداً! هل أصبح أبو عدنان.. مليونيراً حتى لـــم يعــد بحاجة إلى المئة والخمسين ألف ليرة تقريباً التي زادت على سعر البيـــت؟ أم أصبح من المحسنين بعد أن هلّت عليه ليلة القدر كما يقولون؟ أم لأنهما مجرد جارين فيتنازل له عن المئة والخمسين ألف ليرة؟ أم هناك أمر آخر؟

في تلك الليلة لم يصل مراد السيد إلى جواب مقنع على تســاؤلاته، ثـــم

اعتبر القضية وما فيها، أن أبو عدنان.. كان سكران فنطق بكلام لـيس لـه رأس أو ذنب!.. واليوم، وهو يصعد طلعة الجامع، يعود ويتساءل: ما رأيـك؟ هل عرفت أسباب ما تقدم به أبو عدنان..؟ ألا تعتقد بأنه يحاول أن يقيم معـك صفقة ما، خاصة عندما أظهر كرمه أمام زينب!

إذن يا مراد.. يا بن أحمد السيد، إن الكرم هو من أجـل عينـي زينـب وليس من أجلك؟ هل فهمت الآن أسباب كرمه؟

وفي منتصف طلعة الجامع شعر مراد.. بشيء سـاخن يتصـاعد مـن صدره إلى الأعلى، شيء غاضب، شيء يغلي ويفور وهو يقول بغـيظ وكـره وحقد: سأقتلهما معاً.. إن كان الأمر قد وقع! لا يمكن أن أسكت لهـا، مـاذا تظنني رجلاً بلا كرامة، بلا شرف؟

في هذه اللحظة الغاضبة بالضبط أطل «مدام زوزو» برأسه وهو يـدفع بلبانة من فمه، وينفخ بها هواء فتكبر الفقاعة الوردية أمام وجهه حتى تغطيه تماماً، ثم ما تلبث أن تنفجر.

عاد وجه «مدام زوزو» ثانية ساخراً ليقول له: لـم أرك فـي الأسـبوع الماضي، في الموعد، أقصد موعدنا يا مراد.. ي الفحل..

توقف مراد.. للحظة، حتى انفثأ غضبه كله متجاهلاً «مدام زوزو» وهو يقول لزينب: إنه رجل ذو كرامة، رجل يملك شرفه بالكامل.. لذا لن يسمح لها أن تفرط به أو بجزء منه!

مرة ثانية أطلّ وجه «مدام زوزو» بفقاعة لبانته ليجهز على غضبه وعنفوانه كرجل – لا بل جاء ليقضي على صورة الرجل الذي أراد أن يكونه أمام زينب. وهنا أجاب مراد.. بذل وانكسار وهو يتابع خطوه بقدمين تعبتين صاعداً طلعة الجـامع: هل بدأت محنتي في اليوم الذي وافقت فيه على عرض «مدام زوزو»؟

لم يجد جواباً على تساؤله! فنفض رأسه وعـاد إلـى أحضـان الليلـة

الماضية يتذكر وقائعها، يتذكر اللحظة التي أدارت فيها زينـــب ظهرهـــا لـــه وقالت: أنا تعبانة..

سألها غاضباً: تعبانة.. تعبانة.. ماذا، هل كسّرت أحجاراً؟

ردت عليه، هكذا تخيل: لا لم أكسر أحجاراً. ولكني لا أستطيع أن أُرضي رجلين؟ لن يتحدث مراد عن تلك اللحظة التي تلقى فيها اعتراف زينب فيهـــا ذاك، إنما سيتحدث عن اللحظة التالية، لحظة انسحابه من السرير خائفاً وهو يرتجف كأن حمى قد ضربته في جذوره، وحين التفت إليها محملقاً بهـــا لـــم يصدق ما سمعه منها، ماذا؟..

خرج صوته مبحوحاً غير واضح فأردف: ماذا قلت؟ رجل آخر؟

انهار على الكرسي وهو يأخذ رأسه بين يديه.. صاعداً، الآن، تعباً طلعة الجامع في «الشيخ مقصود» فقد عرف هذا الرجل الآخر، الرجل الذي انزلق ما بينهما...

لم يصدق! يمكن أن يشك بكل رجال الدنيا إلا أبو عدنان: أيمكن؟ هل حقاً ما تقولين؟ أهو أبو عدنان؟؟

ويقوم عن الكرسي، يدور حول نفسه يسأل: متى تم الأمر هـــذا؟ متـــى أيتها الـــ.. في تلك الليلة أخذ البركان الخامد يثور لاهباً في صدره.. ها هـــو يطرح الأمر مازحاً على زوجه، فتصفعه بحقيقة مرة لا تحتمل، ها هو يقـــول لها عندما قالت له: أنا تعبانة! كأنك بسلوكك هذا تؤكدين لي ظنا أخذً يساورني في الأيام الأخيرة بأن هناك رجلاً آخر في حياتك؟

ألقى مراد.. هذه الجملة لقهر وإحباط شعر بهما طوال الليـــالي العشـــر الماضية فهو لم يفكر أبداً في جرح كرامتها..

ولكن ها هي زينب تلتفت إليه وتصفعه بالحقيقة المرة: نعم. هناك رجل آخر. فأنا لا أستطيع أن أُرضي رجلين؟

هكذا، بدأ الأمر ــ أول ما بدأ ــ كأنه شيء من المزاح السمج من قبله،

فكان الجد والصراحة والاعتراف الوقح من جانبها.. ماذا؟

استغرب مراد.. لأن صوته خرج ضعيفاً، غير متماسك، فكّح، ثـم تمالـك نفسه وثبّت رأسه فوق كتفيه لأن دواراً ضعيفاً انتابه للحظات بينما شعر بشيء ما يهتز في نفسه. سأل: ما هو الشيء الذي اهتز في نفسه؟ لم يصل إلى جواب مقنع. ولكنه ظل يشعر حتى الصباح باهتزاز ذلك الشيء في نفسه، وفي لحظـة يأس مديده إلى حافة السرير وأمسك بها خوفاً من أن يقع عنه، ولكنه، شعر أن السرير يريد أن يلقيه عنه بعيداً، لقد تمرد حديده على يدي مراد.. كأنـه يقـول له: دعني. أنا لا أريد أن يمسك بي قواد، رجل بلا كرامة أو شـرف.. ولاحـظ أيضاً أن السرير يمد له لسانه ويتابع ساخراً منه: ماذا بقي لك من الأشياء التي يمكنها أن تربطك بي؟ زوجك؟ ها هي تعلن لك: أنها متعلقة برجل آخر..

تلعثم مراد.. وهو يسأل السرير: هل أنت متأكد من انه، عليك أنت، أيها السرير، ثم الأمر.. أصدقني القول، أم على سرير.. أصدقني القـول؟ انكسـر صوت مراد.. أصبح صوته صوت رجل عـاجز، مظلـوم يسـتحق الرحمـة والشفقة. أما السرير فها هو يبتسم منه ساخراً، ثم يدير عنه وجهه،ويقول له باشمئزاز: كم أنت مسكين!

حقاً. كم أنت مسكين يا مراد.. لو لم تكن مسكيناً لما خانتك زوجك؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل حزمة من ضوء الشمس! من أجل ثوب سيهترئ بعد عدة شهور! من أجل حذاء سيبلى بعد شهر! من أجل قطعة من اللحم لـن يلبـث المرء أن يذهب بعد عدة ساعات إلى المرحاض ليرميها بعيداً عنـه، بعـد أن تصبح مادة ذات رائحة كريهة لا تطاق! أم أن هناك أشياء أخرى خانتني مـن أجلها، ولم تصرح لي بها؟

تناول السيكارة العاشرة من علبة التبغ الثانية التي راح يدخنها فـي ليلـة االاعتراف ــ اعترافها ــ تلك. كانت الأدخنة قد غطت فضاء الغرفـة حتـى أن

زوجه المتمددة على السرير اختفت عن ناظريه تماماً. كان يريد أن يقــوم إليهــا متغلباً على عجزه ليطلب منها أن تقوم وتجلس أمامــه ليطــرح عليهــا بعــض الأسئلة..

متى كان لقاؤكما الأول؟ كيف كان منها أن لبت طلبه؟ ومن بدأ أولاً بنزع الثياب عن نفسه؟

تذكر كيف أن «مدام زوزو» يطلب منه أن لا يسرع في خلع الثياب عــن نفسه.. ويمد مراد.. يده ويبعد «مدام زوزو» من أمامه وهو لا يعرف كيــف يطرح عليها، على زوجه، السؤال التالي دون أن يحرجها: مع من تشــعرين بالبسط أكثر معي أم مع؟

يقوم مراد.. يدور حول نفسه بين الدخان الذي يخيم على جو الغرفــة.. وفجأة من زاوية السرير اليمنى، يرى قدم زوجه عارية، ثم يمتد عريها إلــى الأعلى فالأعلى.. وعندما يفرك عينيه ليتأكد من أن الذي يراه لــيس حلمــاً، يرى أبو عدنان.. وهو يتقدم من زينب بعد أن انزلق الشرشــف عنهــا إلــى الأرض..

ويجن مراد.. يرفع شيئاً ما كان أمامه ويدفعه عن نفسه بعيداً، يصــرخ، ثم ينطح الحائط ويبكي. ثم ما يلبث أن يمد يده إلى السكين ولكنه لا يســتطيع القبض عليها، يسمع صوت ضحكة ساخرة منه تقول: لا تحاول أن تمثل دور الرجل.. لقد كففت أن تكون رجلاً يوم وافقت على أن تــأتي «مــدام زوزو»! نعم. لقد كففت أن تكون رجلاً...

وانفتحت أمام مراد.. هوة راح يسقط فيها، ينزل وينزل.. ولا يصل إلــى قرارها. يظل يهوي فيها ويهوي.. يضحك ويقول لنفســه: هــل عرفــت الآن أسباب اهتمام أبو عدنان.. بك؟ هل عرفت لماذا دبّر لك عملاً بعد الظهر عنــد متعهده؟ هل عرفت لماذا يحاول أن يسهل لك أمر شراء بيتــه؟ هــل عرفــت

أسباب دعواته المستمرة وعتابه من أنك وزينب لا تزورانه..؟ لا تأتي للسهر معه؟ هل عرفت الآن أسباب ذلك؟ هل عرفت الآن أسباب محنتك؟

ظل مراد.. لا يجيب. ظل يسأل: متى سأصل إلى قرار الهوة التي أهوي فيها؟ متى..

محاولات للقتل

ها هو مراد.. يصل إلى نهاية طلعة الجامع، يقترب من العمـــارة التـــي يسكنها. كان الناس قد لاذوا ببيوتهم، فساعة الظهيرة هذه تجعل التسكع فيها أمراً صعباً.. الحرارة تشوي كل شيء، أما الذين يضـــطرون إلـــى الخـــروج فيشعرون أنهم في الجحيم، إنه فصل الصيف، شهر آب اللهّاب..

رفع مراد.. رأسه ورمى النافذة الوحيدة، في الطابق الرابع من العمـــارة بنظرة حيث بيته الذي يطل عبر تلك النافذة الصغيرة على العـــالم الخـــارجي، عبر تلك النافذة ــ الكوة، يتسلل إليه هواء الشارع، عبر تلك النافذة ــ الكوة تتسلل أشعة الشمس لمدة لا تزيد عن نصف ساعة فقط. هذه النافذة ــ الكوة هي سرته التي تربطه بالحياة..

شعر مراد.. لحظة كأنه يتهرب من الأمر الذي يشغله منذ ليلـــة أمـــس، فسأل نفسه: ما بك تتحدث عن النافذة والشمس والهـــواء والســـرة.. الـــخ، وتنسى السؤال عن أسباب محنتك؟

توقف مراد عن الكلام، ثم ما لبث أن تابع: أنت منذ الليلة الماضية تطـــرح الأسئلة على نفسك دون أن تجد لها الأجوبة؟ فما دهاك..؟ وقطع كلامه، ثم مـــا لبث أن تابع: حقاً أنت لا تجد الجواب عن أسباب محنتك؟ أم تحاول الهرب منه لذا تناور وتحاور وتداور ولا تريد أن تطرحه بوضوح وتقول بصـــراحة:إن أســـباب محنتك هو أبو عدنان.. نعم أبو عدنان.. قل لي يا مراد.. ماذا ستفعل الآن؟ هـــل سيكون القتل من نصيبهما؟ أم نصيب أحدهما دون الآخر؟ أم ســـتختار أحـــدهما

لتنفذ به عملية القتل؟ من ستختار؟ زوجك زينب؟ أم أبو عدنان.. يجب أن تختار الذي ألحق بك الضرر.. لا بأس. لكن أريد أن أسألك سؤالاً؟ تفضل..

قل لي: ما هي الطريقة التي ستختارها للقتل؟ سكين، مسدس، بلطة.. أم لديك طريقة بأداة أخرى؟ يجب أن تختار طريقة ليست على البال أو الخاطر!

ثم أكد لنفسه: أنت عامل كهرباء معجون بأســرارها، تعــرف أدق خفاياهــا، فالمهندسون أنفسهم يشهدون ببراعتك، فهم يعتمدون على خبرتك في كثيــر مــن القضايا المعقدة التي تتعلق بالكهرباء تحلها لهم ببساطة من يشرب كوباً من الماء..

إذن يا مراد.. يا بن أحمد السيد، هل ستختار طريقــة القتــل بواســطة الكهرباء؟ حيث لن يعرف أحد أسباب الموت؟ هل يمكنك أن تضلل الشرطة لو نفذت القتل عن طريق الكهرباء؟

رمش مراد بعينه بعد أن أتى على العلبة الثانية من التبغ، ثم تابع: وأنت ألا تتحمل جانباً من المسؤولية في الذي وجدت نفسك فيه؟ طبعاً تتحمل، لا بل تتحمل جانباً كبيراً منه.. إذن من منكم المذنب، أنت أم زينب؟ أم أبو عدنان..؟ أم أنتم الثلاثة تتقاسمون الذنب بالتساوي..؟

إذا كان الأمر هكذا فليحمل كل واحد منكم وزره على حده..

وأمام هذا القول ارتاح مراد للحظة فقط. ثم ما لبث أن سخر من نفســه وقال: ها أنت تعود إلى تبرير ما حدث، وتصل إلى الجواب ببساطة متناهية؟

نفض رأسه بقوة كأنه يقول: أنا أرفض مثل هذا الحل.. الحــل الوحيــد الذي يمكنني أن أقوم به، هو قتل من أساء إليّ، من جعل حياتي جحيماً! نعــم يجب أن يُقتل..

وفجأة استل، هكذا خيّل له، لمراد.. سكيناً وذهب يطعن زينب، ثم يطعن أبو عدنان.. وما لبث والتفت إلى «مدام زوزو» وأخذ يطعنه وهــو يصــرخ: وأنت يا بن الكلب أتريد أن تنقذ جلدك النتن؟ أنت أول الذين يجب أن يموتوا..

وهكذا أخذ مراد.. يضرب ذات اليمـــين وذات اليســـار، راحـــت الجثـــث تتساقط من حوله، وتتراكم أمامه. ثم ما يلبث مراد.. أن يتعب ويصبح عاجزاً عن رفع يده فيلهث متصبباً بالعرق، ينظر بعينين وحشيتين إلى الدماء وإلـــى سكينه المدماة ويسأل: هل قتلهم بالسكين مفيد؟

أجاب: لا.. يجب قتلهم بالسيف!

يجب رميهم بالرصاص! ويخالف نفسه: كلا أبداً.. خير وســـيلة لتنفيـــذ القتل فيهم، هي ما كان يستخدمها الأجداد!!

ومع صعود مراد.. درجة من درجات العمارة تساءل: ماذا كان الأجداد يفعلون؟

لم يتوقع مراد.. أن يطرح على نفسه هذا السؤال! فأطرق رأسه وقـــال: من أين لي أن أعرف؟

إذن عليك بالسكوت والرضى. ثم يتابع: لو رضيت ستكون أنت الـــرابح الأكبر.. ستحصل على بيت تدخله الأشعة، لن تسألك زينب بعـــد ذلـــك عـــن الشمس.. ستملك أيضاً دكان كهرباء، ستكف عن العمل في مؤسسة الأعمـــال الإنشائية، لن تتلقى الأوامر بعد هذا من أحد.كما أنك ستبتعد عن مخاطر أولئك الذين ينادون بالنضال في سبيل حياة أفضل لك ولكل الكـــادحين مـــن عمـــال وفلاحين ومثقفين ولست تعرف ماذا؟ من أقوال وحكايات أبو اصطيف وسعيد الفرواتي ومصطفى الزيات.. ويبصق مراد.. أمامه، ثم يرفع رأسه وينظر إلى الدكان.. الدكان الذي قال عنه أبو عدنان.. ستشتريه بفارق السعر يا مـــراد، بيتك ستبيعه بأكثر من مئة وخمسين ألف ليرة، وبيتي ستشتريه بمئة وعشرة آلاف ليرة.. سيبقى معك أربعون ألفاً، وبهذا المبلغ تستطيع أن تشتري دكاناً، تفتح فيه ورشة تصليحات للأدوات الكهربائية..

وها هو مراد.. يرفع رأسه، وينظر إلى باب الدكان المغلق. وها هم الزبائن يأتون إليه من كل «الشيخ مقصود» هذا يطلب منه أن يصلح له راديـــو، وآخـــر

يطلب منه أن يمد له التمديدات الأولية من الكهرباء، وذاك يطلب كذا..

ويرى المال يتراكم فوق بعضه بعضاً لديه.. الليرة فوق الليرة، والعشرة فوق العشرة، والخمسون فوق الخمسون، والمئة فوق المئة.. ثم تأتي الورقة ذات الخمس مئة ليرة فوق الخمس مئة الثانية والثالثة والرابعة، وهكذا.. ثـم يتابع فرحاً: ولن يمر وقت طويل يا سيدي حتى ألعب بالمال لعباً..

ويسأل نفسه: ثم ماذا؟

يجيب: لا شيء سوى أني سأقذف بالـ «مدام زوزو» بعيداً عني بطرف حذائي، أما زينب سأطلقها وأتزوج أخرى، امرأة شريفة، امرأة لا تعرف شيئاً عن الرجل! امرأة لم تعرف جسداً لرجل سوى جسدي!

ضحك مراد.. ضحكة صاخبة وساخرة للحلول التي توصل إليها، التفـت حوله خوفاً أن ينظر إليه المارة.. كان لوحده، مع زوجه زينب النائمة. اقترب منها وحاول أن يضمها إلى صدره وهو يأمل في أن تكون قد ارتاحت، ولكنـه يسمعها من جديد تقول له: ألا تفهم.. أقول لك أنا تعبانة!

ويسألها بنزق: بحق الله.. قولي، متى سترتاحين؟

لا تجيبه، إنما تتوغل في انكماشها وابتعادها عنه، فيثور وهو يشـتمها، ولكن صوته ينكتم قبل أن ينطق بحرف! يقول لنفسه: وأنت ألست ابـن كلـب أيضاً. مثلك مثلها.. ثم يتابع: ماذا تستطيع أن تفعل معها، إنها غيـر راغبـة فيك! هل تجبرها على ممارسة الحب؟

والحل؟ الحل أن تتركها وشأنها. ألم تتركهـا عنـدما أخبرتـك أنهـا لا تستطيع أن ترضي رجلين بآن واحد.. ثم ألم تجلس بين يديها وأنت لا تجـرؤ على سؤالها من يكون الرجل الثاني رغم علمك بأنه أبو عدنان.. وليس أحـد غيره.. جلست عاجزاً، مهزوماً، منكمشاً وأنت تدفن خططك الانتقاميـة أمـام المغريات التي قدمها لك أبو عدنان! لا تضحك! أعتقد، لم يبق أمامك يا مراد..

سوى أن تبحث عن حل يُرضي ثلاثتكم أنت وأبو عدنان.. وزوجك زينب؟

كان مراد قد فكر بهذا الأمر منذ ليلة أمس، حيث لمس محنته لأول مرة، وظل طوال اليوم يفكر بإيجاد الحل.ولكنه لم يصل إلى نتيجة. كان يلف ويدور دون أن يستقر له رأي.لذا لاحظ عليه رئـيس الورشـة شـروده وخمولـه وكسله.. وهذه الصفات لم تكن من صفات مراد.. تقدم منه رئـيس الورشـة وسأله عن أسباب ذلك. فابتسم مراد.. باقتضاب وأجـاب: لا شـيء.. إنمـا هكذا.. أحس بضغط على صدري.. ثم تابع ضاحكاً: أنـا بالـذات لا أعـرف السبب! لم يعلق رئيس الورشة بشيء، فقط قال له منبهاً:لا بأس.. ولكن انتبه إلى نفسك، فالكهرباء لا مزاح معها..

ابتسم مراد.. وهو يصعد طلعة الجامع: الكهرباء مرة أخرى..

حقاً لا لعب مع الكهرباء أو المزاح. يمكن أن تقضي علـى الإنسـان فـي لحظات معدودة. يقولون إنها الأسلوب المفضل في أمريكـا، فـي تنفيـذ حكـم الإعدام.. ها هي رغبة مراد.. في الانتقام تعود إلى نفسه ثانية. إنها طريقة مثالية للقضاء على.. للقضاء على.. ونسي الموضوع برمته مرة أخرى وهو منخـرط في العمل.لقد حاول أن يُشغل نفسه بالعمل فقط. من أجل أن ينسى ما يعاني منـه منذ ليلة أمس! ولكنه رغم هذا لم يستطع أن ينسى بعض الأمور الأخرى، خاصة فيما يتعلق بالسؤال عن الرجل الثاني، ومن جهة ثانية، البيت الذي يريد أن يبيعه أبو عدنان.. دون ربح، يبيعه بالسعر الذي اشتراه به منذ خمس سنوات!

وتساءل مراد: ألا يدعو هذا الأمر إلى العجب؟ رجل لا تربطه رابطة حقيقية أو قرابة دم، قريبة كانت أم بعيدة، مجرد جيران، هما، في بناية واحدة.. يتخلى له عن مئة ألف ليرة سورية؟ أمر يدعو للاستغراب! ضحك مراد وتابع: أمن أجـل سواد عينيك يا مراد؟ أم من أجل سواد عيني زينب؟ حك رأسه ولم يصـل إلـى جواب فجأة يطل عليه أبو عدنان.. أمامك حلان يا سيد مراد..

يضحك مراد.. لا، بل ينفجر بضحكة صاخبة وهو يكرر قول أبو عدنان.. على نفسه: يا سيد مراد..

ويتساءل ساخراً: أي سيد أنا؟

كان يريد أن يقول هذا لأبو عدنان.. ويطلب منه أن يكف عن مناداته بلقب سيد.. رغم أن كنيته: السيد.. مراد السيد.. ولكنه ما هو بسيد ولا من يحزنون..

ثم يتساءل: ألأني وافقت على إتيان «مدام زوزو» من الخلف، يطلق علـــي أبو عدنان.. لقب سيد، أم لأنني أحس بيدي الاثنتين القرون في طرفي رأسي؟

ويتخيل مراد.. كيف أن أبو عدنان.. يهز رأسه ويقول ضاحكاً: أتدري يا مراد.. كنت أنا أيضاً مثلك. أشعر بكياني ينهار إن وجّه إلي أحــد مــا كلمــة ليست على الأصول. أزعل وأحس بقهر وأسأل نفسي: لماذا قبلت هذه الكلمة؟ ماذا وراءها؟ إلى آخره.. ولكن الإنسان، مع تقدم العمر يشعر بأن عليـــه أن يتعامل مع الحياة والناس بواقعية، هل علينا أن نهدم العالم من أجــل كلمــة ليست على الأصول قيلت بحقنا؟ أم أننا.. أنت تعرف ماذا أريد أن أقول!

ويتابع أبو عدنان: ولكني اليوم، أعترف لك، لو استمريت في تفكيـــري ذاك لبقيت موظفاً صغيراً،أنتظر الراتب في أول كل شهر، بحيث لا يكفيني حتى اليوم العاشر! لبقيت إلى اليوم أعيش عيشة الشحاذ!

ضحك أبو عدنان وتابع: أما اليوم، فأنا لم أعد أعر مثــل هــذه الأمــور الصغيرة أي اهتمام.. أنا لا أعير اهتمامي اليــوم إلاّ للأمــور الكبيــرة التـــي تكسبني مبالغ أكبر من المال.. نعم.

ثم زفر أبو عدنان.. أنفاساً حرى وتابع: قل لي يا سيد مراد.. ألا تــرى معي، لو التفتنا ونظرنا حولنا قليلاً، أي تأملنا في أحوال الناس وأخبارهم،أيّ واحد منهم لم يلجأ إلى.. إلى.. أقصد لم يتنازل عن عناده قليلاً، وعن جانــب من الجوانب التي يقال عنها «الكرامة»، طبعاً ســأعود إلـــى الحــديث عــن

«الكرامة» التي يجب ألا يفقدها المرء، نعم.. من ظل مستقيماً كـالألف فـي حياته ووصل إلى ما وصل إليه الآخرون؟ من نام مرتاحاً دون أن تقلقه أمور المال والأحوال التي سيكون عليها في الغد دون أنْ يستند إلى أحد مـا هنـا وهنالك من الذين بيدهم الحل والربط؟

بلع أبو عدنان.. ريقه وتابع: وفي مثل هذه الحالة، من أنا؟ من أنت؟ ثم إنْ كانت الأمور لا يمكن لها أن تسير بالطريق الذي نرغب فيه ونريده فلماذا نقلق ونفكر ونخمن ونقول...

ابتسم وتابع: لقد لاحظت عليك في الأيام الأخيرة هذا القلق والاضطراب والتفكير الخ.. لماذا تعذيب النفس؟ ماذا يمكننا أن نجني من هذه الدنيا سوى ما نريد منها؟سوى لقمة طيبة وثوب جميل..

هز أبو عدنان رأسه وهو يبتسم وتابع بعد صمت: هذا ما أفكر به اليوم، أنا شخصياً، لا أفكر بشيء سواه..

رمش أبو عدنان.. بأجفانه عدة مرات وتابع بلهجة حازمة: أنا بصراحة تخليت عن كثير من الأشياء التي كنت أظنها حتى لوقت قريب، من المحرمات التي لا يمكن لإنسان أن يتخلى عنها! وبصراحة أوضح أقول: لو لـم أتخـل عنها لبقيت كما قلت لك سابقاً، موظفاً ــ أيّ شحاذاً..

في تلك الليلة قلّب مراد «كلام أبو عدنان».. هذا طويلاً، وهو في فراشه يدخن سيكارة وراء أخرى، فرأى في جوانب كثيرة من كلامه الصواب.. ثـم تذكر ما قاله أبو عدنان.. وهو يشرح موقفه من «الكرامة» فقال: يـا سـيد مراد.. لنسأل: ما قيمة «الكرامة». إنْ شعر الإنسان بعـد منتصـف الشـهر بالجوع؟ ماذا ستفعل بالكرامة عندما تمد يدك إلى جيبك بعد العاشر من الشهر ولا تجد فيه قرشاً واحداً؟ عن أية كرامة إذن يمكن أن تتحدث؟

اللعنة!.. لم يلعن مراد.. شيئاً معيناً في نفسه، إنما من عادته أن يطلـق

هذه الكلمة عندما لا يصل إلى حل ما، وهو يعالج مشكلة من مشاكله! كلمة «اللعنة» هذه، عادة تكون في بداية جديدة للعودة في التفكير بالمشكلة التي يعالجها بينه وبين نفسه. ولكنه عندما أطلق كلمة «اللعنة» هذه، في الصباح. أو في الساعة العاشرة بالضبط، كان رئيس الورشة إلى جانبه. فسأله: أراك شارداً يا مراد.. ماذا في الأمر؟ التفت إليه وأجاب: لا شيء..

عاد وسأله: كيف لا شيء.. وأنت لا ترى أمامك!

ابتسم مراد.. وقال: صدقاً أقول لا شيء. ولكن أنت أدرى بالأمور في هذه الأيام!

سأله رئيس الورشة: ما دهاها هذه الأيام؟

غمزه مراد.. بطرف عينه وقال: كيف ما دهاها؟ ثم تابع: أأنت الذي تسأل يا أبو أحمد..؟

ابتسم رئيس الورشة وقال: ولماذا لا أسأل يا مراد؟

علق مراد: ولكن يا أبو أحمد.. أنت.. أنت..!

وانكتم صوت مراد.

ضحك رئيس الورشة وقال: ماذا أنا يا مراد؟

ظل مراد ينظر إلى عيني رئيس الورشة وهو يقول لنفسه: ماذا، هل نسّي ما كان يقوله عن أسباب مصاعب الحياة وهو يلعن المسببين؟

هز رئيس الورشة رأسه عندما ظل مراد.. ساكتاً، حائراً وقال: لا.. لم أنس. ولكن يجب ألا تنسى أنت أيضاً يا مراد..

طوح مراد.. يده أمام وجهه وهو يصعد درج العمارة كأنه يقول: دعني بحق الله يا أبو أحمد..

الصعود

وصل مراد.. إلى الطابق الثاني والساعة تشير إلى الثالثــة والنصــف، وكان التعب قد أنهكه.. ولكنه، وهو يرفع رأسه، لينظر إلى الطــابق الثالــث، راح يعيد مرة أخرى، وكأنه لا يصدق ما قاله أبو عدنان.. لن أربح منك قرشاً واحداً! سأبيعك بالسعر الذي اشتريت به منذ خمس سنوات..

ورغم تساؤلات مراد.. الكثيرة عن أسباب ذلك، إلا أنه سأل زوجه زينب عن الأمر، فقالت له: تصرف كما تراه صالحاً.. وقبل أن ينطق بكلمة، تابعت: أرى العرض مغرياً..

هز رأسه وقال: نعم..

ولكن مراد.. في اللحظة نفسها التي قال فيها «نعم» رأى زينب عاريــة، ممدة على السرير بجانب أبو عدنان..

ويجن مراد، فهو لا يستطيع إبعاد هذه الصورة عن ذهنه. لقــد التصــقت تماماً بصورة ثانية يتخيل فيها نفسه صاحب دكان للتصليحات الكهربائية، يترك المؤسسة والورشة ورئيسها أبو أحمد.. ويصبح رئيس نفسه.. وعلى درجــات الطابق الثاني الصاعدة إلى الطابق الثالث. كان مهتاج العواطف والأفكار، حائراً لا يعرف التصرف، هل يتخلى عن الدكان ويمد يده إلى زينب ويسحبها من بين أحضان أبو عدنان.. أم يدير ظهره لهما ويذهب إلى الدكان فيفتح بابها مُستقبلاً الزبائن الذين سيأتون طلباً في تصليحات الأدوات الكهربائية، أم..

على درجات الطابق الثالث، وفي الساعة الثالثة والنصف رأى، أو لمــح لون قماش أزرق يتطاير ويختفي وراء بيت أبو عدنان..

وقف مراد.. للحظة وفكر، إنه نفس لون ثوب زينب.. وأمام بيــت أبــو عدنان.. وقف، أراد أن يطرق الباب.. ولكنه لم يفعل، لأنه شعر بالخوف. كان خائفاً، أو مضطرباً، أو..

هز رأسه، ثم تابع صعوده وهو يقول لنفسه: ستفتح الباب، ستدخل إلى البيت فتجد أمامك زينب، تجدها وهي تضع الخبز على الطاولة التي ستتناولان عليها طعام الغداء معاً، ستأكلان، تضحكان، ثم تشربان الشاي، ثـــم ترتاحـــان قليلاً... وقبل أن تخرج إلى عملك في ورشة المتعهد عبد الفتـــاح.. ســـتقبلك زينب قرب الباب نعم.. قبل أن تفتح الباب، قبل أن تخرج، ستقبلك زينـــب.. لا بد أنها في البيت تنتظرك الآن..

هذا ما كان يأمله مراد في نفسه من أجل أن يقطع الشك بـــاليقين، وأن صاحبة ذلك الثوب الأزرق الذي رآه يختفي وراء باب بيت أبو عدنان.. ليست زينب، إنما امرأة أخرى..

فتح مراد الباب بتعب وتراخ، دخل إلى البيت.. لا صوت. كـــأن البيـــت خاو، لا أحد فيه.. تساءل وهو يدور في الغرفة والصالة والمطبخ والمرحاض والحمام. أين ذهبت؟ ونادى: زينب؟ أين ذهبت يا ترى؟

ويمر من أمام عينيه الثوب الأزرق وهو يختفي وراء بـــاب بيـــت أبـــو عدنان.. أيمكن أن تكون قد ذهبت إلى بيت أهلها لزيارتهم؟

ويدور في المطبخ حول نفسه، ينادي: زينـــب.. ولكـــن الثـــوب الأزرق يتكرر في اختفائه في بيت أبو عدنان..

يُخرج الطعام من البراد، يسخن طعامه، يتناوله بتـــردد وبـــلا شـــهية، يزدرده ازدراداً.. ثم ما يلبث أن يشرب كوباً من الشاي وزينب غائبـــة عـــن البيت، يقول لنفسه وهو يضغط الغضب في نفسه: الآن ستفتح الباب وتـــدخل: الآن ستقرع الباب.. الآن..

ويلتفت إلى الساعة، ينظر إليها، يتأملها طويلاً، إنها الرابعة إلاّ الربـــع، لم يبق لديه من الوقت إلاّ ربع ساعة.. عليه الذهاب إلى العمل. أما زينب فلا شك بأنها ستعود بعد قليل، لن يطول بها المقام في المكان الذي ذهبت إليه..

ويدور مراد.. حول نفسه ويدور قبل أن يخرج من البيت. نعم.. يخــرج من البيت قبل أن تعود زينب إليه.. يطبق البــاب وراءه بحــدة معلنــاً عــن احتجاجه على وحدته، على أنه يجب، لا بل كان عليه، إنما.. ويبصق أمامه. يبصق وعيناه في باب بيت أبو عدنان.. كان يتمنى أن ينفتح البــاب وتخــرج منه زينب، ومن وراء رأسها يطل رأس أم عدنان.. وهي تودعها.. لو تم هذا الأمر ووقع، لطار مراد.. من الفرح، لقال لنفسه، أنت مجــرم، لأنــك تفكــر بطريقة سيئة في زوجك..

ويهرع مراد.. هارباً وهو يحدق في الساعة، لقد تأخرت عــن العمــل. يجب أن أكون في الوقت المناسب في الورشة..

وحث مراد.. بن أحمد السيد خطاه..

حلب/١٩٨٩ – ١٩٩٥

صدر للكاتب

١. الصَدَفة والبحر ١٩٧٧ / روايتان
٢. حرب صغيرة ١٩٧٩ / قصص
٣. كوب من الشاي البارد ١٩٨١ / قصص
٤. كتاب الوطن ١٩٨٢ / قصص
٥. أحوال البلد ١٩٨٣ / قصص
٦. المغامرة السابعة ١٩٩٤ / قصص
٧. ما رواه الجليل ١٩٩٦ / قصص
٨. تلك الحكايات ١٩٩٨ / قصص
٩. زهور كافكا ٢٠٠٠ / رواية
١٠.باب خشبي قديم ٢٠٠٢ / قصص

E- mail:dinan@scs- net.org

نيروز مالك

جبل السيدة

رواية

